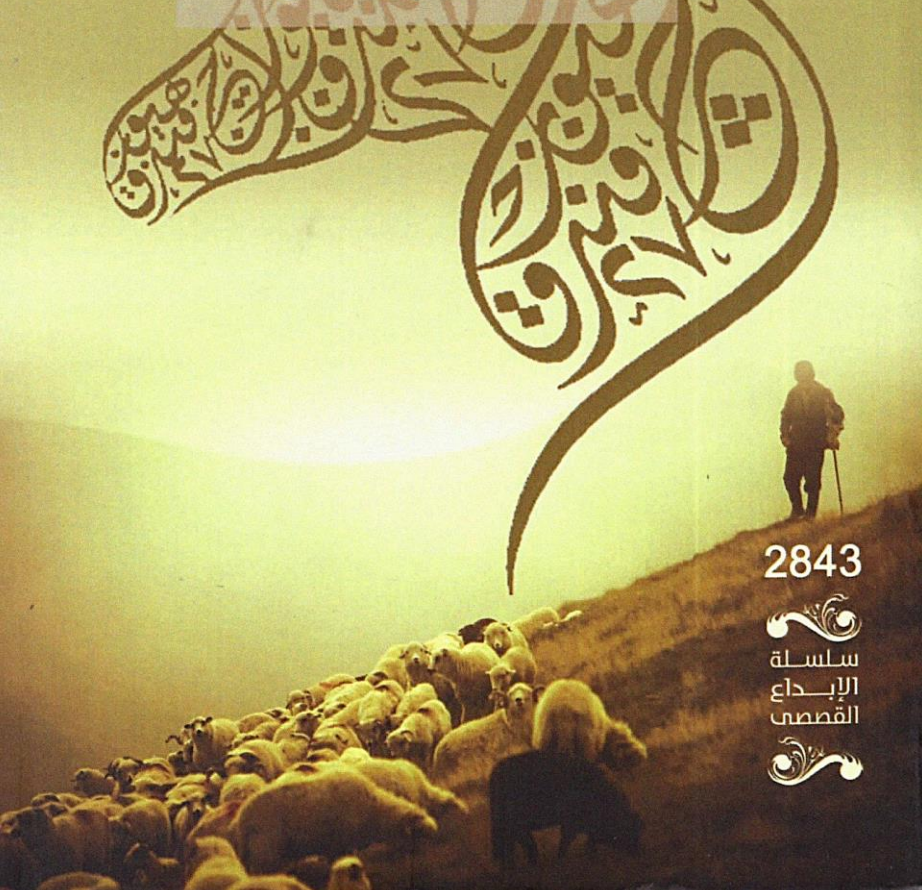
ميشيل تورنييه

قطرة الذهب

(رواية)

ترجمة: نجوى حسن



المركز القومي للترجمة

2843

سلسلة الإبداع القصصي

قطـرة الـذهـب

(روايــة)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2843
- قطرة الذهب
- ميشيل تورنييه
- نجوى حسن
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة:
La goutte d'or
Par: Michel Tournier

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

قطرة الذهب

(روايــة)

تأليف

ميشيل تورنييه

ترجمة

نجوى حسن

2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تورنييه ، ميشيل، ١٩٢٤ -
قطرة الذهب: رواية / تأليف ميشيل تورنييه؛
ترجمة: نجوى حسن،
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٦
٣٠٠ ص ، ٢٠ سم
١- القصص الفرنسية
(أ) حسن - نجوى (مترجمة)
(ب) العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع ٢٢٥٢١ / ٢٠١٦
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 978 -977- 92-0853-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الات
هب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكا
نها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرو
لمركز.

أنت إلى حد بعيد كما تبدو

حتى إني لا أسمع ما تقول.

توماس جيفرسون

رشقة من الحجارة أعادت الكتيبة الشاردة من الماعز، الدائم المرح في الحصى، نحو كتلة الخراف المندمجة المطيعة. كان إدريس يدفع قطيعه الصغير بعيدا نحو خط الكثبان المتوهج كما لم يفعل بالعشية أو الليلة التي سبقتها. كان قد ضمن لنفسه الأسبوع الفائت صحبة بابا ومبروك، شرط المعاملة بالمثل، ومرت الأيام كالحلم. لكن هذين الرفيقين استُدعيا إلى الحديقة لمساعدة والدهما في إزالة الرمال عن مجاري الري. ولم يعد إدريس ذو الخامسة عشرة عاما في سن تسمح له بالاعتراف بأن الخوف من الوحدة يعطي لساقيه أجنحة، ويمنعه من الاستقرار في ظل شجرة قطلب برية منتظرا انقضاء الساعات كما فعل مع رفاقه. كان يعرف بلا شك أن رياح تخوم الصحارى ليست الجن الذي يخطف الأطفال المتهورين الأشقياء، كما حكت له جدته، بحسب تقاليد شفهية تعود إلى الزمن الذي كان فيه البدو يهاجمون سكان الواحات من الفلاحين. لكن هذه الأسطورة تركت آثارا في قلبه، مع الانعكاس الخادع لأشعة الشمس الأولى على "شط الكُسب"، والهروب الوحشي لسحلية منزعجة في مرقدها الرملي بسبب قدميه العاريتين، ورفة أجنحة بومة تائهة في نور الصباح، ودفعه كل هذا للبحث بإلحاح عن تواصل إنساني. كانت

فكرته عندما دفع بحيواناته نحو الشرق هي العثور على إبراهيم بن لاربي، وهو أحد رعاة قبائل شامابا نصف البدوية التي تخيم على طول فرع الراوي، كان يأخذ على عاتقه بوصفه محترف رعاية قطيع إبل الواحة في مقابل كل اللبن ونصف مواليد القطيع.

يعرف إدريس أنه لن يجد صديقه في جماعته التي تحتل خيامها المنخفضة السوداء منطقة الأوجلا ملوان الغنية بالآبار المنهارة واقعيا في أغلبها لكنها كافية للضرورات الإنسانية. والواقع أن الدواب كانت ترعى في دائرة من عشرين كيلومترا موزعة على قطعان مكونة من دزينات من البعير ومثلها من الفسيل (صغير الإبل)، وكان كل قطيع تحت حراسة صبي لديه بئره الخاصة. وتوجه إدريس لأبعد نحو الشمال في اتجاه المضيق الحجري الذي يبدأ من خلفه عالم إبراهيم. وكانت تلك أرضًا قاحلة تتناثر عليها باقات من نباتات الحرض والفربيون البرية، كما تركت عليها رياح الغرب شرائط طويلة من الرمل الأسمر المصفر المنحوتة بدقة. ولم تعد هناك حاجة لمطاردة الدواب حتى تتقدم؛ فاقتراب آبار حاسي أوريت الخاصة بإبراهيم كان لها مفعول مغناطيسي غير مرئي على الخراف التي كانت تسرع الخطى وتجر خلفها الماعز. وعن بعد لم يكن بالإمكان تمييز أي شيء سوى الخيال المعذب لبقايا الجذوع الميتة أو المنحدرات المنخفضة التي تنتشر بها نباتات الأبيسكوي التي تحط

فوقها الجديان بقفزة واحدة. ولكن قريبا من الجرف الرمادي للمضيق، رأى إدريس صورة جانبية ترتسم على شكل مظلة لشجرة السنط التي تظلل على بئر أوريت. وكان لا يزال على بعد كيلومترين عندما قام برفع ناقة ضخمة بدا عليها الضعف من بين الأحجار، فأطلقت زمجرة شاكية وذهبت في هرولة عرجاء أمام القطيع. وكان إدريس سعيدا بتقدمه صوب الشامبا آتيا له بداية ربما كان سيفقدها.

كانت العلاقات بين المراهقين بسيطة وتواطئية: إعجاب به القليل من الخوف لدى إدريس، وصداقة راعية ومتسامحة لدى إبراهيم. ولأنه كان بدويا رحالا وراعي إبل مسئولا عن نفسه، كان إبراهيم يكن في نفسه للواحيين ازدراءً مستخفا لا يقلل منه كونه يعمل لديهم ويدين لهم بعيشه. كان في موقفه نوع من التذكر لماض عريق عندما كانت الواحات والعبيد الذين يزرعونها دون تفرقة ملكية للأسياد البدو. أضف لذلك أن هذا الصبي الذي أصابته الشمس والوحدة بشيء من الجنون، لم يكن يخشى إلها ولا شيطانا ويعرف كيف يستفيد من جفاف الصحراء نفسه. كانت عينه الوحيدة ـ اليسرى- تميز من على بعد مسافة كيلومترين هروب غزال أو إلى أي قبيلة ينتمي سائق الحمير، وكانت عينه اليمنى قد ظلت معلقة في أشواك غابة صمغ كان بعير له قد ألقى بنفسه فيها. أما سيقانه الصلبة الجافة فكانت تحمله أربعا وعشرين ساعة على التوالي دون مياه أو

تمر. كان يتوجه في سيره دون أي انحراف في الليل أو في عواصف الرمال. كما كان يستطيع تحريك الرياح عندما يقوم بغرس جعران مقدس على إبرة ويوجه حركة سيقانه العنيفة المجدفة في الهواء نحو الاتجاه المطلوب، ويحدد مسار نملة ويصل إلى خليتها ويشق أحشاءها بضربة قدم ويحصل على وجبة شهية مغربلا محتوى الأنفاق، رغم أن هذه الحشرات مهيبة في تابلبالا لأن مسكنها تحت الأرض يقربها من الجان. كان عقوقه يخيف إدريس كثيرا؛ فلم يكن يتردد في الشرب واقفا ماسكا الجرة بيد واحدة، في حين أنه يجب عند الشرب وضع ركبة واحدة على الأقل في الأرض والقبض باليدين على الوعاء. كان يتكلم بشكل مكشوف عن النار مستدعيا جهنم بتهور، في حين يستعمل الواحيون بحذر عبارات مثل "العجوز المتصدع" أو "صانع الرماد"، حتى إنه لم يكن يتردد في إطفاء النار بسكب الماء عليها ما يعتبر تدنيسا. رآه إدريس يوما يلتهم باستمتاع مخ خروف وهو جزء يدفن في تابلبالا؛ لأنه يتسبب بالتأكيد في جنون من يمتصه كما لو أنه امتص عقله ذاته.

عندما وصل إلى ظل شجرة السنط تسبقه أنثى الإبل العرجاء لاحظ غياب إبراهيم. كانت دوابه تتدافع حول حوض صغير دائري تغذيه قناة البئر التي ركدت فيها بقايا الماء المخلوط بالرمال. وكان

يمكن لها الاستغناء عن الشرب حتى المساء، لكن الحوض كان نقطة جاذبة تمنعها من التبعثر.

أين كان إبراهيم؟ هل اصطحب إبله نحو مرعى بعيد نما في عدة ساعات بفضل الرعد؟ وراح إدريس يبحث عن أثر له حول الشجرة، لكن الأرض كانت مرشقة بآثار تخلط بين باطن الخف العريض للإبل والثقوب الصغيرة لحوافر الماعز والخراف. حينئذ أخذ يحدد قوسا دائرة متباعدا عن البئر في محاولة لاكتشاف علامة على الجهة التي اتخذها الشامبا. ولاحظ على الممر الأثر غير المنتظم الذي تركته سحلية، والنجوم الصغيرة الدالة على تقافز يربوع، والأثر المثلث القديم نوعا ما لثعلب صحراء يعدو. ثم دار حول كتلة البازلت التي يبرز سوادها على الحرش الباهر مع صعود الشمس في الأفق. حينئذ اكتشف أثرا شديد الإثارة خلق في التو فراغا في ذهنه. ولم يعد يفكر في إبراهيم ولا في إبله ولا في قطيعه الخاص؛ فقد وجد هذين الشريطين المحززين بدقة اللذين يحفران أخاديد ضعيفة ظاهرة في الأرض البيضاء إلى ما لا نهاية. وكانت تلك آثار سيارة، أوتوموبيل، لم يذكرها أحد في الواحة، كانت قد انبثقت من الليل مع حمولتها من الثروات المادية والغموض الإنساني. وانطلق إدريس لاهثا من الإثارة في إثر الحافلة الفارة نحو الشرق.

كانت الشمس متوهجة في وسط السماء عندما لمح في إهتزاز الأرض الساخنة خيالا غليظا لسيارة لاندروفر منزلقا نحو غابة تمر هندي صغيرة. ولم تكن السيارة مسرعة، لكن إدريس لم تكن لديه فرصة للحاق بها، حتى إنه لم يفكر في ذلك. وتوقف متسمرا من الدهشة والخجل تحيط به خرافه ونعاجه. كانت اللاندروفر متجهة نحو الشمال وقد اتخذت الآن طريق بني عباس، كي تختفي عن النظر خلال خمس دقائق. لكنها على العكس أخذت تتباطأ، واستدارت للرجوع، ثم استعادت سرعتها منطلقة نحوه مباشرة. كان على متنها شخصان، رجل يقود وبجانبه امرأة لم يميز منها إدريس في البداية سوى الشعر الأشقر والنظارات الكبيرة السوداء. وتوقفت السيارة، ونزعت المرأة نظاراتها وقفزت إلى الأرض، وتهدل شعرها بقعة صفراء على كتفيها. كانت ترتدي قميصا كاكيا مفتوحا للغاية وسروالا قصيرا على نحو شائن. ولاحظ إدريس أيضا حذاءها الذهبي وفكر في أنها لن تذهب به بعيدا في الحجارة المحيطة. وكانت تحمل آلة تصوير.

ـ أيها الصغير! لا تتحرك كثيرا، سوف أقوم بتصويرك.

ـ يمكنك على الأقل أخذ رأيه دمدم الرجل. فمنهم من لا يحب ذلك.

ـ عليك أنت قول ذلك! علقت المرأة.

أصغى إدريس وجمع في رأسه بقايا اللغة الفرنسية التي يعرفها لفهم ما يقال. وكان من الواضح أنه كان موضوعا لمناقشة بين الرجل والمرأة، ولكن المرأة هي التي تهتم به وهذا ما أقلقه خاصة.

ـ لا تتوهمي أشياء قال الرجل ساخرا، فهو ينظر للسيارة أكثر مما ينظر إليك.

حقا كانت هذه السيارة تفرض نفسها، فهي قوية وبيضاء بسبب الأتربة، ومغطاة بالخزانات والعجلات الاحتياطية والرافعات وطفايات الحريق وكابلات السحب والمعاول ولوحات التجريف. وكان إدريس معجبا باعتباره خبيرا بالصحراء بهذه الحافلة للرحلات الطويلة التي تماثل من بعيد الجمل المبردع؛ فالناس الذين يملكون هذه الأداة المرموقة لا يمكن أن يكونوا إلا أسيادا.

ـ ليس لدي أوهام، قالت المرأة ولكن أعتقد أنه ليس هناك فرق بالنسبة إليه؛ فنحن والسيارة نمثل العالم الغريب نفسه، فأنا وأنت، لسنا سوى انبعاثات للاندروفر.

وأعادت تجهيز ذراع آلة التصوير عدة مرات واستهدفت إدريس وخرافه من جديد. وكانت تنظر له باسمة ومتخلصة من آلة التصوير. بدا أنها أخيرا تراه بشكل طبيعي.

ـ أعطني الصورة.

كانت هذه أول كلمات ينطق بها إدريس.

ـ يريد صورته، أليس طبيعيا؟ تدخل الرجل كما ترين يجب أن نأتي دائما بآلة تصوير فورية. سوف يصاب الطفل المسكين بالخيبة.

أعادت المرأة آلة التصوير إلى السيارة وأخرجت منها خريطة داخل إطار من الورق الشفاف، واقتربت من إدريس.

ـ مستحيل يا صبي. لابد من تحميض الفيلم وطلب سحب نسخ. وسوف نرسل لك صورتك. انظر، نحن هنا في تابلبالا هذه البقعة الخضراء هي واحتك، وغدا سنكون في بني عباس، ثم بيشار ثم وهران. ومن هناك سنستقل عبارة السيارات البحرية، ثم سنقضي خمسا وعشرين ساعة في البحر إلى مارسيليا. يليها ثمانمائة كيلومتر على الطريق السريع حتى باريس. ومن هناك، سنرسل لك صورتك. ما اسمك؟

عندما اختفت اللاندروفر مثيرة سحابة من التراب، لم يعد إدريس هو الرجل نفسه؛ فلم يكن يوجد في تابلبالا كلها سوى صورة فوتوغرافية واحدة. أولا بسبب أن الواحيين شديدو الفقر فلا يهتمون بالتصوير، ثم لأن هؤلاء البربر المسلمين يخشون الصورة، ويضفون

عليها قدرة شريرة، ويتصورون أنها تجسد الحسد على نحو ما. ومع ذلك أسهمت هذه الصورة الوحيدة في هيبة العريف الرئيس موجادم بن عبد الرحمن، عم إدريس، الذي أتي من حملة إيطاليا الحربية بشهادة وبالصليب العسكري. فكنت ترى الشهادة والصليب العسكري والصورة بوضوح على حائط مسكنه، وبالصورة المشققة والغائمة بعض الشيء، كان يمكن التعرف إليه متألقا بالشباب وبالعنفوان مع اثنين من رفاقه الساخرين. وفكر إدريس في أنه لم يكن في تابلبالا إلى هذا الحين سوى صورة واحدة، ومن الآن فصاعدا ستكون هناك صورة أخرى، هي صورته.

كان يهرول على الأرض البيضاء باتجاه شجرة السنط الكبيرة في حاسي أوريت، وهو يتدفق بالمغامرة التي عاشها ويمني نفسه مقدما بالتفاخر بها عند إبراهيم. أيتفاخر بالفعل؟ وبأي دليل داعم؟ فقط إذا كانوا قد أعطوه صورته! لكن لا، فصورته تسير في هذه الساعة نحو بني عباس محبوسة في علبة آلة التصوير محصنة في اللاندروفر. وهذه السيارة نفسها ستصبح غير حقيقية كلما تقدم الوقت، فسوف تختفي آثار العجلات، وقريبا لن يكون هناك ما يدل على حقيقة اللقاء الذي قام به توًّا.

عندما وصل إلى أوريت، استقبله إبراهيم كالعادة بوابل من الأحجار. هذا أيضا لا نفعله بين الواحيين؛ فالتقاط حجر في ذاته يعد

لفتة عداء، وتهديدا بعيدا لحسن الحظ عن التنفيذ. كان إبراهيم يلهو بالإتقان الشيطاني الذي اكتسبه من رمي الأحجار منذ طفولته. كان ينال دون خطأ من غراب يطير أو ثعلب يتسابق. وعندما رأى صديقه يقترب كان يلعب على سبيل الترحاب بإثارة الرمل على اليمين وعلى اليسار وأمامه وحتى بين قدميه، ليس على أمل إخافته ولكن فقط لإظهار فرحته برؤيته بطريقة تخلط بين عدوانيته ومواهبه الطبيعية، كان إدريس يعلم منذ زمن طويل أنه لا يتعرض إلى خطر. وتوقف عندما أصبحت المسافة بينه وبين إدريس ضعيفة جدا لتمثل اللعبة اهتماما.

ـ تعال هنا (صاح عليه)، هناك جديد!

هكذا كان إبراهيم! وكان إدريس قد قام بلقاء مذهل. لقد خضع لتجربة التصوير وعلاوة على ذلك مع امرأة شقراء، وأصبح فجأة شخصا يقارن بالعريف الرئيس موجادم، وبعد مرور ساعتين صار إبراهيم هو من لديه جديد ليخبرهم به!

ـ لدي ناقة سوف تلد على بئر حاسي الحورا على بعد ساعة من هنا. البئر هناك فاسدة ولا بد لها من أن تشرب. هيا بنا سنذهب إلى هناك باللبن.

كان ينطق باللغة البربرية في جمل متقطعة تشبه العواء الآمر. وفي الوقت نفسه كانت عينه الوحيدة تومض ببريق ساخر، فإدريس لم يكن إلا واحيا أبله و"ذا عضو مستدير"، طيعا ووديعا، ولكن لا يساوي شيئا أمام راعي إبل شامبا. وتقوس ذكر إبل عجوز وأطلق قذفة بول على الرمل. وانتهز إبراهيم الفرصة وغسل في البول يديه لأن الشامبا لا تحلب بيدين قذرتين. ثم أدار إحدى الإناث على الوضع المناسب للحلب وبدأ في فك الشبكة التي قيد ضروبها ووضعها بعيدا عن صغار القطيع. وأخيرا بدأ في الحلب واقفا على رجل واحدة متكئا بالقدم اليسرى والركبة اليمنى ومسندا وعاء من الفخار في توازن إلى فخذه اليسرى.

كان إدريس ينظر إلى التدفق الذي يرش بالتبادل في الوعاء. وكان في حالة من نقص التغذية الدائمة ويعاني من الرغبة التي يوحى له بها هذا السائل الأبيض الساخن الحي القادر في الوقت نفسه على إشباع عطشه وجوعه. وقامت الأنثى بهز أذنيها الصغيرتين كآذان الدب، وفاتحة شرجها أسالت إسهالا أخضر إلى داخل فخذيها وهو علامة على الثقة والاستسلام التي تحفز نزول الحليب.

وتوقف إبرهيم عن الحلب عندما قرر أنه حصل على ما يكفي من لبن لملء واحدة من هذه القرب الجافة ذات الغطاء التي تعلق على خاصرة الجمل في شبكة من ليف النخيل. واقترب من الذكر

المسن وأناخه فقط بنداء من الحلق بغير الحاجة إلى لمسه. ثـم جـثم على كاهله ساندا ظهره إلى الحدبة وأجلس إدريس أمامـه. واسـتقام الجمل مزمجرا في حدة وانطلق من فوره نحو الشمال. وبعد عبـور منطقة من الأرض المحمرة التي تتناثر فيها أدغـال ضـعيفة مـن الشجيرات، دخلوا في سرير لواد تسلقوه عدة كيلومترات. كان منحوتا من آثار الماء ــ الذي بدا أنه لم يعد يجري منذ سنوات ــ في صفائح واسعة ناعمة وجافة كانت تتـصدع فجـأة تحـت أخفـاف الجمـل العريضة. وكاد الراكبان يسقطان عدة مرات على الأرض. كما كانت الدابة تزمجر بغضب، وكان لا بد من تخفيف السرعة. ثـم توقفـت الدابة تماما أسفل صخرة من البازلت أحست فيها بوجود ماء. وتركها إبراهيم تشرب من الماء الرمادي حيث تتعرج الحـشرات. ورفعـت رأسها حزينة ومتعجرفة وشمرت شفتيها المبللتين بالميـاه وأطلقـت ريحا به رائحة مالحة وكبريتية. ثم تم استئناف السباق، وكانـا كلمـا اقتربا من حاسي الحورا يستشف إدريس القلق ونفاد الـصبر الـذي يسيطر على رفيقه. الذي كان يشعر بالنحس في الهواء، وتلك غريزة لا تخطئ تحذر الشامبا.

كان هناك فحسب مرتفع في الأرض ــ بقايا ردم قـديم جـدا ومتحجر من الحفر ــ يشير إلى وجود بئر. ولم يكن هناك حـوض، ولا حائط صغير، ولا حجر مثبت عند الحافة، فقط حفـرة مـستديرة

مفتوحة بخطورة على مستوى الأرض. وكوخ هش من القصب المشبك للنخيل يشي بأن الرعاة يعرفون نقطة المياه هذه وأحيانا يرتاحون فيها باعتباره ملجأ من الشمس بعد سقاية دوابهم. لكنه كان مهجورا في الوقت الحالي. ومن مسافة بعيدة، ميزت عين إبراهيم الوحيدة شكلا ضعيفا أسمر يميل للصفار لجمل وليد، متروك بين البئر والملجأ. وكانت أسوأ أحاسيسه الباطنية تتحقق.

قفز من الجمل وهرول في التو إلى حرف البئر. ورآه إدريس يتقدم على العارضة الأقرب للهيكل الداخلي التي تمسك بناء الجدران واستلقى عليها ليتفحص بشكل أفضل قاع الحفرة. ولم يكن هناك أي شك؛ فبسبب إجهادها من مخاض الولادة تقدمت أنثى الجمل من الحرف وانقلبت في الفراغ. في هذه اللحظة أطلق وليد الجمل خوارا شاكيا وردت عليه أمه، فصعدت من فوهة البئر حشرجة مضخمة كأنها صادرة عن أنبوب أرغن عملاق. وبدوره انحنى إدريس على الفتحة. ولم ير في البداية سوى تشابك الغوارض المثبتة لمشدات الجدران. لكن عندما تعودت عيناه على العتمة ميز انعكاسات مضيئة ولامعة وظلا أسود مستلق على جانبه ومغمور للنصف، وكختم بالغ الصغر على حافة هذه اللوحة الكئيبة ظهرت صورة رأس ممدودة فاتحة عينيها على الأزرق العميق للسماء.

وهم إبراهيم وجرى نحو الكوخ. وغاد منه بحبل من الجلد المضفور.

ـ سوف أنزل لأرى ما إذا كانت الدابة جريحة، قال شارحا. وسنحاول شدها من هنا بمساعدة الرعاة الآخرين. أما إذا كانت قد كسرت قدمها فعندئذ يجب الإجهاز عليها.

وانزلق إلى الداخل بعد أن ثبت طرف الحبل على رأس صخري. ومرت لحظة صمت. ثم سرعان ما علا صوته مع أصداء كهفية.

ـ لديها رجل مكسورة. سأذبحها وأسلخها. وسوف ترفع القطع. ابدأ بملابسي.

ورفع إدريس صرة خفيفة من الملابس الرثة. ثم انتظر دون أن يحاول رؤية العمل الرهيب المنخرط فيه الشامبا داخل مياه موحلة على بعد عشرين مترا تحت الأرض.

كان الجمل الكبير قد اقترب من الجمل الوليد وبعد أن استشعره طويلا، أخذ في لعقه بحنان. وكان من غير المحتمل أن يستجيب الذكر المسن لنداء داخلي مفاجئ للأبوة. بل كان بالأحرى يقدر الرائحة العنيفة للأم على الجسد المرتجف المبلل للصغير. أما الصغير الذاهل من العزلة، فكان يحتك بشدة في هذا النصير غير

المتوقع، ثم مدفوعا بغريزته كان يفتش بفمه بأعضائه التناسلية بحثا عن حلمات افتراضية.

وانتزع إدريس من تأمله نداء ملح، فبدأ في سحب الحبل الجلدي الثقيل. ثم استطاع أن يشد فخذا وساقا ما زالتا دافئتين بالحياة، وحمل هذه القطع من اللحم إلى ظل الكوخ. وسرعان ما راح صوت الجمال يدوي من جديد.

ـ اسحب دلوا من الماء وقم بخلطه باللبن الذي أحضرناه واسق الصغير.

هكذا كان إبراهيم، في ذروة العمل المنهك الذي يقوم به، فلم يكن ينسى الجمل الصغير، وضحى له بالغذاء الوحيد لديه. وأطاع إدريس على مضض، ولكن دون أن يتخيل إمكانية عدم الطاعة، بشرب جزء من اللبن على سبيل المثال. كانت شجاعة رفيقه التي تفوق طاقة البشر تسيطر عليه. وكان الجمل الصغير غير قادر على الشرب، فكان على إدريس أن يصنع من أجله رضاعة مؤقتة، مستخدما زجاجة قام بكسر قاعها ليستخدمها باعتبارها نوعا من القمع. وبالكاد كان قد بدأ في هذه التغذية عندما بعث له من قاع البئر بزبع جديد من الناقة. وعندما بلغت الشمس قمة مسارها، سمع إبراهيم يهنئ نفسه بالضوء المباشر الذي يستفيد منه. وأصبح الكوخ

عبارة عن كومة من قطع اللحم التيَ تئز فوقها أسراب الذباب الأزرق بمجرد إزعاجها. لكن ما كان يقلق إدريس هو أن السماء الفارغة من ساعة، امتلأت بصلبان صغيرة تتحرك ببطء، وتبدو وهلة ثابتة، ثم تنزلق فجأة محلقة. كانت النسور قد رأت كل شيء واستعدت للنزول، مع ذلك كانوا أقل خشية من الغربان التي لا تتراجع جرأتها وعدوانيتها أمام شيء. كان يتخيل ما ستكون عليه عودتهم مع الجمل الوليد الذي يمشي بالكاد، والذكر الكبير مؤرجحا على سنمه هرما من اللحم الطازج، والخط الأسود الصارخ من الغربان الذي سيتبعهم.

ودهش برؤية إبراهيم فجأة يتسلق العارضة الأفقية للبئر. لم يكن إلا تمثالا حيا منحوتا في الطمي الملطخ بالدم. ومبهورا بالضوء الشديد، قام بستر وجهه بيديه ورفع رأسه نحو السماء. ثم انزلقت يداه ورأى أن كتلة من الدم قد استقرت في محجره الفارغ كأن عينه قد نزعت في التو. كان الشامبا ثملا من التوتر والتعب والإثارة العابرة، فرفع ذراعيه وأطلق صيحة انتصار وتحد. ثم أخذ في التقافز بتوازن فوق العارضة. كان قد أمسك عضوه في يده وراح يشده ناحية إدريس.

ـ انظر يا ذا العضو المستدير! أنا عضوي مدبب!

وقفز مرة أخرى على الجذع الفاسد، فسمعت فرقعة، واختفى الشامبا كما لو سقط في شرك. وعلت فرقعة ثانية عرف منها إدريس أن جسد رفيقه اصطدم بالعارضة الرئيسية للهيكل، التي انهارت بدورها. وكان من الممكن تصور حدوث زلزال؛ فقد اهتزت الأرض، وانهار الكوخ على قطع الجمل، وتدفقت سحابة من الدخان من البئر نحو السماء وميز إدريس الطيران المذعور لعدد لا يحصى من الخفافيش التي تقضي النهار داخل هيكل البئر. وأدى تحطم العارضتين إلى انهيار كل الشدات التي تمسك بحوائط الحفرة. وامتلأت البئر فجأة. فحتى أي مستوى؟ وأين كان إبراهيم؟

واقترب إدريس. وعلى أقل من عمق مترين، رأى الرمل مخلوطا بقطع الخشب المكسور. ونادى على رفيقه، فصعد صوته الضعيف في صمت قبري ضاعف من وحشته بلوغ الشمس أوجها. حينذاك سيطر عليه الذعر، فصرخ من الخوف وأخذ يجرى مباشرة إلى الأمام. أخذ يجري طويلا إلى أن تعثر فوق ساق شجرة وانهار على الرمل مهتزا من البكاء. لكنه سرعان ما قام واضعا يديه فوق أذنيه. لاصقا خده على الأرض، واعتقد أنه يسمع ضحكة صديقه المدفون حيا آتية من الأعماق.

هل صورك؟ والصورة أين هي؟

مرة أخرى عادت أمه لقصة الصورة هذه، في حين كانت تقوم جارة لها، المعلمة كوكا، بمساعدتها على تسريح شعرها والتزين. ولم يقدر على الاحتفاظ لنفسه بلقائه بفرنسيي اللاندروفر وبالوعد الذي أعطيا له بأن صورته، سوف يرسلانها له، وسوف تصل بالبريد النادر الذي يصل للواحة، مع طلبات التموين والأدوات والملابس التي تسلم كل أسبوع بواسطة سائق النقل صلاح إبراهيم الذي يؤمن الاتصال مع الواحة الكبيرة المجاورة بني عباس. لكنه مراعاة لأمه التي تميل دائما إلى تخيل الأسوأ، سكت عن دور المرأة الشقراء وحتى عن وجودها، وحكى أنه لم يكن هناك سوى رجلين في السيارة، أحدهما قام بالتصوير.

– لن تصل أبدا تنبأت باكفهرار كوكا بنت لعيد وهي تفكك شعر الأم بواسطة ثلاثة مخارز من الحديد ثم ماذا؟ ماذا سيفعلون بهذه الصورة؟ لا أحد يستطيع أن يعرف!

ـــ ما ذهب هو بعض منك زايدت الأم. فلو مرضت بعد ذلك، كيف نعالجك؟!

ـــ قد يرحل هو أيضا أضافت كوكا. ثلاثة شباب من القرية هاجروا إلى الشمال خلال ستة أشهر!

كان إدريس مستغرقا في عمل دقيق. كان يحفر بالسكين جملا صغيرا في كتلة من الكاولين (الصلصال الصيني) المؤكسد بعناية شديدة حتى يمنع عن نفسه التدخل في اللغو القاتم للمرأتين. كان قطيعه من الجمال المنحوتة يساعده منذ طفولته في اللعب باعتباره بدوي شامبا. في البداية كانوا يهدونه هذه القطع واحدة واحدة. في ما بعد، قام بتلوين قطيعه وألبسه قطعا من القماش وألياف النخيل، وكان كل يوم يسقيه ويذهب به للمرعى ويعالج الدواب المجروحة أو المريضة. وما إن كبر على هذه الصبيانيات، تنازل عن دوابه الواحدة بعد الأخرى لإخوته الصغار، وكان يحفر قطعا جديدة تثري قطيعا وافرا بالفعل.

ـ هؤلاء الشباب، أعرف لماذا يرحلون، نطقت كوكا بغموض.

وساد صمت مهذب، ثم سألت الأم:

ـ إذًا؟ لماذا يرحل هؤلاء الشباب؟

ـ لأننا قمنا بتعليمهم المشي مبكرا، وهو عيب بدوي يؤثر فيهم مدى الحياة.

ـ إدريس لم يمش قبل سنتين، قالت أم إدريس بممانعة.

كانت قد جرحت من التذكير بخاصية عائلية عذبتها في ما مضى بالهموم والأحاسيس القاتمة، فكل أطفالها تقريبا تأخروا في المشي. حتى إنه من أجل طفلها الثالث، عندما بلغ عامين، أقيمت له صلاة المشي التقليدية في مثل هذه الحالات التي يرتدي الطفل فيها أسمالا ويترك عليه عمدا مخاض وبلل، ثم تحمله في مهد فتاتان ـ أخوات أو بنات عمومة أو جارات ـ تتقدمان أمام كل بيت مبتهلات دون توقف خلال كل الجولة قائلات: "إنه لا يمشي، لا يريد أن يمشي، ليجعله الله يمشي". وتقوم كل عائلة مزارة بتقديم هبة من قمح، أو شعير، أو سكر، أو بصل، أو قطعة نقود توضع في المهد ملامسة للطفل. ثم تقوم الأم بإقامة وليمة صغيرة مستعملة الهبات المعطاة للطفل الذي لا يمشي وللفتيات اللاتي مشين بدلا منه.

ـ نعم، ولكنه منذ سن السادسة، أصرت كوكا، كان يلعب بشاحنة مع صفيحة بترول مجهزة بأربع عجلات من الفخار وواحدة للإنقاذ، فماذا كان يعني ذلك؟

ـ إذا كان لا بد لإدريس أن يرحل، فسوف يرحل، ختمت الأم بقدرية.

ـ بالتأكيد، ولكن ليس بالضرورة مع العين الشريرة، صادقت كوكا وهي تضع على شعر الأم دهانا سميكا مكونا من الحنة والقرنفل والورد المجفف والآس ما يعطي للتصفيف صقلا مغريا.

كانت قد نطقت الكلمة التي لم تكف عن مطاردة الأم منذ أن عرفت بحادثة اللاندروفر؛ فمن أجل الوقاية السليمة، وحتى لا تجرحه العين الشريرة، يجب قدر المستطاع المرور دون أن يلاحظه أحد. فجذب العين بملابسه وبقوته وبجماله فيه إغراء للشيطان؛ لذا تهمل أمهات تابلبالا أطفالهن عمدا، وتتركهم في حالة من القذارة حتى لا يثيروا الإعجاب في سن صغيرة بشكل خاص. فالرجل الذي يستعرض بفخر السكين الجديدة التي اقتناها معرض لجرح نفسه بمجرد استعمالها، والمرضع المتفاخرة بثدي وافر، والماعز ذات الخصوبة الواضحة، والنخلة الفاخرة الزهر، يتعرض كل هؤلاء لضربات العين التي قوتها تجفف وتعقم وتنشف. وكل صورة حسنة يحيط بها تهديد كبير، فما بالك بالعين الفوتوغرافية، وتهور من يعرض نفسه لها راضيا!

وكان إدريس يعلم كل ذلك، وكانت الروح البلبالية قد غمرته ليرتجف أمام المخاطر التي يتعرض لها بكامل إرادته. لكن كانت لديه في الوقت نفسه الرغبة العارمة في التخلص من سلطان الواحة التي كبر فيها. وكان إعجابه بالبدو الشامبا يذهب في هذا الاتجاه، على غرار اعتنائه المستمر بهذا القطيع الصغير من الجمال المنحوتة حتى في سن نتعرض فيها للسخرية بسبب تلك الطفوليات.. علاوة على ذلك كانت أمه قليلة التقدير لهذه المجموعة، لكن إدريس كان

صبيا وسيصبح رجلا قريبا، ولم تكن الجمال رغم ذلك عرائس، بل هي لعب لم تكن لتقبلها في أيدي بناتها.

جمعت كوكا بعناية شديدة شلة الشعر المتبقي في أسنان المشط؛ فمن الضروري ألا تضيع منه واحدة، لأنه إفراز خاص من الأم يحتفظ بتأثير مباشر في صحتها الجسدية والنفسية، وهو قد يمثل أداة سحر مخيفة إذا وقع في أيد خبيثة. ومع ذلك لم يكن من المطروح حرقه، فكان يدفن تحت شجرة تمر هندي، وهي شجرة موضع إجلال نسائي.

ـ هل من الصحيح أن إدريس قد بيع للزنوج؟ سألت فجأة كوكا.

كان سؤالا متطفلا، ولم تكن المعلمة تجرؤ دون شك على طرحه أمام شاهد أو حتى مواجهة. لكن الأم كانت تدير لها ظهرها وهي مستسلمة ليديها، وكان بوسعها بغير خشونة أن تتهرب منه أو حتى تقابله بالصمت.

ـ نعم، قالت بعد تفكير قبل ميلاده كان لدي طفلان ولدا ميتين.

كان الشرح كافيا؛ فعندما ينهال سوء الطالع على عائلة كانوا يستعينون، في يوم الولادة، بالجماعة الصغيرة لسلالة العبيد السود في الواحة، ليرقصوا في باحة المنزل. ويضع الأب الطفل رمزيا على طبل الزعيم، ويهب الجماعة هدية قيمة عينية ونقدية. فإذا عاش

الطفل يكون من حق الزنوج، الذين أخذوا بهذا قدره على عاتقهم، أن يحصلوا على هبة جديدة، كما كان يجب عليه طوال حياته أن يتذكر حراسه. وحتى سن ست سنوات كان إدريس يصفف شعره مثل الأطفال الزنوج، فكانت تحلق جمجمته تماما في ما عدا قمة سميكة تبدأ من الجبهة وتذهب إلى القمة حتى العنق.

لم تصر كوكا ولكن الأم فهمت أنها ترى في هذه التفصيلة سببا إضافيا حتى يترك إدريس عائلته. وكانت، وهي تتفادى أن تزم الشعر كثيرا ما قد يتسبب في العقم، تضفر بصبر الضفائر الثلاث المعتادة للنساء المتزوجات، وضفيرتين جانبيتين رفيعتين بعض الشيء تزينهما حلقات من الفضة، وضفيرة كبيرة في الظهر تمر في عقدة مخروطية ترمز للعين الحارسة.

كانت المعلمة قد شرعت في دهان وجه الأم، وغيرت مكانها لتجد نفسها من الآن فصاعدا مقرفصة في مواجهتها. وعليه أخذ الحوار منحى أقل غدرا من ناحية كوكا وأكثر مقاومة من ناحية الأم. أما إدريس فكان يخفى نفسه، كما تعلم أن يفعل في كل مرة، داخل المسكن الضيق، حين يحضر مشهدا هو مبدئيا مستبعد عنه بسبب سنه أو جنسه. لكنه كان يفكر في الحفل الذي سيبدأ هذا المساء ويستمر طوال عشرة أيام، فأحمد بن بعادة سيزوج ابنته عائشة إلى الابن البكر لمحمد بن سهيل، وسوف تأتي فرقة من راقصين وموسيقيين من أعالي الأطلس لتضفي لونها وإيقاعاتها على الاحتفالات.

أعدت النسوة طوال اليوم في بيت الزوج المقبل وليمة (تازو) تكفي مائة وخمسين إلى مائتي شخص، وقد أعمل عشر منهن المطاحن الصدفية ثلاث ساعات لتصنيع سميد القمح اللازم. وكانت الإثارة التي تغذيها هذه الجوقة الدائمة الحديث والغناء والهمهمة دون توقف تصل للفضوليين الذين يمرون لمشاهدة عرض الهبات المهداة من عائلة الشاب لعائلة الزوجة المقبلة. كانوا يعجبون بقطع الأقمشة والأوشحة والأحزمة والبابوش والأساور والعقود الفضية والأمشاط والمرايا وماء الكولونيا، وتلك المنتجات التي دونها لا يوجد حسن نسائي، من حناء وريحان شامي وبخور وقشر الجوز والقرنفل وجذور السوسن البري. وأمام الفقر المدقع للواحة كان هذا العرض يمثل للعين متعة لا تفوت.

وكانت تجمع النساء بعد الظهيرة رقصة متواضعة شبه خجول. تتكون فيها ثنائيات بين الزوجات والفتيات كأنهن في حاجة لتلقين من الأكبر سنا. ومن ناحيته، كان الخطيب مصحوبا "بوزرائه" – سبعة أو ثمانية رفقاء غير متزوجين – عائدا من سخرة غامضة لجلب الخشب يدل عليها نصف دستة حمير محملة بحزم عصيان يدفعونها للأمام. وكانت التقاليد تستدعي أن يلتحف حتى عينيه ببرنس واسع مربوط بالحبل الذي ساعد أمه على ولادته. والحقيقة أنه أمضى الليل في الاحتفال مع رفقائه المعتادين ليسجل نهاية لمراهقته. وهكذا أوجد التمييز بين الجنسين احتفالا مزدوجا عشية الزواج.

أسهم إدريس في هذه الطقوس بالقدر الذي تماهى فيه مع الخطيب ـــ الأكبر بثلاث سنوات فقط ـــ وهو قياس ضعيف؛ فقد خلف الموت المأساوي لإبراهيم فراغا كبيرا من الصداقة حوله لم يكن هناك صبي من الواحة يستطيع أن يشغله. وكانت العروس من سنه، وقد كبرا معا. وكانت هذه الفتاة السمينة السلبية واللينة مجردة في نظره من الغموض والتأثير. ولم تكن تتمتع بأكثر من ذلك في نظر زوجها المقبل. ولكن علي بن محمد ظل مخلصا للتراث الذي يترتب عليه أن يحب الزوجان بعضهما، وأن يحترم كلاهما الآخر لأن مراسم الزواج تجمع بينهما، كما أن العواطف يجب أن تكون نتيجة وليست سببا للزواج. وعلى نحو مخادع، كانت الفكرة المعاكسة، التي تضع الحب أولا وسببا مبدئيا للزواج، هذه الفكرة الحديثة الآثمة، قد فرضت نفسها على عقلية إدريس. فبمجرد أن اعتبر العروس دون جاذبية، بدا له أن الحفل ربكة دون فائدة، حتى إنه يمثل نوعا من التهديد الافتراضي لحريته، رغم أنه قرر إحباط كل محاولات والديه وأهل بعض الفتيات الصالحات للزواج لدفعه إلى طريق الزواج. وفي مواجهة منظر هذا الشاب الذي يتجذر رسميا في تابلبالا بأن يصبح زوجا، وعن قريب أبا، شعر إدريس بأجنحة تنمو في كعبيه، وراح يفكر بزخم جائع في المصورة الشقراء التي أخذت صورته معها في عربتها الخيالية. وتنازعت مخيلته صورتان:

صورة صلاح براهيم الذي يقفز من شاحنته ذات يوم ليعطيه ظرفا آتيا من باريس حيث توجد الصورة، وصورة أخرى خاصة كان يرى فيها نفسه على الطريق متقدما ناحية الشمال في مسيرة طويلة ستنتهي في باريس، وهو ما كانت العجوز كوكا قد خمنته. ولم يعد يفكر في سوى الرحيل.

كان الليل قد هبط منذ وقت طويل عندما علا صخب الضيوف الآتي من قصر شرايا، حيث كانت المشاعل تعكس أضواء حريق على حوائط الحفر المكلسة. وقد مزقت الصمت الليلي النداءات الخشنة والزغاريد الحادة والأصوات الهادرة للطبول والأبواق. كانت فرقة من الجبليين الآتين من الغرب على طريق همادة درعا تهدي إلى الزوجين الشابين هذا اللحن العاطفي على طريقتهم، فكانت الطبول شديدة التسارع، وكل طبلة محمولة أفقيا ومشبوكة في خصر العازف تطلق صوتين، أحدهما واضح والآخر مكتوم بحسب ما يدق الطبال، على طرف بالعصاة أو على الطرف الآخر بالقبضة. وكانت غنة موسيقى القرب تشكل حبكة يقوم بها عازفان منفردان يتبادلان النفخ في أبواق نحاسية قصيرة ليحددا منحى لازمة موسيقية. وكان هذا بعيدا عن المونولوج الواضح النقي الذي كان إدريس يعزفه أحيانا، في أكثر أوقات النهار حرارة، على ناي من الغاب به ستة ثقوب.

كون العازفون أمام منزل محمد بن سهيل نصف دائرة مضاءة بقوة وخيال المشاعل. وأخذت الموسيقى تصخب وترتفع من لحظة لأخرى ناقلة حمى تتعذر مقاومتها في أجساد المتفرجين الهامدة. وارتفعت حدة الإيقاع لهدف يعلمه الجميع، وهو تفجير الرقصة والعمل على تركيز كل فرقة العازفين في رقصة واحدة. وجاء الميلاد، فقد ظهرت امرأة سوداء تلبس وشاحات حمراء وزينة من فضة في وسط الحلبة. ولم تكن "ست زبيدة" ترقص سوى في أعلى مراحل الحفل فهي التي تمثل روحه وشعلته. وجرت في البداية منحنية إلى الأمام بخطوات سريعة حول دائرة حددتها كأنها تؤكد عالمها. ثم رسمت سلسلة من الحركات أكثر فأكثر تقاربا. ووضح الأمر، فقد كانت تستقي كل الموسيقى المنتشرة على حلبتها، كأنها تجمع حصادا غير مرئي من كل الرقصة المتناثرة حولها: ورقص الجمع معها والكل يردد ابتهالا ملحا وغامضا:

فرس النبي يرفرف فوق الماء

الجرادة تصرصر فوق الحجر

فرس النبي يرفرف ولا يغني

الجرادة تصرصر ولا تنطق

ولكن جناح فرس النبي أهجية

ولكن جناح الجرادة مكتوب

أهجية تحبط خدعة الموت

كتابة تكشف سر الحياة.

وأخذت "ست زبيدة" تتحرك بخطى شديدة الصغر يحيط بها عن قرب الموسيقيون. ثم راحت تتنقل قدميها في المكان نفسه، فقد دخلت الرقصة بأكملها في جسدها. ومن هذا الجسد لم يكن يظهر بين أسفل قميصها وأعلى تنورتها سوى مقدار كف من التعري لامع وأسود. وفي وسط هذا التمثال الملثم فقط كان هذا البطن يرقص، تحركه حياة ذاتية عميقة التعبير. كان بطنها فمًا دون شفاه لكل هذا الجسد، وكان الجزء المتكلم، المبتسم، المقضب والمغني لكل هذا الجسد:

فرس النبي يحبط خدعة الموت

الجرادة تكتب سر الحياة.

وأصبحت رقصة الست زبيدة، على هذا التمثال من الخمار الثابت عبارة عن باليه المائة حلية الرنانة. أيادي فاطمة وأهلة القمر وكعاب الغزال وقواقع صدفية وعقود من المرجان وأساور الكهرمان وتمائم ونجوم وحب الرمان؛ تؤدي رقصتها في سمر كبير من النقر. لكن ما شد نظر إدريس خصوصا، كانت حلية على هيئة قطرة من

الذهب ذات بريق وصورة جانبية رائعة، تدور حول رباط من الجلد. لا يمكن تخيل شيء أكثر بساطة ولا أكثر إيجازا في الدقة منها؛ فكل شيء بدا متضمنا داخل هذا الشكل البيضوي المتورم قليلا في قاعدته، وكل شيء ظهر معبرا عنه في سكون هذه الفقاعة الوحيدة التي لا تحتك بأي حلية أخرى في اهتزازاتها المقتضبة. وعلى عكس القلائد التي تحاكي السماء والأرض وحيوانات الصحراء وأسماك البحار، لم تكن هذه الفقاعة الذهبية تقول شيئا سوى ذاتها؛ فهي الرمز الصافي والشكل المطلق.

كانت ست زبيدة وقطرتها الذهبية تمثلان انبعاثا لعالم دون صورة، أو أنها كانت النقيض، وربما الترياق من المرأة البلاتينية وآلة التصوير، وبدأ إدريس في إدراك هذا في ذلك المساء. وكان يمكنه أن يتقدم حتما بتأملاته في بداية معرفته، لولا مجيء عبدالله فخر، وهو راو من أقاصي السودان ومن تيبتسي. وبعد الغناء والرقص، وفي هدوء الليلة اللامعة بالنجوم، راح يقص مغامرة القرصان القديم خير الدين، الذي أصبح لوقت قصير ملكا على تونس والذي كان شعره ولحيته يتطلبان الكثير من العمل.

بارباروسا أو صورة ملك

كان يدعى في الحقيقة خير الدين، ولكن على سبيل التهكم أطلق عليه الروم اسم بارباروسا. جاب هذا القرصان القديم المشرقي البحر المتوسط بصحبة أخيه البكر. ومعا أصبحا سيدين على مدينة الجزائر التي قاما بتعزيز مينائها ليؤي سفنهما الأربعين. ثم بعدما قتل البكر في تلمسان تابع الأخ الأصغر بمفرده مستقبله الباهر؛ ففي سنة ٩١٢ من الهجرة[١]، قام بالاستيلاء على بيزرت وطرد سلطان تونس مولاى حسن من قصره الباردو.

حين اندفع خير الدين ورفاقة، خارجين من المعركة عالقا بهم دخانها، إلى داخل القصر، استولى عليهم السكون الذي أحاط بهم فجأة وداخلهم شعور عجيب بالدخول في عالم مسحور. لم تكن هناك علامة حياة في هذه الباحات والأسطح المدرجة والقاعات الواسعة تحت هذه الأعمدة المحيطة بحدائق الأحلام تلك. وبدا أن هذه الدار النبيلة المترفعة قد هجرتها في اللحظة السابقة حاشيتها وجنودها

---

(١) عام ١٥٣٤ ميلادية.

وخدمها وحراسها، وسلمت كما هي للبرابرة الآتين من البحر، بقبابها الحريرية وحجبها وستائرها ووسائدها وأوانيها وحتى مدافئها المشتعلة وما زالت الأسياخ تدور فوقها. كان الجميع قد هرب مصطحبا الخيول والجمال والقرود والكلاب السلوقية، تلك الفصيلة الصحراوية المرهفة التي تسند رءوسها المدببة بخضوع على أقدام أسياد إفريقيا البيضاء. حتى إن النوافير نفسها لم تعد محاطة بطيران الحمائم الدائري.

شعر خير الدين ورفاقه بالاختناق من سحر هذه الأماكن المظلمة (الغامضة) متخوفين من خيانة ما، كانوا يتقدمون ويلقون النظرات يمينا ويسارا، حتى إن بعضهم نصح القرصان بحرق هذا القصر الشرير وبهدمه حجرا حجرا.

هكذا تقدموا من قاعة إلى قاعة ومن سلم إلى سلم حتى وصلوا إلى جناح معزول قاومت أبوابه كل الضغوط. وكان لا بد من الإقرار بكسر أحد هذه الأبواب، وهو ما شرع الجنود فيه، عندما انفتح الباب من الداخل، وظهر رجل ضخم ذو مظهر قاس يلبس ثوبا أبيض عليه بقع متعددة الألوان، وكان يبدو مندهشا وغاضبا.

ــ ماذا تعني كل هذه الجلبة؟ لقد أعطيت أوامر بعدم إزعاجي فى أثناء عملي!

وتقدم حارس عثماني مسلحا بسيف معقوف بعزم واضح على قطع رقبة من تجرأ على النطق بمثل هذه الوقاحات في وجه سيده، فأزاحه خير الدين بإشارة.

ـ هذه الجلبة تعني أن السلطان مولاي حسن قد هرب وأنني أخذت مكانه، قال خير الدين. لذا فمن أنت الذي يبدو غريبا عن الأحداث التي تهز هذا البلد؟

ـ أحمد بن سالم، المصور الرسمي ورسام القصر.

ولأن خير الدين أخذ في التقدم، تراجع ليتركه يدخل.

كان خير الدين قد قابل أكثر من مرة العدو الذي انتهى من القضاء عليه. ولم يكن لديه سوى الاحتقار لمولاي حسن ذاك الوريث غير الجدير بسلالة الحفصيين المرموقة. وكان رجلا سقيما سيئ المظهر، يبدو كأنه يخر تحت ثقل تاج ومعطف أجداده الملكيين. وكان مقدرا له بالتأكيد الهزيمة والإهانة في مواجهة قرصان رهيب، هو سيد البحر المتوسط!

وإذا به يجد السلطان المهزوم، هنا على الحوائط الأربعة للقاعة الفسيحة. لكنه لم يكن محني الظهر ولا مطأطئ الرأس ولا ترتجف أرجله من الهرب. على العكس، كان يظهر راكبا حصانا

قافزا، أو تحيط به علية قومه كأنهم يفرشون له الأرض بمعاطفهم، أو جاثما فوق برج مهيمن على المدينة، أو في حريمه تحيط به محظياته منتشيات بالحب.

وتجول خير الدين في القاعة ونظرته تشتعل بغضب تزيده كل لوحة من هذه اللوحات درجة. كان قد سحق مولاي حسن، ودفع به مطرودا بشكل مخز من قصره، مضطرا للهروب آخذا ساقيه فوق رأسه، تاركا خلفه حتى اللحوم تدور في الأسياخ. ولكن ها هو ذا هنا، فبفضل هذا الرسام الشيطان، كان المهزوم موجودا فوق جدران القصر، ظافرا وملكيا ، متفتحا في كامل مجده.

وأخيرا قال مزمجرا:

ـ خذوه إلى السجن! وخذوا كل هذه الرسوم الرديئة للحرق!

ثم خرج بحدة، بينما كان جنوده يحيطون بأحمد بن سالم ويغطونه بالقيود.

في الأسابيع التالية كان خير الدين منشغلا بتعزيز وتنظيم النصر الساحق الذي جعل منه الرجل الأقوى في المغرب كله؛ إذ إن نصره الجديد أحدث تحولا في داخله كان هو أول من استغربه، فقد حولته سيطرته على مدينة الجزائر والجزائر من كاسح للبحار إلى حاكم قلعة، لذا أصبح على قدم المساواة مع ملك هذا القصر الراقي،

فكان يشعر بالتزامات جديدة ألقيت عليه. وأدرك أولا أنه لم يعد من المناسب له أن يقوم بأي شيء بنفسه؛ فبينه وبين الأشياء أصبح لا بد من تدخل الوزير والمنفذ والمساعد أو على الأقل الخادم. وبدأ تطبيق ذلك على سيفه، وكان سيفه، وهو أقدم رفاق الحرب، سلاحا ثقيلا وغليظا، مقبضه على شكل قوقعة ضخمة تحيط كل اليد، عريض النصل تمزقه شروخ صغيرة رغم سماكته. ولكم شق رؤوسا بهذا القاطع للجبال! لذا كانت الدموع تملأ عينيه لمجرد لمسه براحة يده! لقد أصبح واضحا أنه لن يشق رؤوسا أبدا وأن جرابه القديم لن يترنح على أرجله. واستبدل به خنجرا قصيرا ورفيعا ذا مقبض محفور بدا أن نصله يصلح فقط لكحت الأظافر.

ثم تغيرت ملابسه، فحلت القطيفة محل الأقمشة المنسوجة، والحرير محل القنب.

ولم يكن ذلك بعد سوى أيسر الأشياء، لأن هذا الجندي الذي عركته المعارك، والذي لم يكن يتردد في شيء، وكان يجيب دائما عن كل سؤال بشجاعته وقوته، ها هو قد أصبح الآن الحاكم الجديد الذي دب فيه فجأة شعور بكرامة حديثة التاريخ، فنظر إلى نفسه في مرآة الملكية وتردد في التعرف إلى ذاته فيها.

حينذاك تذكر أحمد بن سالم ورواق الصور التي كان البائس مولاي حسن يبدو فيها شخصية نبيلة. ألم يكن عليه الآن أن يطلب

هو أيضا عمل صورة رسمية له؟ بما إنه اعتمد الخنجر الصغير والصدريات الحريرية والقطيفة للأبهة. لكن هذا التحول الطبيعي لأي شخص، كان كافيا لأن يثير تخوفه واشمئزازه...

وكان لذلك سبب قوي جدا، فلم يكن خير الدين يكشف أبدا عن رأسه المغطى بالعمامة أو عن لحيته المغلفة في جراب من الحرير الأخضر المعلق بحبلين إلى أذنيه. فلم كانت كل هذه الاحتياطات؟ كان ذلك سره، وهو سر يعرفه الجميع حوله، لكن لم يكن أحد يجرؤ على مجرد الإشارة له.

ففي أثناء ارتياده مدرسة تعليم القرآن تعرض خير الدين إلى أسوأ المضايقات من زملائه وأساتذته بسبب لون شعره، الذي كان يشبه العرف الأحمر المتوهج المنتصب فوق رأسه، والذي تسبب سنوات بجلب السخريه والضرب له، والأسوأ أنه كان يثير نوعا من النفور الملعون. فبحسب التراث الصحراوي، توجد لعنة في الأطفال ذوي الشعر الأحمر، وهم ملعونون لأن احمرار شعرهم سببه حمل أمهم بهم فى أثناء الحيض؛ لذا صاروا يحملون علامة واضحة لا تمحى على هذا الدم النجس الذي يصبغ شعرهم. كما يسري هذا العار على كل جلدهم الحليبي المبقع بالنمش وعلى كل شعرة فيهم وحتى على رائحتهم. وكان رفاق خير الدين الطفل يشيحون عنه سادين أنوفهم.

عانى الطفل الأمرين، ثم كبر وجعلت منه قوته شخصا مخيفا. وأخيرا سمح له سن العمامة بحجب سبب العار، لكن ما هي إلا سنوات قليلة حتى ارتد كل شيء لما هو عليه، عندما ظهرت له الذقن، التي لم تكن فقط صهباء مثل بقية شعره، بل صريحة الاحمرار كأنها نسجت من خيوط النحاس. حينئذ راح يضع جراب الذقن كحلية لا يتجرد منها، وأقرتها حاشيته المحيطة به طواعية.

لكنه لم يكف مع ذلك عن مراقبة نظرات الآخرين إذا حدث وتوقفت عند ذقنه، فإذا ما تلكأ شخص في النظر إلى ذقنه، سرعان ما كانت يده تتقلص على مقبض سيفه. وقد أطلق الروم عليه كنية باربا روسا، وكان مرتاحا لأنهم يقطنون الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط. وكان خير الدين حساسا في هذه النقطة الخاصة التي تجنب المقربون من خاصته أن ينطقوا عنها تلميحا في حضوره، كالثعلب، أو السنجاب، أو الأشقر، أو التبغي. ومع ذلك لم يجهل أحد أنه صار موضوعا للدعابة الهازئة في الليالي التي يظهر فيها قمر كبير محمر اللون في سماء ضبابية.

وهذا ما حدث له في قمة جبروته، فقد استشف قوة الصورة، وأن الملك لا يمكنه تجنب النظر إلى نفسه في المرآة، لذا فذات صباح، استدعى أحمد بن سالم من سجنه ومثل الرجل في حضرته.

ـ أنت قدمت نفسك لي على أنك مصور ورسام القصر، قال له:

ـ بالتأكيد يا مولاي، هذا تكليفي ولقبي.

ـ دعنا من التكليف واللقب، ما وظيفتك؟

ـ أقوم أولا برسم وجوه علية القوم في البلاط، وعلي أن أعمل على تجديد الجمال المعماري وأبهة القصر، كي لا ينساه أحد عبر المكان والزمان.

وهز خير الدين رأسه، فقد كان ما استمع إليه من الفنان جيدا.

ـ ولكن قل لي، بافتراض أن أحد أفراد علية القوم الذين تصورهم كان مصابا بعلة تعوقه بدنيا، لديه مثلا دمل، أو أنف مكسور، أو عين حادة، أو عوراء، ولا أدري ماذا بعد. أتصور أنت هذا التشويه، أم تجهد لكي تخفيه؟

ـ مولاي، أنا مصور ولست ممالقا، وأصور الحقيقة، فشرفي يدعي الإخلاص.

ـ لانشغالك إذن بالأمانة، لا تتردد في تعريف الناس جميعا أن ملكك له دمل على أنفه؟

ـ لا، لا أتردد.

وشعر خير الدين دفعة واحدة أنه أمام تحد من قبل الكبرياء الجريء للرسام، الذي احمر وجهه.

ـ ولا تخشى إذن أن تترنح رأسك فوق أكتافك؟

ـ لا يا مولاي، لأنه بمجرد أن ينظر الملك إلى صورته، سوف يشعر بالفخار، ولا يشعر بأنني أسخر منه.

ـ وكيف هذا؟

ـ لأن الصورة التي سأرسمها ستصبح بالتالي صورة ملكية.

ـ والدمل؟

ـ سيكون هذا دملا ملكيا يجعل أي شخص آخر فخورا بأن يكون له دمل مثله على أنفه.

وأصاب خير الدين الاضطراب في أعماقه لهذه الكلمات التي مست تماماً انشغالاته، فأدار ظهره للرسام وانسحب إلى أجنحته. لكن أحمد تمكن من استعادة ورشته. وفي اليوم التالي ذهب خير الدين للبحث عنه وسؤاله من جديد.

ـ لم أفهم قط، قال له كيف يكون باستطاعتك أن تصور بأمانة وجها قبيحا ومحل سخرية بفعل التشوه دون أن تعرض وتشجب في الوقت نفسه قبحه وحالته التي تدعو للسخرية. هل تدعي حقا أنك لا تخفف أبدا من تشوهات نماذجك؟

ـ لا أخفف منها أبدا، أكد أحمد.

ـ ألا تجملها أبدا؟

ـ أنا أجملها بالتأكيد، ولكن دون إخفاء شيء، بل على العكس، أبرزها، فأنا أؤكد كل ملامح الوجه.

ـ أكاد لا أفهم.

ـ لأنه لا بد من إدراج الزمن في لعبة تصوير الوجه.

ـ أي زمن؟

ـ أنت تشاهد وجها. تراه مدة دقيقة أو دقيقتين على الأكثر، وفي أثناء هذا الوقت القصير، ينجذب الوجه بفعل إغواءات عرضية، ويستوعب بدواع مبتذلة؛ لذا تحتفظ في ذاكرتك بصورة رجل أو امرأة محقرة بفعل إزعاجات غوغائية، لذا، افترض أن هذا الشخص نفسه جاء وتموضع أمامي لأرسمه. ليس فقط دقيقة أو اثنتين، ولكن اثنتي عشرة مرة كل منها تدوم ساعة، بما يستغرق فوق ذلك شهرا على الأقل، فإن الصورة التي سأرسمها ستغسل كل التعابير الحقيرة اللحظية، وآلاف الاعتداءات اليومية الصغيرة، وقائمة الحقارات التي تشمل كل واحد بلا استثناء بابتذالاتها المألوفة.

ـ لكن نموذجك سيمل بسبب فراغ وسكون ورشتك، ولن يعكس وجهه سوى خواء روحه.

ـ هذا مؤكد لو أنه كان رجلا أو امرأة فارغة، ففي هذه الحالة نعم أعكس أنا على لوحتي هذا الغياب الذي هو بالفعل قناع البعض عندما يكونون غير متكدرين بشكل ظاهر. لكن، هل حدث أبدا أن طالبني أحد بأن أصور وجها لا حيثية له؟ أنا يا سيدي رسام العمق، وعمق أي شخص يشف على وجهه، عندما تتوقف إثارات الحياة المبتذلة، شأنه شأن صخور أعماق البحر، بطحالبها الخضراء وأسماكها الذهبية، التي تظهر لعيون المسافرين عند توقف الهدير الذي تسببه المجاديف أو تقلبات الجو عن إثارة سطح الماء.

وصمت خير الدين لحظة، أما أحمد، الذي لم يحول عينيه عنه، فقد خمن للمرة الأولى طبيعة الجرح السري الذي تغطيه انتصارات المغامر.

ـ هذه النفس التي تكتشفها والتي ترسمها على لوحتك، أهي تختلف بشدة من إنسان لآخر؟ أم أنها تعكس عمقا مشتركا بين كل البشر؟

ـ إنها مختلفة للغاية، وفي الوقت نفسه هناك عمق مشترك يعود للقدر الإنساني نفسه؛ فالبعض على سبيل المثال مسكونون بحب كبير، سعيد أو تعيس، وآخرون يسبحون بلا توقف في حلم بالجمال، وهو جمال يبحثون عنه في كل مكان، وإذا ما عثروا على ذلك

الجمال يكون له انعكاس. وآخرون يتحاورون مع الله، ولا يطلبون شيئا أكثر لسعادتهم إلا هذا الحضور الرقيق والعظيم. وآخرون ...

ـ ماذا عن الملوك؟ وما خاصية النفس الملكية؟

ـ الملك يسود، الملك يحكم، وهاتان وظيفتان مختلفتان للغاية، بل متعارضتان. بما إن الملك الذي يحكم يحارب يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة ضد البؤس، والعنف، والكذب، والخيانة والطمع؛ فهو الأقوى في الحق، لكنه في الواقع يواجه خصوما أشداء، وهو مجبر على حربهم ليرد أسلحته الظالمة ضدهم، أيضا بالعنف والكذب، والخيانة، وهو يتلطخ حتى تاجه. في حين أن الملك الذي يسود يبرق كالشمس، وكالشمس، يشع حوله الضوء والدفء. فالملك الذي يحكم، تتبعه زمرة من الجلادين البشعين تدعى الوسائل. والملك الذي يتسيد محاط بجوقة من الشابات الجميلات الشقراوات المعطرات تدعى الغايات. ويقال أحيانا إن هذه الشابات تعادل هؤلاء البشعين، لكن هذا مزيد من كذب البشعين، فهل من الضروري أن أضيف أني أرسم الملك الذي يسود، لا الملك الذي يحكم؟

ـ ولكن أيا ما كان الأمر، هل لي أن أطلب منك غايات بلا وسائل؟

ـ هذا قليل، مناسب، ولكن ماذا سيحدث للوسائل عندما تنسى غاياتها، وحتى عندما تدمرها بفعل ضراوتها؟ واقع الأمر أن حياة الملك سرمدية، تروح وتغدو بين هذين الحدين. ومولاي حسن عاش رجلا ضعيفا ومتحيرا، وهو ما لم تطقه صورته نفسها التي شوهدت في عين البشع كصورة معذب أو جندي بسيط. عندها جاء إلي، وعندما أقول جاء إلي، فحري بي أن أقول إنه هو نفسه جاء إلى هنا، ودخل شاحبا مثبط الهمة، متقززا من الأعمال الخسيسة لوظيفته. ونظر لصوره، تلك التي دمرتها أنت، وعلى ضوئها، اغتسل من كل قذارات السلطة، وغمرته في لحظة افتخاره بوصفه ملكا، واستعاد ثقته بذاته. ولم أجد كلمة تشجيع أنطقها، وابتسم لي ورحل في هدوء.

وبشكل واضح لم يسعد خير الدين تذكر عدوه. فهل بإمكان البعض، دون أن يكون سفيها، أن يقارنه بهذا الشخص الهزأة؟ مع ذلك كان ينام في سريره، ويتحدث مع مصوره!

ـ وهذه الأعماق المشتركة، هل قلت إنها توجد لدى جميع البشر؟

ـ عندما تسكت صخب الحياة اليومية كي لا تنصت إلا لصوت النفس، فإن هذا الصوت الحسن لكل فرد بشكل شخصي، لا يماثله أحد فيه، وهناك خاصية في كل إنسان يمكنك أن تختبر بها هذا الصوت وإيقاعه العميق عندما يوجد.

ـ أي خاصية تلك؟

ـ إنها النبل.

وصمت خير الدين ثانية لحظة، مفكرا في كل ما قاله أحمد. وأخيرا توجه نحو باب الورشة، وقبل أن يختفي، استدار وقال:

ـ بدءا من صباح الغد، بعد شروق الشمس بساعة، سوف تبدأ في عمل صورتي الرسمية.

وأمسك بالباب، ثم أضاف ثانية:

ـ بالأبيض والأسود، قال محددا.

وفي اليوم التالي، كان أحمد مستعدا في رداء نظيف أمام لوحة صنعت من شرائط البردي المعشقة والمنضدة، والمفروكة بزيت الصنوبر. وعلى منضدة منخفضة وجدت في متناول يده باقة من الريشات، وحزمة من أقلام الفحم وزجاجات الحبر الصيني. وكان هناك أيضا بضع كرات من لباب الخبز للتظليل، وممحاة من الراتنج المذاب في الكحول الذي يصب على الرسم من أجل إيضاحه. ولم يكن ينقص بعد سوى النموذج الذي لم يحضر.

وانتظره أحمد طوال اليوم. وعندما هبط الليل، كانت لوحته مغطاة بالتخطيطات التي خطها كي يتخطى ملله. وكانت تعبر عن

مسودات لصورة لخير الدين صنعت من الذاكرة، أي التي عكست فكرة كانت قد تكونت لديه في عقل الرسام. أكانت تلك الفكرة تعبيرا عن الأصل المجرد والرمزي، أم أنها كانت اختصارا لتظليل أسود على خلفية بيضاء؟ ولم يكن أحمد يحب هذا الوجه الذي يعطي انطباعا بالقوة، ناهيك بالوحشية. كان أحمد مشوشا، وراح يتساءل لماذا لم يأت سيده الجديد ليتموضع أمامه؟، ولماذا كانت هذه الصورة التي كان مجبرا على رسمها لطيفة، مجردة إلى هذا الحد من السكينة المهيبة التي يختص بها صاحب السيادة وحده؟ وفهم أن هذين السؤالين يستدعيان إجابة واحدة هي نفسها، إلى أن حدث في اليوم الثالث أن اقتحم خير الدين ورشته ووقف واضعا يديه على خصره أمام صورته، ثم انفجر في ضحكة متوحشة.

ـ أرى، قال أنك لست بحاجة أبدا إلى حضوري كي ترسم صورتي! وهذا أفضل، يمكنك أن تصدقني. أولا لأن فكرة أن تضعني ساعات أمام نظراتك المختلسة تنفرني بالطبع، وبالتالي لأن صورتي هذه تسعدني إلى الغاية بما تطفح به من قوة متوحشة.

ـ مولاي (أجاب أحمد) أنا بحاجة إلى حضورك لكي أرسم صورة حقيقية لك، صورة ملكية، ترمز لتسيدك على أتباعك وأراضيك. وليس هذا كل شيء، فهذه الصورة لا بد أن تكون ملونة. ولدي أمر آخر علي أن أوضحه.

ـ أي أمر؟ احمر وجه القرصان القديم.

ـ لا بد أن توافق على خلع عمامتك وأيضا...

ـ ماذا أيضا؟ صرخ خير الدين.

ـ وأيضا غطاء لحيتك، نطق أحمد بشجاعة.

وانقض عليه خير الدين ملوحا بخنجره. لكنه فكر قليلا أن هذا السلاح الهزلي كان للتزين، فأغمده في غضب، ورجع علـى عقبيـه واختفى، يتبعه أعوانه، الذين ألقوا على الرسام نظرات تعبر عـن أن حياته لا تساوي لهم شيئا.

وأصاب هذا المشهد أحمد بالاضطراب العميـق، وتوقـع أن يساق إلى السجن، ولكن لم يظهر له أي جندي في الأيام التي تلـت. وفي الواقع كان الفراغ والصمت اللذان تركاه فيهما أكثر مدعاة للقلق من أي تهديد واضح. وحاول معاودة العمل، لكن كل لمسة أضـافها لصورة خير الدين فاقمت من مظهره الشرس، الذي لـم يكـن أبـدا مدهشا عقب زيارته الأخيرة.

أخيرا قرر أحمد الذهاب واستشارة إحدى النساء اللاتي يحمـل لها ثقة شديدة، إذا تركوه يرحل، لأنها كانت تعيش في واحـة بعيـدة بعمق الصحراء.

وكانت كريستين فنانة مثل أحمد، وزميلة بمعنى ما، في ما عدا أنها كانت تختلف عنه اختلاف الليل والنهار، فقد كانت شقراء بأعين زرقاء، وكانت تنحدر من إسكنديناڤيا بالميلاد، وقد أتت معها بفن ولد من البرد. وفي الفيللا ذات البناء الأبيض، المحاطة كليا بالنخيل، حيث تعيش، كان يمكن رؤية ظلال مركبة من ألوان النسيج الضخمة، المنشأة في غابة مجهولة بإفريقيا، من قبقب الشمال. وكانت تخرج من هذه الآلات المحكمة الرائعة، ساعة بعد ساعة، بتأن لا متناهي، المناظر الطبيعية للجليد، ومشاهد الصيد المتفاخرة، والقلاع المغطاة بالثلج، والأشخاص الذين يرتدون الفراء، وهي المناظر التي لم يشهدها إفريقي من قبل، ولا حتى تخيلها. وكان أحمد يحمل لها أحيانا إحدى لوحات-، فتتعامل معها باعتباره كرتونا، وتسحب بمضاهاتها منسوجا، يطابقها تماما، ولكنه ذا سمك كثيف ونعومة، شبيها بتلك التي اعترف بمشقة عملها متعدد الوجوه. لأن مادتها كانت الصوف ــ الذي أنتجته الحياة الحيوانية أكثر نعومة ودفئا ــ والبساط المنسوج يقدم أكبر مكتشفات الإنسان التي ولدت من فقد الحيوانات لحريرها، وزغبها، وشعرها المجزوز.

واستقبلت كريستين أحمد، كما تقضي التقاليد، بالمودة والضيافة بين الفنانين، المشوبة بالتحفظ الذي اقتضته أصولها الشمالية. وكان أحمد قد أحضر معه اللوحة المرسومة بالقلم التي

خططها لخير الدين، وقص على صديقته كل ما عرفه وعاناه من القرصان القديم الذي صار سيدا على تونس. وأبدت كريستين اهتماما شديدا، وللتأثر الشديد الذي بدا من منظر لحيته وشعره، عرضت عليه مشروعا، مقررة أن تزوره في أقرب وقت ممكن. وعاود أحمد طريقه لتونس بعد أن بادل تخطيطه بمفرش سجاد ازدهرت فيه وردة عباد شمس كبيرة، من تلك التي يزرعها أهل الشمالِ المحرومون من الشمس، بسبب تفردها المشمس.

وغاب خير الدين عن تونس عدة أشهر لإخضاع جنوب البلاد، وعندما عاد كان في أوج مجده. وصار هناك مجال لتصديق أنه قام بتأسيس سلالة حاكمة ألفية. ولم تكن ضرورة الانتهاء من السؤال المؤرق عن صورته الرسمية إلا باعثا على المزيد من الضيق. وذات صباح، انقض ثانية على ورشة أحمد، وفتش بعينيه في التو عن اللوحة المرسومة بالقلم التي لاحظها عند زيارته الأخيرة، والتي بدا له، إضافة لذلك، أن لها فرصة.

ـ لم تكن سوى مسودة، شرح أحمد، ولم تعد موجودة.

ـ أجرؤت على تدميرها؟ انفجر خير الدين، كما لو قد حدث عدوان على شخصه.

ـ على العكس، قال أحمد، فقد أهديتها لامرأة عبقرية تأكدت أنها احتفلت بها احتفالا شديدا.

ـ أي احتفال؟

ومع كل إجابة، كان أحمد يتقدم نحو أحد حوائط ورشته المغلفة بالطنافس، ثم في حركة واضحة، يكشف عن هذا الحائط. وأطلق خير الدين صيحة تعجب؛ فمن وراء الطنافس ظهرت سجادة كبيرة من صوف راق، متدرجة الألوان، تصور منظرا طبيعيا أوربيا للخريف، بها نبت حراجي متوار في الأوراق الميتة التي تمرح فوقها الثعالب، وتتقافز السناجب، ويفر قطيع من الماعز. ولم يكن هناك شيء إضافي. وبالنسبة إلى المتفرج الموجود على مبعدة بعض الشيء، ومتأمل أكثر لمجموع التفاصيل، بدا أن هذه السيمفونية عظيمة الشقرة لم تكن في الواقع إلا صورة لوجه كان شعره ولحيته تزيدان من غناهما مادة كل عالم الغابة هذا – من فرو حيواني، ووشي أشجار، وريش طيور غدران – وكانت هذه، أجل، هي صورة خير الدين، مختزلة للونها الأساسي، الذي به كل التدرجات، من أكثرها تجريدا لأكثرها تشبعا، وهي تربت على العين برقة لطيفة.

ـ كم هي متناسقة! غمغم خير الدين بعد صمت طويل معجب.

ـ من صنعتها جاءت من شمال أوربا، ظن أحمد أن عليه أن يفسر. إنها تستدعي هنا منظرا طبيعيا من بلدها في شهر أكتوبر، بموسم الصيد. وهو الموسم الشمالي الأكثر أهمية.

ـ إن هذه اللوحة هي صورتي، أصر خير الدين.

ـ بالطبع يا مولاي، فهذا هو فن كريستين؛ المستلهم من مسودة التخطيط التي أخذتها مني، ولأنها كانت تفكر في منظر طبيعي بسيط للخريف الإسكندينافي، فقد أدركت فورا التجانس العميق لوجهك مع هذا المنظر الطبيعي، وضمنت صورتك بالنبات الحراجي. بالضبط بحيث لا يمكن لأحد أن يحدد ما هي أوراق شجر وما هو شعر، وأن يفرق بين ما هو ثعلب وما هي لحية.

واقترب خير الدين من الحائط، ومرر يديه الاثنتين على السجادة

ـ شعري، وتلعثم، لحيتي؟..

ـ إنه أنت بالفعل، عدت لمنصبك باعتبارك ملكا للشجر، وملكا للدواب بفضل شعرك، وفرائك، ولبدتك، قال أحمد.

ثم تذكر في سره جملة غامضة نطقتها كريستين عندما ذكر حمرة خير الدين. وأصله الشائن: "إن ما فعلته امرأة، لا تحل عقدته سوى على أيدي امرأة". هكذا قالت.

ولكي يتذوق بشكل أفضل نعومتها، أطبق خير الدين خده على السجادة، وأدار رأسه وغطس وجهه.

ـ أي رائحة حسنة ونفاذة! صاح خير الدين.

ـ إنها رائحة الطبيعة، رائحة الشقرة. هذا صوف خروف بري، تم غسله في مياه أمطار الجبل، وتم تجفيفه على أفرع الأغصان البرية القربيونية. نعم، هذا هو التفوق الكبير للسجاد المنسوج على لوحة الرسم: فالسجادة مكرسة للرؤية، نعم، ولكن أيضا يمكن تلمسها، وأيضا يمكن استنشاق رائحتها.

عندئذ قام خير الدين بفعل غريب، ملأ بالنفور أتباعه الذين يصطحبونه، فبحركة فجائية، نزع الغطاء الحريري الذي يغطي لحيته، وألقى على الأرض بعمامته العريضة، ثم هز رأسه كأشقر يريد نفخ شعره.

ـ باربروس زأر. أنا أدعى السلطّان باربروس! هذا ما يقال! أريد أن تعرض هذه السجادة في مكان واضح خلف عرشي في قاعة الشرف.

وفي اليوم التالي [١] قام السلطان مولاي حسن، الذي جمع لصالحه الأمراء الإيطاليين، والبابا، والإمبراطور شارل الخامس باسترداد تونس بجيش من ثلاثين ألف رجل حملتهم تجريدة من أربعمائة سفينة.

---

(١) ١٤ يوليو ١٥٣٥

والتجأ خير الدين إلى أوربا، بلاد الخريف الأحمر، حيث صار صديقا لملك فرنسا، فرنسوا الأول، وكانت له بعد ذلك مغامرات عديدة، لكنه لم يعد قط إلى إخفاء شعره أو لحيته.

أكانت "زت زبيدة" جالسة وسط الجمهور تستمع هي أيضا للراوي عبدالله فهر؟ فتش إدريس بعينيه، ولكونه مستغرقا في الحكاية، تراجع ببصره. وبما إن الجميع بعد ذلك نهضوا في سكون، لم يستطع مقاومة انجذابه لقصر شرايا، حيث وجدت فرقة الموسيقى، فتقدم في صمت حتى الجدار الأول للقصر. وكانت هناك خيمتان تلتمعان بومضات قليلة. وكانت تسمع غمغمات، وتنهدات طفل صغير، وضحكات مخنوقة. وفجأة تعالى نباح غاضب لكلب، ثم صوت رجل يأمره بالصمت. وبعد ذلك بقليل، صفر حجر بجوار أذني إدريس وتداعى الهدم على مقربة منه، فعاد على أعقابه في عجلة. ولكن في ما بعد، على شرفة منزل عائلته، ظلت عيناه مفتوحتين طويلا على السماء السوداء وهو لا يستطيع النوم. جرادة، فرس النبي، مكتوب، تدوين. كانت اللازمة الموسيقية القديمة تواصل وقعها في رأسه، وشاهد الخطاب الصامت للبطن العاري لزت زبيدة. وكذلك كريستين، المرأة البيضاء التي جاءت من الشمال مع صوفها المتعدد الألوان، والتي تعطي للصور نعومة توفق بين الإنسان الأكثر

تشوها جسديا وصورته. فهل تنجح كريستين أيضا مع آلة الفوتوغرافيا؟ بالطبع لا. فبأي عين ظهر هو في الصورة التي التقطتها المرأة البيضاء؟ وكان عليه أن ينام قليلا، بما إنه لم ير السماء تضيء. وعند استيقاظه تورد الأفق. وكان عليه أن يعود لمعسكر الموسيقيين، وأن يرى "زت زبيدة" مرة أخرى. فهرع إلى قصر شرايا، وجعله الحذر يبطئ ويتوارى عند الاقتراب من بداية الأنقاض خلف الحوائط المنهارة. لكن احتياطاته كانت بلا جدوى، فقد اختفت الخيمتان. وتقدم إدريس من المعسكر، ولم تكن به إلا مواقد مطفأة تدخن، وفاكهة فاسدة، وفضلات آدمية، وبقايا غير واضحة المعالم جعلت إدريس يعود أدراجه حافيا. وهبطت على قلبه كآبة لا توصف. الرحيل. أراد الرحيل معها كما أراده مع المرأة البيضاء في اللاندروفر. الرحيل أو البقاء والزواج حسب التقاليد. إنه الرحيل. بالأحرى، الرحيل!

فجأة رأى إدريس شيئا يلتمع في الرمل تحت أمام أصابع قدميه، فانحنى، والتقط أجمل حلية لـ"زت زبيدة"، قطرة الذهب مع جديلتها المكسورة. وراح يقلبها في راحة يده، ثم نزعها من جديلتها، وجعلها تتراقص في الشمس المشرقة:

فرس النبي ترف بأهجية على أجنحتها...

وعادت اللازمة الموسيقية لأذنيه. ورقصت "زت زبيدة"، المرأة السوداء ذات الحلية التجريدية، المطلقة، التي لا نموذج لها في الطبيعة. ورقص هو أيضا في الضوء الشاحب الصباحي وسط هذه الأرض الموحلة.

ثم وضع قطرة الذهب في جيبه، وغادر المكان.

كان اليوم بعد التالي هو يوم صلاح براهيم، بكاميونه الرينو القديم. وكان يقوم بالذهاب والإياب بين تابلبالا وبني عباس، مسافة ثلاثمائة كيلومتر، حاملا لسكان الواحة رسائلهم وكل ما طلبوه منه عند مروره السابق، من الأدوات، والأدوية، والملابس، وحتى الملح والبذور، في حمولة يقدر ارتفاعها مدى احتياجات الواحة. وكان وصوله الذي يجيء في نهاية الظهيرة، لأنه يغادر بني عباس عند الفجر، يمثل دائما حدثا. وقد جعل منه توزيع حمولته، وهو الذي كان يجريه دائما بكل فظاظته الطبيعية، شخصية شعبية، كانت أيضا موضع خشية واحتقار البعض. وكان يمثل الصلة الحية الأساسية مع الخارج، ولم يكن سلوكه تجاه جميع سكان الواحة هو نفسه، بل كان يتنوع بحسب ما إذا كانوا قد سافروا خارج الواحة أم لا. فمع الذين

لم يغادروا تابلبالا أبدا، كان يمارس نوعا من الحنو العائلي الحـــامي، كما كان يمارس بعض التعالي الذي يفرضه على الكثيــرين، ويثيــر حنق البعض. وبالنسبة إلى الشباب الذين يحلمون بالسفر، تميز بمكانة لا تضاهى ولكنها مشتبه بها إلى حد كبير.

وعرف إدريس أن صورته لا يمكن أن تصل في رسالة تــأتي قبل أربعة أشهر على الأقل عقب مرور اللاندروفر، ومع ذلك كــان يحضر التوزيع، فقد كانت عملية التوزيع منذ ذلك الحــين فــصاعدا تعنيه، وخصوصا بقدر ما أصبح وصول الصورة أكثر احتمالا. فكــم من الوقت كان عليه انتظاره ثانية، ثلاثة أســابيع، خمــسة، ســبعة. ولسوء حظه، لم يغب معنى ظهوره الصامت في كل مرة يجري فيها توزيع عن صلاح براهيم، وفي المرة الثالثــة راح الــسائق يطلــق التلميحات عن خطيبة بعيدة ينتظر إدريس بيــأس ـ كمــا توقــع ـ خطاب حب منها. ثم أرفق الفعل بالكلام صائحا "هاهو، هاهو" وهــو يلوح بمظروف. ثم أخذ يتظاهر بعد ذلك بأنه يقرأ اسم المرسل إليــه، واكتسى وجهه بقناع المحزون: "يا للأسف! يا إدريس المسكين، هــذا ليس لك، ولكن أتعرف أن الاسم يشبه اسمك بعــض الــشيء. أنــت متلهف يا إدريس، نعم أنت متلهف، ولكن اصــطبر قلــيلا!" وضــج الواحيون الموجودون بالضحك من دعاباته.

في النهاية لم يعد إدريس يجرؤ على الظهور عند توقف الكاميون البيضاء المتربة أمام الجمع الصغير المنتظر، وكان يرسل أحد أطفال الجيران كل مرة ليحضر التوزيع بدلا منه، واعدا إياه بحفنة من التمر وبمدية صغيرة في اليوم الذي يأتيه فيه برسالته. وراح يشب على قدميه ذات صباح عندما رأى الطفل يحث الخطى نحوه وهو يلهث: "إنها هنا! إنها هنا! رسالتك وصلت!" فقط رفض صلاح براهيم أن يعطيها له بدعوى أنه سيسلمها بنفسه لصاحبها، "لكن هل ستعطيني المدية مع ذلك؟" توسل الطفل. وتوجه إدريس صوب الكاميون بكل البطء الذي تطلبه ما تبقى له من كرامة عقب دعابات السائق. وتظاهر صلاح براهيم في البداية أنه لم يره وتابع نداءاته. وأخيرا خرج الطرد الأخير من الكاميون وكان عبارة عن مظروف ضخم مغطى بأغلفة ومحزوم بعدد من الأشرطة الورقية اللاصقة.

وزعق باسم إدريس بصوت عال، وبدأت الضحكات تنفجر. وتقدم إدريس.

ـ أهو أنت؟ استفسر صلاح براهيم بنية سيئة تهريجية، هل أنت بالفعل الذي سيتسلم الرسالة الغرامية الآتية من أقاصي البحر؟

وكان عليه أن يتحمل التحقيق الساخر الذي أثار صيحات الضحك لدى الرجال المحيطين بالكاميون. وأخيرا تسلم الرسالة،

وصمت الجميع عندما شرع في فتح المظروف. وعندما فتحه، سحب منه بطاقة بريدية من حجم كبير وملونة، كان مصورا بها حمار مزين بشرابات تدلت من عنقه، ورأسه مرفوعة، ومزود العلف مفتوح على آخره. وتظاهر صلاح براهيم بأنه مندهش وسط عاصفة من الضحك والتشجيع.

ـ أهذه هي خطيبتك أم أنها صورتك أنت؟

ورمى إدريس بالبطاقة البريدية وانصرف ودموع الغضب تحتبس في عينيه. وكانت تلك أولى الصور التي أسفر عنها مرور امرأة اللاندروفر بحياته.

هل سأل العريف موجادم لماذا دار ابن أخيه إدريس منذ بعض الوقت حول كوخه وقام بزيارات خجول له؟ وهل أن حكاية اللاندروفر التي انتشرت في كل الواحة بواسطة العجوز كوكا ترددت حتى وصلت لمسامعه؟ لم يكن هناك ما يؤكد ذلك، فضلا عن سؤال هل كان سيهتم بها؟ وقد تمتع العريف موجادم بمكانة مؤكدة في تابلبالا بسبب ماضيه العسكري، ومنحته باعتباره محاربا قديما، والبحبوحة النسبية التي تؤمنها له. لكنه كان وحيدا، وكان يرفض الزواج دائما، وهو ما كان كافيا لجعله مهمشا. ولم تخطر على بال أحد فكرة أن يذكر اسمه ليحل محل عضو اختفى بمجلس القبائل.

ومع ذلك، كان شديد الاهتمام بابن أخيه، وقام بتعليمه الحديث بالفرنسية، وكذلك القراءة والكتابة ولكن بطريقة بدائية.

كان في ذلك اليوم بصدد تنظيف القطع المفكوكة لبندقية عندما دخل إدريس للمنزل. ولم تحدث، كما بالتقاليد، أية كلمة ترحيب بينهما. وأسند إدريس ظهره إلى الحائط ونظر إليه وهو يعمل لحظة.

ـ أهي بندقية حربية؟ سأله أخيرا.

ـ بالطبع لا، أتعتقد هذا! قال موجادم. بندقية الحرب شيء آخر. أما هذه فهي بالكاد لصيد الطيور الصغيرة.

وضحك، وأمسك بماسورة البندقية، مغمضا إحدى عينيه كي ينظر من خلالها.

ـ وهل هي مناسبة للغزلان؟ أراد إدريس أن يعلم.

ـ للغزلان، والجمال، وأيضا للصوص، أما بالنسبة إلى الجنود، فلا بد من بندقية حقيقية.

في إيطاليا كانت لدي واحدة سبعة ونصف مليمتر بترباس يعمر مع خزنة بخمسة خراطيش. أما الألمان فقد كانت لديهم كل أنواع الرشاشات تقريبا، والرشاشات تطلق رشقات الرصاص، وهي

جيدة في التعقب من بيت لبيت في المدينة. أما هذه فلا خزنة بها، وليست دقيقة التصويب، وليس سوى البندقية للتصويب من بعيد.

في أثناء حديثه كان إدريس يذرع الغرفة؛ فهو لم يعرف ما هو أكثر رقيا ورفاهة من منزل العم موجادم، فقد كانت جوائطه تعج بغنائم الصيد، من رؤوس غزلان، وحدآت مصبرة، ومراوح من ريش النعام، إضافة لرأس ثعلب صحراوي كان فاغرا فمه الأحمر الصغير. كما كان هناك صندوق مغطى بفراء أحمر لجهاز راديو يعمل بالحجارة لم يسمعه إدريس يعمل أبدا. قال له موجادم: نحن لا نلتقط الإرسال جيدا بسوى الليل. ولكن ما شد انتباه إدريس فوق كل شيء، هو إطار يحمل خلف زجاجه صليب الحرب وصورة مهتزة مصفرة نميز فيها موجادم مصفرا مع رفيقين شابين، يبتسمان مثله في زيهم الرسمي الكامل.

ورفع العريف رأسه، وجفف يديه بممسحة ملطخة بالشحم.

ــ يمكنك النظر إليها تعال. هذه الصورة! إنها طبعا الصورة الوحيدة الموجودة في تابلبالا. وكانت هناك بالطبع صورة مصطفى الذي ذهب في رحلة شهر عسل بالجزائر، وقد تم تصويره مع زوجته. لكني أعتقد تماما أن الصورة اختفت، ربما أحرقتها حماته، فالمسنون لا يحبون سوء الطالع، وهم متطيرون، هؤلاء المسنون.

ـ وهل تعتقد أنت أن الصورة يمكن أن تجلب سوء الطالع؟ سأله إدريس.

ـ نعم ولا، وفكرتي عن ذلك، انتبه، هي أن الصورة لا بد من الإمساك بها، قال وهو يمثل بيديه حركة ملاكمة لشيء ما. وهو ما جعل مصطفى لم يكن لديه ما يخشاه من هذه الصورة التي صنعت بالجزائر: فقد كانت مشبوكة بالحائط، وكان يراها كل يوم، كتلك المعلقة هناك، فأنا أراقبها محاصرة في إطارها الزجاجي. ولكن، كما ترى، هذه الصورة لها قصة طويلة. قصة مأساوية. استمع قليلا لذلك. كنا قد ذهبنا للراحة في قرية على مقربة من كاسينو. وكان هناك فتى يقوم بالتصوير بالجيش، والتقطني مع هذين الرفيقين. عندما التقت عدة فصائل معا بالراحة. والغلامان الجالسان معي ينتميان لفصيلة أخرى غير فصيلتي، لكننا تعارفنا وكنا نلتقي بالراحة، ونتسامر معا. وبعد يومين التقيت بالمصور، فأخرج مظروفا من جيبه وأعطاني إياه. وكان يضم ثلاث نسخ من الصورة: "إنها لك ولرفاقك، قال لي، أعط كلا منهما نسخته". وشكرته، وانتظرت لقاء الاثنين الآخرين، ولم تسنح لي الفرصة. وفي اليوم بعد التالي، تحركنا كلنا في طابور، وكان ذلك في الثلاثين من أبريل ١٩٤٤.

وكدت أنسى التاريخ. وقمنا بالهجوم مرة أخرى على الألمان المتحصنين في دير مونت كاسينو، وكان الأمريكيون قد فشلوا مرتين على الأقل في اقتحامه. وجاء دورنا، وحدثت مذبحة على الجانبين، جانب الحلفاء وجانب الألمان، وهي المعركة التي حصلت فيها على وسام الصليب. أتعتقد أني نسيت الصور! أنا لا أنكر أنني كنت أحملها دائما معي، في جيبي على صدري، وهذا تفصيل مهم. وفي الأسبوع الذي تلا ذهبنا ثانية للراحة، وذهبت لتفقد فصيلة رفيقي الاثنين. وكانت هذه الفصيلة قد أصيبت بخسارة شديدة؛ لذا، وبعد بحث، علمت أنهما قتلا كلاهما.

ونظر في صمت إلى الصورة المؤطرة على الحائط.

ـ إنها حكاية تجعلني أفكر، كما ترى، وأعتقد أن هذه الصورة، لأني حملتها معي، قد جلبت لي على الأرجح حسن الحظ. أما الآخران، الرفيقان بالطبع، ولم يكنِ هذا خطأهما، فقد تركا صورتهما ترحل. ولم تكن هناك أشياء يمكن فعلها. وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في أنني لو كنت تمكنت من إعطاء كل منهما صورته، لربما لم يكن قد حدث لهما شيء.

ـ إذن، ماذا فعلت بصورهما؟ سأله إدريس.

ـ أعطيتهما لقائد فصيلتهما كي يرسلهما لعائلاتهما. وكانا جزائريين، أحدهما من تيمسان، والثاني من مستغانم.

وتساءل إدريس عما إذا كان عمه يعلم بأمر الصورة التي التقطتها له المرأة الشقراء. ولم يتشكك بعد عندما قال له موجادم عقب فترة صمت، وهو يحدق في وجهه:

ـ لا كما ترى، فالصور لا بد من الاحتفاظ بها، وعدم تركها تجري!

الرحيل، اتخاذ طريق الشمال، ككثيرين من تابلبالا، وأيضا من دجانيت، وتامنراسيت، وعين صالح، وتميمون، والجوليا، وكل تلك البقع الخضراء على الخارطة البنية والصفراء للصحراء. كان ذلك ما أوصاه به الموت الوحشي لإبراهيم، وظل المرأة الشقراء، وأسطورة خير الدين، وسخريات صلاح براهيم، وحتى حكاية الغم موجادم. لكنها كانت أيضا تقليدا بدويا قديما لم يتلاءم قط مع مستقبل متجذر في الأرض التي ولد فيها، بسجنها المتحرك، الدافئ والمخيف بالقدر نفسه، الذي يحيط برجل، وامرأة وأطفال. لا. لقد قرر بوضوح ألا يتزوج، فضلا عن أن فقره أمده بشاهد ممتاز؛ فأين سيجد هو المهر الواجب على شاب دفعه لحماه المقبل، فإن لم يجده يسافر للعمل في الشمال؟ أيضا أمه، التي ترملت منذ ثلاثة أعوام، التي تخشى أن

يرحل ابنها، وقد وعدها بأن يرسل لها جزءا مما سيكسبه، كي لا تكون في وضع ينقصها فيه شيء، ولديها إخوته الخمسة. وساق لها مثال الواحيين الستة الذين كانوا يأتون بين الحين والحين يتسوقون من تابلبالا البقالة لعائلاتهم. وكذلك حالة أحد أبناء عمومته، عاشور، وهو غلام مرح وكريم، غادر تابلبالا منذ أعوام للعمل بباريس، ولم يتوقف أبدا عن إعلام أهله بأخباره، وكتبوا له يعلنونه بمجيء إدريس. وهكذا صار للغلام الصغير عنوان بباريس وشخص يلجأ إليه.

وكان طبيعيا إذن أن علم العم موجادم أولا بقراره الرحيل قريبا. ووجده مغطيا رأسه بطاقية عسكرية وهو يدخن الغليون، جالسا على نتوء يشكل مقعدا أسفل الجدار الخارجي للكوخ.

وكان طبيعيا أن يستمع أولا في صمت إلى عمه يبادره بالكَلام. ولم يكن موجادم متعجلا، فكان يسحب بهدوء أنفاسا من غليونه، وعيناه هائمتان، وأخيرا، قرر:

ــ أصحيح ما يقال؟ هل ستسافر؟

ــ نعم، سأذهب إلى الشمال بحثا عن عمل.

ــ أذاهب أنت لبني عباس؟

ــ نعم، ثم إلى أبعد من ذلك.

ـ إلى بيشار؟

ـ نعم، ثم إلى أبعد.

ـ أستعبر البحر وتذهب لمرسيليا؟

ـ ليس فقط مرسيليا.

ـ أتريد الذهاب لباريس؟

ـ إلى باريس نعم، بحثا عن عمل.

وبدا للحظة طالت أن موجادم لم يكن يهتم بسوى غليونه. ثم رفع نحو ابن أخيه عينيه المغمضتين بالسخرية.

ـ بحثا عن عمل؟ أليست بالأحرى امرأة شقراء هي التي ستذهب بحثا عنها في باريس؟

ـ لا أدري.

ـ أنت لا تدري حقا؟

ـ ربما كان ذلك أيضا الشيء نفسه.

وكان موجادم قريبا بالقدر الكافي من إدريس كي يفهم ما يريد قوله، فالشمال، والعمل، والنقود والنساء الشقراوات؛ هذا يمثل جانبا من الكل الغامض نفسه وأيضا المتألق. وكان العكس في تابلبالا

بمعنى ما. ولكن ما زال هناك شيء آخر، يعرفه موجادم أفضل من أي أحد.

ـ حسنا، أنا سأقوله لك، ما تريد البحث عنه بالشمال هو تلك الصورة التي التقطت لك، والتي لن تأتي أبدا وحدها لتابلبالا. اذهب وابحث عن صورتك، وأحضرها هنا وسمرها على حائط الغرفة كصورتي التي هنا، فهذا أفضل. وبعدها يمكنك الزواج وإنجاب أطفال إلا إذا كنت تفضل البقاء وحيدا مثلي.

وذهب إدريس، وجلس بالقرب منه. ولم يتبادلا بعد ذلك كلمة، لكن فكرهما تتابع بالقطع في المجرى نفسه. وتخيلا أن إدريس تابلبالا صار إدريس بني عباس، ثم إدريس بيشار، وإدريس وهران، وإدريس مرسيليا، وإدريس باريس. ثم عاد أخيرا إلى نقطة بداية رحيله إلى هذا المقعد الترابي.

ظاهريا، سيكون بالقطع شبيها بالواحيين المسنين ذوي الأعين الناعسة التي لا ترى الواحة، ولا تكاد ترى شيئا آخر. لكنه ستكون لديه عين ترى، تخترق البحر والمدينة الكبيرة، وتشع بالحكمة الصامتة.

وضعت أمه قدميه على أرضية المنزل وغسلتهما بقليل من الماء. "حتى تتذكر قدمك هذه الأرضية وتعود إليها" هكذا قالت. وهاهو يرحل الآن. وراح يسير على الطريق الشمالي الغربي المؤدي لبني عباس، الذي لا ينتهي أبدا بتابلبالا. وخرج من الواحة متبوعا بأورتا، كلب الجيران السلوقي، هذا الحيوان النبيل ذو الأصل، الذي وسموا قوائمه بالنار كي يكف عن طبعه الشرير. وعندما ذهب إدريس لنزع فخاخه التي نصبها لثعالب الصحراء ودجاجات الأرض، سعد لكونه محاطا بقفزات واستدارات السلوقي الذهبي اللون؛ فقد أقام أورتا له احتفالا، ألم يكن الغلام مغادرا الواحة للصيد؟ وتوقف إدريس، وأمره بالعودة إلى القرية. ودار السلوقي حول نفسه مرخيا أذنيه، بفعل طرقعة السوط. وكان إدريس مجبرا على هذا الفعل الذي يخشاه الكلب: فقد التقط حجرا. وراح الكلب يعوي وهو يبتعد، وهدده إدريس، واحتمى الكلب، واضعا ذيله بين فخذيه. وتابع إدريس طريقه، وجعله هذا يتمهل في سيره، فقد آلمه هذا المشهد الأخير أكثر من أي شيء آخر.

كان يعلم أنه لن يستطيع السير على قدميه مسافة المائة وخمسين كيلومترا التي تفصله عن بني عباس، فلا أحد يسير مسافة

طويلة كهذه بالصحراء. وهناك قاعدة للمساعدة والصداقة في طرق الصحراء.

كان إدريس يسير، جاعلا شروق الشمس إلى يمينه وهلال القمر إلى يساره، مدركا أنه خلال دقيقة، أو خلال ساعة، أو عندما تتوهج بكل غضبها الصامت فوق رأسه، سوف تستقبله سيارة ما وتحمله باتجاه هدفه. وحلم بأن تكون السيارة من نوع اللاندروفر، وتقودها امرأة شقراء، من نوع المرأة التي تلتقط الصور بواسطة علبة ــ هذه المرة ستلتقط غلاما بكامله ــ ولن يكون جالسا بجوارها رجل، لذا سيكون إدريس هو المرافق المرحب به من قبلها. فهل من الملائم لامرأة وحيدة أن تذرع الصحزاء؟ ففضلا عن أنها سترهق سريعا من قيادة سيارتها الثقيلة المحملة بكل عتاد الطريق، فسرعان ما ستسعد بأن تترك عجلة القيادة لرفيقها الشاب الذي سيصبح هكذا سيد العربة وحامي حمى النساء.

وظل هكذا مستغرقا في حلم يقظته، عندما أوقفه نعير بوق قادم من بعيد. وظهرت خلفه نقطة سوداء على الطريق أمام سحابة واسعه من الغبار. وتوقف، ليعبر بوضوح عن طلبه ركوب السيارة. فهنا يجهلون إشارة الإصبع المرفوعة التي يقوم بها ركاب الأوتوستوب الأوربيون. بل ينتظرون فحسب. وانتظر إدريس، وفجأة أصابه الرعب، فقد تعرف على الكاميون القديم ماركة رينو لصلاح

براهيم، وفكر في بداية الأمر أن يقطع الطريق كله على قدميه، لكن السائق تعرف إليه بالتأكيد، وهذا سيكون ضد كرامته. لذا راح يواصل سيره موليا ظهره للكاميون، مؤكدا هكذا بوضوح أنه ليس مرشحا للالتقاط من الطريق، وأنه لا يطلب شيئا من السائق الثرثار الذي سخر منه بشراسة، ولو توقفت الكاميون في أثناء ذلك، سيكون على صلاح براهيم نفسه أن يطلب منه الركوب. وسمع إدريس الضجة التي تتعالى للمركبة القديمة التي تقترب، وكان عليه أن يبذل جهدا كي لا يلفت رأسه. ولم يتمكن مع ذلك من منع نفسه من التباطؤ على الطريق، لأنه ليس من المطمئن الشعور بالوحش ينطلق بكل حديده، وسلاسله، وأحزمته ومكابسه في ظهره. ترى، هل سيتوقف صلاح براهيم؟ لا. ورأى إدريس إلى يساره الخطم المدخن للبهيمة التي تخطته، والكتلة الحديد، والمطنطنة التي مرت، وغرق لتوه في سحابة الغبار. ومر عليه وقت إلى أن تمكن من التعرف إلى المؤخرة الضاجة التي اختفت للتو. ومرة واحدة توقفت الضجة، وانقشع الغبار، وتوقفت الكاميون، وفتحت نافذتها الأمامية التي إلى اليسار، وأطل منها الرأس الجذل لصلاح براهيم، ومعه ذراعه العارية الموشومة، وجذعه المشعر المقولب في سترة عسكرية كاكية اللون.

ـ إيه، قلت لنفسي من هذا السائر المتباهي الذي يدير ظهره؟ لكن ظهر أنه إدريس! أهكذا تسافر للشمال؟

ـ أنت ترى جيدا، أثنى إدريس على حديثه دون حرارة.

ـ لن أسألك أين أنت ذاهب، ولا لماذا؛ فهذا لا يعنيني، بالنسبة إلي أنا أحترم ذلك، وإلا فكيف أقوم بعملي هـذا، وبنقـل كـل هـذه الرسائل؟ وكل هذه الطرود؟ ولكن لنفترض أنه في حالة كحالتك، أنت متجه صوب بني عباس، أليس كذلك؟ فسيكون من الغباء ألا تفيد من ركوب كاميون صلاح براهيم، أليس كذلك؟

وهكذا كان، وفتح الباب الأيمن، في وثبة واحدة، وعاد ثانيـة لمقعد السائق. ولم يبق أمام إدريس إلا أن يركب رغما عنه، وعلـى أي حال، هو لم يطلب شيئا، الأمر الذي بدا أنه أعجب السائق. فهـل يمكن القبول بأن حادثة صورة الحمار جعلته يندم، أم أنه يرغب فـي أن يلعب من جديد دور غلام صغير؟

ـ أنا لا أستطيع التوقف طويلا، قال وهو يدير محركه، فهـذا المحرك عندما يبطئ يسخن، وإذا أوقفته، لا يمكن الوثوق بأنه سيعود للدوران. وكما ترى، هناك من يتحدثون عن تقاعدهم، وأنا سـأتقاعد عندما تتخلى عني كاميوني تقاعدا إجباريا، لأني لا أعرف كيف آتي ببديل لهذه الكاميون. ولكني أتساءل أيضا ما الـذي سـيحدث لأهـل تابلبالا عندما لا يعود لديهم صلاح براهيم؛ فبالفعل، ربما لن يكـون هناك أحد في تابلبالا. واليوم أنت ترحل، وفي الشهر الماضي رحـل

ابن عمك الذي اصطحبته، ومنذ ثلاثة أشهر، التقطت أربعة يسيرون مثلك على الطريق باتجاه الشمال. وهناك من يتساءل متى سيتوقف هذا الفرار. وأنا أقول إنه سيتوقف عندما لا يبقى بالواحة سوى العجائز والشيوخ. ستقول لي، وبالنسبة إلى شاب؟ ماذا يفعل في تابلبالا؟ فلا توجد سينما ولا تلفزيون ولا حتى مرقص، وهل هناك عمل؟ كل ما هنالك هو البلح والغنم؛ إذن ليس من المدهش أن يرحل الشباب. ولاحظ أنه لم يحدث أبدا أنني جعلتهم يخرجون من الواحة، هذا لم يحدث. صلاح براهيم ليس مجنونا! وأنا أعلم جيدا ما يفكر به الشباب، وما حدث معي في بعض الأيام، فإذا كانت لي سمعة أنني أنقل شباب الواحة، فذلك لأن هناك من لا يحبونني. لا، فالشباب يرحلون دون مساعدتي، وبرأيهم الخاص، وفي ما بعد ربما، وليس دائما، أمر بمكنستي ذات العجلات هذه وألتقطهم، فأنا خدوم إذا شئت! عندما أذهب من تابلبالا لبني عباس بالطبع؛ لأنه عند عودتي من بني عباس لتابلبالا، لا يكون هناك أحد على الطريق. فتابلبالا هذه تفرغ، ولا تمتلئ!.

ولم يسمع إدريس بسوى أذن واحدة ثرثرة صلاح براهيم التي اختلطت مع قرقعات المحرك. لكن ثلاث كلمات التمعت في ذهنه بإغراء لا يقاوم: سينما، تلفزيون، مرقص. ولونت بوميضها السحري الإحساس الجديد والسعيد بالتسلل للحياة في وضعية جديدة، وهو

جالس على مقعد بارتفاع مترين من الطريق، وليس يوجد جمل يعوض هذا، فأي عجيبة في تلك الحياة ذات المحركات، الأوتوماتيكية الحديثة!. كانت الأرض المحمرة تعرض الوديان والألوان المتزايدة التي تشبه الساحل الرملي المغطى بالمد المرجاني، ومع ذلك لم تسقط قطرة ماء واحدة عليها منذ أعوام، وربما قرون. وراح إدريس، الذي يعرف هذه الأرض باعتبارها عنصره الطبيعي، يكتشفها في مظهر جديد بسبب الكاميون. وتعلم أن تكوم الرمال يبطئ بعنف من سرعة السيارة، وأن أخاديدها تفقدها التوازن، وأن الأحجار تظهر على وجه الأرض بغتة على نحو شيطاني، وفجأة تشكل على نحو خطر حواجز متموجة. وأطلق صلاح براهيم سبابا، وراح يتقهقر، ثم سحق دواسة البنزين، وزحفت السيارة محتدة، وتقدمت إلى الأمام. وارتجت الأحزمة وتقلقلت البضائع المحملة بالكاميون. ونظر صلاح براهيم وهو يصر على أسنانه.

ـ لا بد من السير بسرعة أكثر من ثمانين كيلومترا بالساعة، قال السائق، أو لا نسير.

وبدأت السيارة القديمة المنهكة تسير فوق العقبات، وبدا أن الرجفان قد خف وأصبح محتملا مع السرعة. وراح صلاح براهيم يتفادى بمرونة الحفر والمطبات الأكثر وضوحا.

ـ ليس بوسعي أن أفعل ذلك عند عودتي من بني عباس مع حمولتي، قال، ولكن دون حمولة، لا بد من الانتباه...

وفجأة قفزت أمام الكاميون غزالة، وراحت تعدو بقفزات واسعة خفيفة فبدت كأنها تلعب. واعتقد إدريس لحظة أن إدريس سيطارد الحيوان، ولكن لم يكن ذلك إلا خاطرا. فلن يكون هذا سوى عبث طفولي لا طائل من ورائه وخطر. وأصاب إدريس الإحباط من رؤية الغزالة تنعطف صوب اليسار وتختفي عن النظر.

ـ فيما مضى. عندما كنا شبابا، علق صلاح براهيم، حاولت أن أطلق النار عليها. أجل، كانت معي بندقيتي دائما في الكابينة، فكنت أمسك بعجلة القيادة بيدي اليمنى وأطلق النار باليسرى. لكن هذا انتهى، فضلا عن أننا نسير بسرعة بالنسبة إلى الموتور، وبعد عشر دقائق، إذا استمرت هذه العوائق، سيكون علينا التوقف.

ولم يتوقف، وأعقب العوائق المتموجة سطح من الرمل الجاف، كأنه عتبة أسمنتية، تسللت السيارة فوقه بنعومة. وبدأ شعور بالراحة جعلهما يفردان ظهريهما للوراء إلى مسندي مقعديهما.

ـ فش، فش، نطق صلاح براهيم، قشرة من الرمل والصلصال. هذا سهل، وستتحمل هذه القشرة أيضا لوقت طويل وزن الكاميون. ولكنها عندما تنكسر، أوه، لا، لا! تنقلب السيارة يا أخي، تنقلب!

كانت السرعة وتيار الهواء العنيف الذي عبر من خلال الكابينة قد أنسياهما فعل الحرارة. لكن المشهد الذي ظل على هذا المنظر البليد كان يجعل ضربات الشمس في قمتها. وصمت صلاح وإدريس هنيهة طويلة، هادئين قليلا، شبه واعين لإفلاتهما بمعجزة من هذا الأتون. وضاعف ظهور أطلال واحة من شعور التعاسة التي فرضها مشهد الضوء الزائد، واختفاء الظل. واستطاعا تمييز سور حائطي، ومرعى منهار، وخلف صف من نخلات برصاء قبة بيضاء لمسجد صغير.

ـ أترى؟ هنا، قال صلاح براهيم غاضبا، لم يبق سوى الموتى فقط في موطنهم. وغالبا ما أتساءل لو أن تابلبالا، وهذا لن يحدث في غضون سنوات قليلة. لابد لنا من تهدئة السرعة؛ فسوف نعبر على منطقة رمال بيضاء تلتمع كأنها الثلج.

ـ قيل لي إنه في الشرق جهة الواد، قال صلاح براهيم، يكون الرمل أبيض هكذا، وهو عندنا أصفر تقريبا. وأنا أفضل هذا، فالرمل الأبيض سيء بالنسبة إلى السيارة، ثم إنه يؤذي العينين.

وانزلقت السيارة، وانحرفت يمينا ويسارا كأنها تسير فوق ثلج جاف. وأطلق صلاح براهيم صيحة تذمر. وكان هناك رجل واقف بلا حراك على حافة الطريق. لكن سلوكه كان يقول إنه لا يكفيه أنه

انتظر الكاميون. وشعر إدريس بأن صلاح براهيم زاد من سرعته في التو ثم توقف. ومنحنيا على النافذة، رأى إدريس الرجل ينطلق صوب الكاميون، وأصبحت المسافة التي تفصله عنها عشرة أمتار، عندما أدار المحرك وضغط على دواسة الوقود، فترجرجت السيارة وتحركت متباعدة عن الرجل، الذي أبطأ سيره، وأخيرا توقف. عندئذ أبطأت الكاميون ثانية ثم توقفت. وعاود الرجل هرولته ثانية للحاق بها، فأدار صلاح براهيم محركه وعاود السير ثانية بسرعة. وتوقف الرجل، متحيرا، عن الهرولة، ثم عاود المسير بخطوة سريعة مع ذلك على جانب الطريق. ومن جديد تباطأت الكاميون ثم توقفت.

ـ لماذا تفعل ذلك؟، سأل إدريس.

ـ يجب علي أن آخذه معي، هذه هي القاعدة، ولكني لا أحبه؛ لذا أعمل على إجهاده.

ـ وما اسمه؟

ـ لا أعرف.

ـ إذن أنت لا تعرفه؟

ـ هو، لا، لكنه من التوبو.

وتوقف إدريس عن السؤال؛ فمع أنه لم ير أبدا أحدا من التوبو في تابلبالا، فإنه كان على علم بالسمعة الكريهة لهؤلاء السود الرحل من تيبستي، الذين أهلكهم التوطين، فتبعثروا وتحولوا متشردين ومغامري صحراء. وقد عرف عنهم أنهم كسالى، ولكنهم لا يكلون من التعب، سكيرون وشرهون، وأيضا متحفظون إنسانيا في ترحالهم، صموتون، ولكن مولعون بالكذب ما إن ينطقوا. وحيدون وحدة قاسية، لكنهم لصوص، مغتصبون وقتلة إذا ما وجدوا في مجتمع. وكان كل ذلك واضحا في الوجه القاسي الذي ظهر بمرآة الكاميون.

وجذب صلاح براهيم إدريس ناحيته كي يفسح مكانا للقادم الجديد.

ثم ارتجت الكاميون. لكن السائق ظل في حالة صمت عدائي، وكانت أمامهم منطقة مزلطة، وكان ضروريا أن يبطئوا ترفقا بدواليب السيارة. ثم اختفت كل دلائل الطريق، وانحرفت الكاميون رغما عنها صوب الشرق، لأن الطريق الأسفلتي الذاهب من أدرار لبني عباس لم يعد بعيدا. ومن ثم لاح أمامهم بعد ذلك بساعة، واعتلته الكاميون ومضت يسارا، باتجاه الشمال، وتمكنت بعد ذلك من السير بالسرعة العادية التي راحت تجلب النشوة لإدريس.

كانوا قد قطعوا مائة كيلومتر، عندما قاطع التوبو الصمت فجأة، ونطق بضع كلمات في لهجة جشاء خمن إدريس معناها.

ـ ماذا قال؟ سأل صلاح براهيم.

ـ قال: الطريق مقطوع، نقل إدريس.

ـ بالطبع، زمجر صلاح براهيم. لقد لاحظ مثلي أننا منذ أخذنا الطريق لم تعبر حولنا سيارة واحدة. وهذا بالقطع غير عادي.

ـ وما الذي يقطع الطريق؟ سأل إدريس.

ـ أوه، ليس هناك إلا احتمال واحد، وهو أن وادي ساحورا يفيض في المتوسط مرة في العام. أمامنا ربع ساعة، ثم بعد ذلك، إن شاء الله!

بعد عشرين كيلومترا بالفعل، انحدر الطريق في نوع من الوادي وغطس في فيضان يجرف المياه المضطربة البنية. وكان على الكاميون أن تتوقف خلف طابور من السيارات التي لا تتحرك؛ ففي غياب جسر تمر فوقه، يعبر الطريق قاع الوادي على بلاطة أسمنتية بارتفاع ثلاثين سنتيمترا، وفي غالب الأوقات، تكون جافة فيعبر المرور عليها. أما اليوم، فلأن الرعد قصف على بعد عدة كيلومترات، تدفقت هذه المياه على الأرضية بغير معرفة لمدى عمقها بالضبط. وقد يستمر هذا ساعات أو يومين. وقفز الرجال الثلاثة من السيارة ونزلوا لينضموا إلى مجموعة تتناقش على حافة المفيض. وكان السؤال الكبير حول معرفة ما إذا كانت هناك فرصة لسيارة أن

تعبر إلى الناحية الأخرى، مع الأخذ في الحسبان مدى عمق وعنف السيل. وكان لابد من خشية الطين الذي يغطي البلاطة ويجعلها زلقة، وأيضا من انغمار أنبوب الشكمان الذي يتوقف أداء الموتور بشكل حاسم على صيانته. وشمر شاب صغير جلبابه وتقدم داخل تيار الماء مستندا إلى عصا طويلة، وقطع عدة خطوات ثم عاد مسرعا إلى الحافة، وقد تغطت فخذاه بالجروح؛ فقد كانت هناك أيضا أحجار مندفعة بسرعة بواسطة التيار.

كان البعض منهمكا على مسافة حول سيارة دودج قديمة محملة ببالات الصوف، وقد جهز سائقها أنبوبا من الكاوتشوك وضعه في فوهة شكمان سيارته وربطه بحافة المركبة، على علو كاف كي لا يصل إليه الماء. وقفز هو إلى مقعد قيادته وأطلق نفيرا عاليا كي يجذب الانتباه العام، ومن ثم شرع ينزل الحافة، وغطست دواليب الدودج الأمامية في التيار الموحل. وبدا أولا أن مشروعه هذا سينجح، لأنه اتضح أن الماء لم يصل لأعلى من الدواليب ولم يمس الأجزاء الحيوية للمحرك. وملطخة ببقع بنية، تقدمت السيارة القديمة وهي تتبختر. وكان قد ذرع حوالي ثلث الممر عندما أدرك أنه انحرف جهة اليمين متحولا إلى العمق الزلق بضغط التيار الذي دفعه نحو اليسار، أو لأن السائق قد تشوش نظره بفعل السيل الذي انهمر أمام زجاج السيارة بسرعة تسبب الدوار! وكان عليه أن يدير عجلته

الآن إلى أقصى يسار البلاطة غير المرئية. ومن ثم انحنى فجأة صوب اليسار، إلى الأمام أولا، ثم إلى الخلف، فانحرفت الدواليب عن الأرضية، وانقلبت الدودج ببطء ثم رقدت في الماء الموحل، وقد تغطت بالماء لعمق يربو على المتر. وخرج السائق من النافذة اليمنى للكاميون وشرع في السير على حمولته من الصوف وهو يقوم بحركات يائسة.

وعاد صلاح براهيم وإدريس إلى الرينو، وكان التوبو قد اختفى.

ـ لا أدري لماذا يهرب! دمدم صلاح براهيم ولكن بمعرفتي بهؤلاء، سيدهشني أن يظل طويلا منتظرا على هذا الجانب من الوادي؛ فلا شيء أبدا يحمل أحدا من التوبو على الانتظار.

وجلس، واضعا يديه على ركبتيه وحدق بنظرة حزينة في مؤخرة السيارة التي أمام الكاميون.

ـ أترغب في أن أقول لك شيئا؟ لو أنك سألته إلى أين سيذهب وماذا يريد أن يفعل، فلن يجيبك؛ أو سيخترع قصة بأنه سينام واقفا؛ لأنه في الحقيقة لا يعرف أين سيذهب، هذا أولا، وثانيا هو لا يعنيه أن يفعل أي شيء. وهذا هو التوبو، يتنقل كيفما اتفق، بلا هدف، ولا سبب. إنه التشرد الكامل!

وصمت ليشاهد تويوتا ذات دفع رباعي تهبط صوب الوادي، ثم توقفت ونزل منها التوبو. ولم تبد على صلاح براهيم أي دهشة لسماعه يشرح أن التويوتا سوف تعبر بفضل عجلاتها الأربع ذات القوة المحركة وأنبوب شكمانها العلوي، وأنه أقنع السائق بأن يقطر الكاميون الرينو. ومزاوجا بين القول والفعل، لوح بكابل معدني مزود بشكمان.

ونهض صلاح براهيم متشككا ومنقاذا مع ذلك. وكان حديثه مع سائق التويوتا ـ الذي كان إنجليزيا ـ قصيرا، لكنه تطابق واقتراحات التوبو. فكيف تمكن هذا الرجل الشيطان من تدبير هذا الحل؟ والأهم هو لماذا تصرف على هذا النحو؟ ولم يبق إلا ربط الكابل بمقدمة الرينو ومؤخرة التويوتا، والدفع بالسيارتين نحو الوادي. وظل التوبو على حافة التويوتا، الثقيلة والقوية كأنها دبابة هجوم، إلى أن عبرت الوادي مخلفة وراءها أكداسا من الماء المشبعة بالتراب. وكان على صلاح براهيم أن يتبعها، رغم استيائه لأن هذا الإنجليزي الملعون لم يكن بحاجة إلى القيادة بهذه السرعة، أضف لذلك أن دوامات الماء التي خلفتها التويوتا أصابت باندفاع عنيف مقدمة الرينو وحتى زجاجها الأمامي. وعندما استقرت السيارتان على الجهة اليمنى من الوادي، كانتا تشبهان كتلتين من الطين اللامع. وأحاط البعض بهما، وكان ضروريا الهبوط من السيارتين، وإجابة

الأسئلة، وتبادل الكلام اللاذع، والتهاني، وساعدوهم في غسيل الزجاج. وخلال كل تلك المشاهد، كان إدريس هو الوحيد الذي لاحظ رجلا وحيدا يبتعد عن الطريق في خطى خفيفة هادئة، وكان هذا الرجل هو التوبو.

ـ أتعتقد أنه ظل مع الإنجليزي؟ سأل.

ـ لا، أجاب إدريس، لقد رأيته يرحل على قدميه في الصحراء.

وفكر صلاح براهيم هنيهة، وفجأة ضغط المكابح وأوقف سيارته، وفتح خزانة التابلوه الأمامي، وسحب حافظة قديمة عريضة.

ـ الحقير القذر! لقد أخذ نقودي معه.

ـ كم؟

ـ لا أدري بالضبط، على الأقل ألف ومائتا دينار. لقد عوض يومه!

ـ لقد مكننا أيضا من كسب الوقت. دافع عنه إدريس.

ـ كان غاليا عبور الوادي!

وظل صلاح براهيم يصر على أسنانه حتى بلغ أول مدينة بني عباس، ولم يكن مرحا بالقدر الذي يجعله يقدم المدينة لرفيقه الشاب.

وكان بانتظاره اثنان من رجال الدرك بدراجتيهما الناريتين في حراسة مدخل الطريق، وأشارا له بالتوقف.

ــ نريدك أن تتبعنا إلى المخفر.

وقطعا الخمسمائة متر التالية في حراسة راكبي الدراجتين الناريتين. وبالمخفر، وجدا الإنجليزي صاحب التويوتا، وكان قد سجل محضرا بأن مرافق الطريق لصلاح براهيم سرق منه رزمة بخمسة آلاف دينار. ولحسن الحظ، كان صلاح براهيم معروفا في بني عباس، وقص حكاية لقائه بالتوبو والسرقة التي كان هو نفسه ضحيتها. وأكد الإنجليزي أن إدريس لم يكن هو الشخص الذي نقله بالتويوتا. وسخر رئيس المخفر دون إشفاق من صلاح براهيم، ومن أن سائحا إنجليزيا تعرض للسلب من توبو عابر أيضا. لكنه ثعلب صحراء عجوز! بديهي أنه كان هناك فيضان وادي ساحورا، ولكن كانت هناك أيضا الصحراء!

مع خروجهما من المخفر عقب توقيع محاضر التحقيق، انصبت شراسة صلاح براهيم على إدريس. وبالتأكيد كان الغلام بريئا من كل ما حدث في هذا اليوم الكريه، لكن صلاح براهيم التقطه من الطريق، كما التقط هذا التوبو، وهذا خلق نوعا من التعاطف بينه وبين التوبو. ومن ثم، فعلى الأقل يمكن القول بأنه كان هو نذير الشؤم. ورفيق طريق بهذا الشكل، من الأفضل تجنبه، وهو ما سيفعله في المستقبل.

وقضى إدريس ليلته في فناء نوع من المزرعة بخرائب كسار القديمة الواقعة في قلب النخيل، التي كانت قد فرغت من سكانها بواسطة الفيلق الأجنبي في بداية الحرب عام ١٩٥٧، وهذه القرية التقليدية المبنية بالطوب اللبن كانت تستخدم ملجأ للعابرين قبل أن تشرف على الزوال. ولم يستطع الرأس الضاجه بمغامرات اليوم الأول للرحلة أن ينعس مع شخير رجل سمين وتنهدات طفل كان محتضنا أمه. ولم يتوقف إدريس عن تذكر الوجه القاسي والماكر للتوبو، محاطا بهالة من النذالة أضفت عليه الأهلية كي يسلب على التوالي كلا من صلاح براهيم والإنجليزي.

ولحق في مخيلة إدريس بإبراهيم، لكنه كان أيضا أكثر أبهة منه؛ فالوحدة التي أحاطت به كهالة غامضة، كانت أشد شراسة من تلك التي أحاطت بالشامبا، فإبراهيم عاش وحيدا أغلب الوقت مع قطيع إبله، لكنه كان يخاطب حيواناته، ويخمن حاجاتها، كما كانت هي تغذيه، وكانت له صلة أخذ وعطاء مع الرعاة الآخرين وأهالي الواحة. أما التوبو، فقد بدا أنه في معركة مفتوحة أو مقنعة مع كل أمثاله. وسرعان ما ردع إدريس محاولة التعاطف التي مر بها وهو يرى التوبو يبتعد في سيره المجنح عقب عبور ساحورا. لا، هذا الرجل لا يقبل أن يكون له رفيق، بل عبر المكيدة فقط، وبتصميم على أن يسرقه ويتركه بعدها حيا أو ميتا. كان حيوانا متوحشا، لا،

بل لم يكن حيوانا متوحشا؛ فلا يوجد حيوان يحيط نفسه بهذا التوجد. وليس هناك حيوان يسلك بهذا القدر من اللامبالاة العدائية مع نظائره. فقط شخص واحد هو القادر على ذلك. فقط رجل واحد... رجل واحد. وانتهى إدريس إلى أن ينام وهو يشاهد في حلمه خليطا من وجه إبراهيم ووجه التوبو.

#

كانوا قد حدثوه عن "بحر الرمال"، ولم يكن إدريس قد شاهد البحر أبدا، ولكن كانت هناك صورة معبرة مستندة بمدخل شارع إلى التل الكبير المنتصب، البتول والمذهب الصاعد حتى السماء. وهو كثيب بارتفاع مائة متر على الأقل، ناعم ومتماسك تماما، تداعبه وتعيد تشكيله الريح بلا انقطاع. كانت الصورة، كأنها موجته الأولى، تعلن عن المحيط الهائل للسهول الرملية الغربية. ولم يستطع الامتناع عن اجتياح هذا الجبل غير المستقر الممتد، الذي راح يخر تحت قدميه في شلالات بيضاء، فتمدد في خاصرته هنيهة ليلتقط أنفاسه. وصارت التسلقات مع ذلك غير ذات جدوى، إذ سرعان ما وجد نفسه محمولا إلى الأسفل في صدمة مصممة بغلظة، وأحس برعشة حقيقية أثارتها الريح التي لم تتوقف عن غمره وإثارته، من جهة الشرق المجعد على نحو لا نهائي بتلال أخرى تمتد حتى الأفق، بالفقرة المذهبة من فقرات تلال أخرى. نعم، بحر من الرمال، لكنه مجمد،

ثابت، بلا سفينة واحدة. وعند هبوطه من أعلى، رأى عند قدميه الأكواخ المكعبة، وقباب وشرفات القرية، وعلى البعد في مستوى أدنى، الجزة الخضراء لبستان النخيل، وغمغمة صيحات، ونداءات، ونباح. وفجأة حلق فوق هذا الجمع أذان المؤذن، صاعدا باعتباره دليلا وحيدا على حياة الواحة. وعندما عاود النزول، تحقق من أن أثر أقدامه على خاصرة التل الأول قد انمحت بالفعل، كأنها امتصت بفعل سمك الرمال، فعاد الكثيب بتولا كما كان، متماسكا على غرار تكوينه الأول. وتساءل أي معجزة تجعل كتلة الرمال هذه تتأثث، وتعمل بشكل دائم بواسطة الهواء، ولكنها لا تغزو الشوارع، ولا تغطي المنازل. بل على العكس تتوقف بحكمة أسفل جدار صغير لا يعدو بضع سنتيمترات يحيط بالقرية.

وقادته قدماه بالقرب من فندق ريم القديم الفخم الذي صممه المعماري فرنان بويون، بحوض سباحة وملعب تنس وشرفة تطل على بستان النخيل. وفي تلك الساعة الصباحية، كانت تشكيلة من السيارات والدراجات النارية من جميع الأنواع والجنسيات تحيط بمداخله. وتوقف إدريس مندهشا من حجم الترف، مشغولا بتنوع السيارات، ولمح مدخل الشرفة المزخرفة بالمظلات الحمراء، وتحتها الرجال والنساء يتناولون بسعادة إفطارهم. وكان هناك رجال ملتحون في عفريتات زرقاء، وجنود بزيهم الرسمي الكاكي، وبعض الأطفال

الذين يتصايحون حول الموائد، وكذلك النساء على الخصوص، اللاتي كانت إحداهن شقراء لها نبرة صوت عالية تشبه ــ إلى حد ما ــ تلك التي كانت في اللاندروفر.

. ــ قل لي يا هذا! أنت لا علاقة لك بهذا المكان. اذهب من هنا!

كان هذا عاملا أسود يحمل حقائب عائلة راحلة، وقام بتأنيب إدريس وانتزاعه من تحديقه. وكانت تلك هي المرة الأولى التي حدثه فيها أحد بهذه اللهجة. وغمرته الدهشة، ليس لأنه لم يفهم، وإنما على العكس، لأنه اكتشف فجأة بوضوح ساطع مكانه في هذا المجتمع الجديد. ليس فقط لأنه لا ينتمي إلى فئة زبائن الفندق، ولكن لأن عامل الفندق لديه الحق في تعقبه ومطاردته؛ لذا ابتعد مجترا هذه الحقيقة الأساسية، بالطبع، وأيضا لكي لا يشتبه فيه بالأحرى بعد عدة دقائق.

وعبر القرية، مترعا عينيه بالمقاهي، ومحال البقالة، والحلاقة، وحوانيت الحرفيين، وأكداس الخضر الطازجة، محاذرا من الكلاب، مغتاظا من مرور السيارات، التي هي باهرة وقاتلة في آن معا. وكان سؤال الرجل الأسود له بفندق ريم ما زال يتردد في أذنيه: ما علاقتك بهذا المكان؟ ابتعد من هنا. واكتشف حمام السباحة العمومي المغذى من نبع معدني متدفق ومظلل بستار من النباتات المتعرشة والجهنميات. وكان الغلمان الصغار يغطسون ويلاحقون بعضهم

بعضا بالضحكات والنداءات. وصارت أمامه، عقب فندق ريم، صورة لفردوس من الطزاجة، والتعري السعيد، واللعب المجاني. فجلس أسفل نخلة كي يتأمل على نحو أفضل هذه اللوحة. ومر أحد المراهقين، لامعا كسمكة، على مقربة منه. وأزهرت نظرته الضحوك نفسه، وتناثرت عليه بعض قطرات الماء. ولم يتحرك إدريس؛ فقد كانت هذه بالفعل لوحة راقبها، ومشهدا مقفلا لم يستطع الولوج إليه. فقد كانت هيئته متربة ومغبرة، وكان مرهقا في حين أن الصبح كان ما زال في أوله. ولم يكن أخا لهؤلاء الأطفال، الذين هم في سنه مع ذلك، وكانوا يلهون ضائحين بين المياه الخضراء بالحمام والعناقيد البنفسجية المدلاة فوق رؤوسهم. فهذا المهاجر الصغير القادم من الجنوب، حالا في مغامرة غير مؤكدة، لن يؤخره أحد، فكان حال إدريس هنا كحال طائر عابر.

وواصل تسكعه ونزل إلى شارع صغير، وتلكأ أمام بسطة حلواني، كان ناعسا على كرسيه، فأعطاه الرجل قطعة حلوى بالعسل عندما استنتج أنه لا يريد شيئا. واقترب من بستان النخيل الكبير، فصار أمام باب المتحف الصحراوي، التابع لمعمل المناطق الجافة الذي يديره المركز القومي الفرنسي للبحوث الاجتماعية. وكان الدخول يكلف دينارين، وهو مبلغ باهظ بالنسبة إلى مدخراته الضعيفة التي أحضرها معه. وراح ينزل إلى بستان النخيل، عندما توقفت

حافلة كبيرة أمام المتحف، وانفتحت أبوابها الخلفية والأمامية، وبدأ بعض السائحين النزول منها خارجا. كانت تلك رحلة منظمة لرجال ونساء كهول في العمر الثالث، وكانت رؤية كل هذه الظهور المنحنية والشعور البيضاء، والأصابع الجافة المتكئة على العصي غريبة. وبدا أن المرشد السياحي يانعا للغاية بالمقارنة معهم. وشرع بالقيام بدوره بمداعبة فكهة وبفتوة بدا أنه يجهد كي يقوم بأدائها. وللترفيه عن المسافرين الآخرين، أعطى ذراعه في هيئة ملاطفة هزلية لعانس ذات مظهر فظ ومتصنع، وبدا أنها مداعبة تحدث من أول الرحلة. ووجد إدريس، الذي اختلط بالمجموعة، نفسه في أولى صالات المتحف المؤثثة بنوافذ عرض ومليئة بالحيوانات المؤقلمة. وقام المرشد بإشارات وهرع هنا وهناك مفصلا بالكلام المنمق، أو بالدعابات، بنبرة بائع. وكان جمع من المخلصين يحيطون به، ويتابعون جمله، بالضحكات المتهللة. أما باقي الزائرين فقد توزعوا في الصالات الأخرى وحديقة المتحف. وراح إدريس يستمع بكل إصغاء تام لخطاب كانت كل جملة فيه، بل كل كلمة، تعنيه.

ــ أنتم هنا، سيداتي وسادتي، وأنتن أيتها الآنسات، لكي تكتشفوا أسرار الصحراء وجمالها. وكما استنتجتم، فالصحراء ليست صحراء كما يقول البعض، بما إنها مسكونة بكل هذه الحيوانات المحشوة بالقش التي تحيط بكم. محشوة بالقش، نعم، لأنه يجب القول

إن كل الحيوانات الحية قد اختفت. فقد راحت بفعل شراسة البشر، وليس بفعل قسوة المناخ. وهذه بصفة خاصة حالة الغزال الرشيق، والنعامة ذات القدرات المعوية الشهيرة، كما إن هذه أيضا حالة الماعز البري والفهد، وثعلب الفينيك، والشيهم. ولن أشدد على تذكر الأسد، ملك الصحراء، هذا الذي أبيد عن آخره، كما نعلم جميعا، بواسطة المغامرين الذين أتى ذكرهم برواية تارتاران دي تاراسكون، وبالمقابل، تجدون هنا حيوان اليربوع المتواضع في قفصه. واليربوع، كما يمكنكم أن تتقوا، هو السليل الحي دقيق الحجم للقاء بين الكنجارو الأسترالي والفأرة الحراجية. ولهواة الكائنات اللزجة، نقدم لهم العظاة والورل، والإسقنقور، الذي يدعونه بسمكة الرمال. ولكن لا شيء يساوي الجرادة، اللذيذة عندما تقلى في الزيت، وتغمس بالعسل.

ورفع سيد، على استحياء، أصبعه كأنه تلميذ، بعين براقة، وكان يريد أن يعرف ما إذا كانت سمكة الصحراء هذه يتم اصطيادها بطعم من الدود أو الذباب.

ـ سؤال رائع! هتف المرشد. ليكن في معلومك أن أطفال الواحات يمسكون بها بأيديهم، لا أكثر ولا أقل، كأنها سمكة تروتة في بركة جبلية. ويأكلونها مشوية على الجمر. لكنهم يشوون أيضا الحيوانات الأليفة التي يلعبون معها والتي تجر العربات الصغيرة على سبيل المثال.

وانتقل إلى موضع يتوسط نوافذ العرض، متبوعا بالمجموعة الصغيرة الملازمة له، والتي اختلط بها إدريس. وكانت هناك في ركن لافتة كتب عليها: النطاق التغذوي لسكان الصحراء.

ـ هذا إذن المطبخ الصغير الذي هو صالة الطعام لساكن الواحة، قال المرشد. وأدوات المطبخ هي الهاون، والمدق المصنوع من خشب الأكاسيا، الذي يمكن به طحن البلح، والجزر، والحناء والصبار. والمرأة التي تتم هرسها عليها أن تترك المدق في الهاون مع بعض فتات الخبز له كي يتغذى عقب العمل الذي قام به. وهذه هي التاميز، طاحونة الحجر وغرابيل البذور، وأيضا الطبق الكبير متعدد الاستعمالات؛ فهم يعجنون فيه الخبز والفطائر. وهذه جرار للبن، وأخرى للمياه، ثم ثمرات القرع المخلوة المجففة من أجل الجبن، والزبد المصفى والقشدة.

وفتح إدريس عينيه على اتساعهما؛ فكل هذه الأدوات التي كانت في حالة نظافة غير واقعية. المتسمرة في جوهرها الأبدي الذي لا يمس، والمحنطة، قد أحاطت بطفولته ومراهقته. ومنذ أقل من ثمانية وأربعين ساعة مضت، أكل في هذا الطبق، وشاهد أمه تدير هذه الطاحونة.

ـ أنا لا أرى ملعقة أو شوكة، علقت سيدة عجوز في دهشة.

ـ هذا يا سيدتي لأن ساكن الواحة، شأن جدنا آدم، يأكل بأصابعه. ولا خجل في ذلك؛ فكل فرد يلم في راحة يده اليمنى حفنة من الطعام، ويلتقطها في راحة يده اليسرى، ويصنع منها كرية، ثم بإصبعه اليمنى يدفعها إلى أطراف أصابعه كي يضعها في فمه.

وقام بتمثيل العملية بشكل إيمائي. وقلده بعض السائحين، وأثار ارتباكهم الضحكات.

ـ ولكن يجب ألا تعتقدوا أن ساكن الواحة ينقصه التحضر؛ فمعروفة هي قواعد أدب الصحراء المتعلقة بالغذاء، فقبل كل وجبة، لا بد من غسل الأيدي، وليس في ماء ساكن، وإنما في نبع أو بماء مصبوب من إبريق يمسك به شخص آخر. ولا بد أيضا من التسمية باسم الله. ولا أحد يشرب وهو يأكل، ولكن بعد الطبق الرئيسي. أما الماء أو اللبن الرائب، فيدور على الموجودين عندئذ باتجاه اليمين، ويكفي أن تمد يديك الاثنتين لكي تمسك بالإبريق أو وعاء اللبن. ولا يجوز الشرب وقوفا؛ فإذا كان الشخص واقفا، فعليه أن يسند إحدى ركبتيه إلى الأرض. وعليه ألا يتقاسم بيضة.

واستمع إدريس في دهشة؛ فقواعد الحياة اليومية هذه، كان يعرفها لأنه يعيشها كل يوم، ولكن بشكل تلقائي، ودون أن يسمعها مصوغة أبدا. أما أن يستمع لها من فم فرنسي، مختلطا بمجموعة من

السائحين ذوي الشعر الأبيض، فهذا يجعله يصاب بنوع من الـــدوار. وجاءه انطباع بأنهم ينتزعونه من نفسه، كما لـــو أن روحـــه غـــادر جسده فجأة، وراح يشاهده من خارجه وهو في حالة ذهول.

ورفع المرشد حالة المرح العامة عندما انتهى قائلا:

ــ والتراتبية السليمة موضع احترام دائم، فأفضل قطع الطعام تذهب إلى الرجال، والأقل تذهب إلى النساء والأطفال.

وأخيرا توقف أمام صوان زجاجي عرضت فيه المجـــوهرات والتمائم.

ــ لا جدوى سيداتي سادتي من البحث هنا عـــن رأس كلـــب، أو صورة ظلية لجمل، أو جعـــران أو رجـــل أو امـــرأة؛ فـــالحلي الصحراوية لا تحاكي شيئا، فهي أشكال تجريدية جيومترية لها قيمـــة رمزية، وليست صورا. فهنا صلبان وأهلة مـــن الفـــضة الخالـــصة، ونجوم ورديات، وهنا مشبكات الأقراط، والخواتم المصنوعة مـــن قرون الماعز، وأساور الأوتاد والخوابير التي تمنع شـــياطين الأرض من الصعود إلى أعلى القدم وغزو سائر الجسد. أما أقل الحلي قيمـــة فهي المصنوعة من الودع، والأعلى قيمة هي الذهبية، ولكـــنكم لـــن تروها في هذا المتحف؛ فقد سرقت منذ زمن طويل.

وعندما شرع الزائرون في الابتعاد، اقترب إدريس من الصوان. هذه الحلي الفضية رأى أمه تتزين بمثلها، وكذلك خالاته، ونساء أخريات من تابلبالا. كما أظهرت الصور وجوها مغطاة بوشوم الوجه التراثية كاد إدريس يتعرف إليها لكونها أليفة لديه. وأخيرا، عندما ابتعد عن الفترينة، شاهد انعكاسا لرأس ذي شعر أسود غزير، ووجه ناحل، ضعيف، قلق. فقد كان هو نفسه موجودا ومنعكسا بهذا الشكل المتلاشي في هذه الصحراء المحشوة بالقش.

من بني عباس إلى بيشار، لا بد من قطع مسافة مائتين وأربعين كيلومترا بطريق مرصوف، لكنه غير مزود بنقاط للمياه أو الوقود. ووجد إدريس مقعدا إضافيا في سيارة أجرة استأجرها خمسة ركاب من تجار الموزاب. ولم يقبل التجار الغلام الشاب بينهم إلا لسبب اقتصادي، ولأنهم فضلوا أن يسافروا بغير أن تصطحبهم نساء. كانوا جميعهم بقالين يمكن التعرف إليهم من وجوههم الصفراء اللدنة، وعويناتهم الزجاجية الصفراء التي تضفي عليهم مظهرا ضعيفا ماكرا، وربما كانوا شديدي الثراء يمتلكون بيوتا موسرة في حدائق غرداية، وقد تجاهلوه مدة خمس ساعات هي مسافة الرحلة. وكانوا في ما بينهم يتبادلون الحديث بجفاء مرات نادرة متباعدة يفصل بينها صمت تأملي طويل، كما كانت أحاديثهم تدور حول الثراء الناتج عن تجارة العنب الكورنثي، وانهيار أسعار البلح، واشتعال أسعار الزعرور الجرماني، وكانوا أحيانا يخفضون نظراتهم بتعاسة صوب أصابعهم التي تحيط بها مسابح الأبنوس، وبالاستماع إليهم، تخيل

إدريس محيطا كاملا من المتاجر، والأسواق الكبيرة، والمخازن، والسفن والطائرات التجارية، تروح وتغدو، حاملة الثراء الهائل، لكنها صارت، بمرورها على هؤلاء الرجال غير محسوسة، لا لون لها، ولا رائحة، ولا طعم، لأنها اختصرت إلى أرقام، ورموز، وملامح مجردة. بفعل التقشف، والكآبة الخفية لهؤلاء المسافرين الخمسة. إنه الثراء الخاضع للصرامة، والمنافع التجارية المباركة بعدم الاهتمام، والنجاح في الأرض الذي يتم السعي إليه فقط كإثبات للخضوع لوصايا السماء. وكان على إدريس أن يتذكر هذا الدرس المختصر والمرير للتحكم بالأشياء من خلال متعبدي الصحراء هؤلاء.

مع ذلك، لم يتجاهله هؤلاء الرجال الخشنون المزدرون للحياة بقدر ما تخيل، وقاموا بعمل طيب تجاهه قبل أن يتركهم؛ ففي أثناء وقوفهم على قارعة الطريق يحاسبون سائق التاكسي، التفت أكبرهم سنا نحوه.

ــ أنت ذاهب لمرسيليا كما فهمت؟ قال، فلو لم تكن تعرف أين ستقيم، توجه إلى يوسف باغابانما الذي يمتلك فندق راديو، ١٠ شارع بارمنتييه، قل له إنك من طرفي، فهو لا يقبل إلا الموزاب وأصدقاءهم.

وخربش في مفكرته هذا الاسم، وهذا العنوان، وعبارة توصية، وأعطى إدريس الورقة التي قطعها من المفكرة.

#

بالنسبة إلى أوربي، ليس هناك ما يفتقر إلى الجاذبية بقدر بيشار: فهي عبارة عن مساكن شعبية، ومعسكرات، ومدارس، ومصنع أدوات الكهرباء، ومبان إدارية كثيرة العدد في هذه القصبة التي لا يصل تعداد سكانها خمسين ألفا والتي تعد بمنزلة آخر مدينة جديرة بهذا الوصف قبل بلوغ الصحراء. وبالنسبة إلى إدريس، كانت هذه المدينة اكتشافا لكوكب جديد؛ فقد أذهلته الفتارين، ومحلات الجزارة، وحتى جنين المركز التجاري. ولكن ما أصابه بالدوار هو مرور السيارات، وظل هنيهة طويلة يراقب إيقاع حركات جندي مرور يتحكم في حركتها. وباكتشافه المحطة، لم يستطع الكف عن تأملها؛ فكل وصول أو إقلاع لقطار ترك أثره في نفسه باعتباره حدثا للذكرى. وأسف على أنهم أوصوه أن يستقل من باب أولى الحافلة للذهاب إلى وهران، وقضى ليلته بقاعة الانتظار، محاطا بالصخب الذي يتخلل مواكب القطارات. ولم ينم إلا مع أضواء النهار الأولى. وعندما وصل في الساعة الثامنة لموقف الحافلات، علم أن الحافلة المتجهة إلى وهران قد رحلت في الساعة السادسة وأن الثانية لن ترحل إلا في اليوم بعد التالي في السادسة صباحا أيضا؛ فكان عليه الانتظار مدة يومين.

دخل إلى سوق مغطاة، وطاف بمتاهة الأزقة، وخرج إلى شارع واسع مترب وخال من المارة. وتلازم تداعي جسده مع الجوع الذي خرق أحشاءه وجعله يغص ببعض الغثيان. ومر أمام واجهة عاليه ملونة لمحل تراقصت عليه هذه الأحرف: مصطفى. فنان

فوتوغرافي. وسمع أصوات موسيقى وجلجلة صوت خارجا. وكانت الموسيقى الخافتة تذكر بمشرقية البازار. وكان الصوت فخيما ذا سطوة طنانة:

ــ أنت الشيخ، أنت السلطان، المهراجا، أنت فاجر، أنت الذكر الكبير المهيمن. أنت تسيطر، أنت تتحكم في قطيع من النساء العاريات المرتميات عند قدميك. كليك كلاك، انتهى!

وتقدم إدريس إلى الأمام ليرى ما بداخل "الأستوديو". كان هناك ستار في العمق يصور بشكل بدائي قصرا شرقيا، حول حمام مزخرف بنافورة، وجمعا من النسوة نصف متعريات مستلقيات على الأرض فوق وسائد ملونة، وكان هناك شاب صغير متنكر في زي سلطان عليه مسحة من الادعاء. وقام مصطفى، الضخم، الذي يرتدي طاقية حمراء، بإيقاف فونوغراف قديم يضفي جوا من الإيقاعات. وشرع الشاب في خلع بهارجه الشرقية.

ــ ستكون الصورة جاهزة مساء غد، وعد مصطفى، وثمنها خمسة عشر دينارا.

وبالكاد لمح إدريس، وظن أنه زبون جديد.

ــ السيد جاء من أجل بورتريه؟ هنا، قصر الأحلام. أنا مصطفى الفنان المصور، أعرض عليك تحقيق كل تخيلاتك الأكثر جنونا.

لكن حفاوته انتهت عندما فهم أن إدريس لم يكن زبونا.

ــ كيف تتجسس من عندك علينا؟

ــ أنا أشاهد.

لا يوجد ما تشاهده هنا. ابتعد قليلا، ابتعد قليلا، وسمع إدريس هذا الأمر مرة الثانية. لكنه لم يكن محددا بحيث إنه لم يكف عن ترديده: هل لك أن تبتعد قليلا؟

ــ أنا أبحث عن عمل لمدة يومين، قال إدريس بعفوية.

ــ وما الذي تجيد عمله؟

ــ لقد التقطوا لي صورا بالفعل. امرأة بيضاء فعلت هذا.

ــ يا للهول! امرأة بيضاء؟ بالقطع كانت واقعة في غرامك؟

ــ لا أعرف.

وظهر الشاب الصغير مرة أخرى مرتديا عفريتة سائق.

ــ إذن إلى مساء الغد، سأمر لآخذ الصورة.

وأخفى مصطفى ضيقه بصعوبة.

ــ لا تنس الخمسة عشر دينارا، غمغم.

وكف عن سخطه على إدريس عندما راح يرحب بمقدم زوجين من السائحين، وصار مبتسما وهرع لاستقبالهما.

ـ حضرات السيدات والسادة، معكم مصطفى، فنان فوتوغرافي، أنا هنا لأحقق أحلامكم.

ودفعهما لداخل الأستوديو، وهما مذهولان قليلا، وفرد أمامهما ستائر الخلفيات.

ـ هل تريدان اكتشاف الغابة البرية ومواجهة الوحوش الإفريقية الكبيرة؟ هل تريدان تسلق صخورها الضخمة واصطياد الأيائل والصقور؟ أم تريدان العكس، أن تستقلا مركبا شراعيا تمخران به البحر الأبيض المتوسط؟

وكان كل مرة يفرد أمامهما ستارا بدائيا فاقعا.

وحاول السيد أن يتراجع.

ـ كفى، كفى! أنا وزوجتي جئنا مع مجموعة تقوم بجولة صحراوية منظمة إلى تيميمون، والجوليا، وغرداية.

ـ حسنا حسنا، صاح باهتمام، سأصوركما على خلفية للفجر الذهبي وأشجار النخيل الخضراء. تعاليا من هنا!

وبمساعدة إدريس، قام بتعليق الديكور الصحراوي الذي أعلن عنه على عارضة السقف. ثم راح يعد آلة التصوير. وحاول السيد الذي تم دفعه هو وزوجته أمام الستار أن يحتج.

ـ هذا كثير! أن يذهب المرء إلى الصحراء لكي تلتقط له صورا في أستوديو أمام ديكور ملون يمثل الصحراء؟

وقطع مصطفى إعداداته، ورفع نحوه إصبعا خبيرة.

ـ هذا ياسيدي هو الوصول إلى البعد الفني! أجل هو ذاك، كرر قوله برضا تام، الوصول إلى البعد الفني. فكل شيء يتسامى بعرضه في صورة. يتسامى، أجل. هذا هو المعنى؛ فالصحراء المقدمة في هذه اللوحة، هي الصحراء المثالية، التي هي في الوقت نفسه مسيطر عليها بواسطة الفنان.

كانت المرأة تستمع له بافتتان.

ـ السيد المصور على حق يا إميل. فتصويرنا في هذا الديكور يجعل منا مثالا، كما لو كنا نحلق على كثبان الرمال.

لكن السيد أصر على رأيه.

ـ موافق، ولكن بما إن الصحراء الحقيقية هنا، فما زلت لا أرى سببا لأن نتصور في أستوديو أمام لوحة للصحراء من أجل الخداع.

كان مصطفى يعرف كيف يكون مستشارا.

ـ سيدي العزيز، من السهل دائما تصويرك وأنت تسير مع زوجتك في الرمل والزلط. وهذا ما يدعى دائما بصور الهواة، الصورة

السياحية. أما أنا فأقوم بعمل الصورة المحترفة. أنا مبدع. أعيد خلق الصحراء في الأستوديو، وأعيد ابتكارك في الوقت نفسه.

من ثم، عاد إلى آلة فونوغرافه التي راح يدير لها المانيفللا بقوة. وأصابت الموسيقى البطيئة المرتخية السيد بالرعدة.

ــ وعلى خلفية مشهد لسوق فارسية! هذا ما كان ينقصنا!

مع ذلك اختفى مصطفى وراء الكيس الأسود لآلة تصويره.

ــ من فضلكما، تموضعا في منتصف المنظر الطبيعي. هكذا. ممتاز، التموضع ممتاز.

وأخرج رأسه مع التماع الضوء في لحظة استلهام احتفالية.

ــ هذا يذكرني بيوم زواجنا، وخطاب العمدة أو القس، لم أعد أتذكر، غمغمت المرأة.

وبينما كان مصطفى ينحني بشدة، شاكرا لهما، واعدا إياهما بأن الصورة ستكون جاهزة غدا صباحا، وستكون رائعة، وأنها ستكلفهما ثلاثين دينارا، غادرا كأنهما يخرجان من مشهد جلسة تحضير أرواح.

ــ مع ذلك هناك شيء أريد فهمه. قال الرجل قبل أن يخرج.

ـ أنا تحت أمر سعادتك!

ـ إذا كنت فهمت جيدا، هل الصورة التي ستصنعها لنا ستكون بالأبيض والأسود؟

ـ بالتأكيد، بالتأكيد، فهذا عملنا باعتبارنا محترفين، فنحن نترك الألوان لهواة التلوين.

ـ حسنا، ولكن لماذا بحق الشيطان أجد ديكورك مصبوغا بالألوان؟!

وبدا كما لو أن السؤال باغت مصطفى.

ـ بالألوان؟ كرر وهو ينظر إلى ديكوره الصحراوي كما لو كان يراه أول مرة. أتريد أن تعرف لماذا أستخدم ديكورا ملونا كي أصنع صورا بالأبيض والأسود؟

ـ تمام.

ـ حسنا، ذلك من أجل الإلهام بطبيعة الحال.

ـ أي إلهام؟

ـ إلهامي أنا بالطبع، وأيضا إلهام زبائني، وكذلك، ولم لا، إلهام آلة التصوير أيضا!

ـ إلهام آلة تصويرك؟!

ـ أجل بالطبع، فآلتي تشارك في الإبداع، فهي ذات موهبة هي الأخرى، ماذا تعتقد؟! أنا أعرض عليها منظرا طبيعيا ملونا، وهي تشاهده، وتحبه، وعندما تعيد إنتاجه تجد فيه ألوانا شفافة تتخلل الأبيض والأسود. أفهمت؟

ـ لا، قال الرجل معاندا.

ـ ولكن هذا صحيح يا إميل! تدخلت زوجته. إن السيد المصور على حق! فهي تصنع ألوانا من الأبيض والأسود. أوه، يا سيدي المصور، لا تلق بالا إلى زوجي، فهو شاعر بعض الشيء!

#

برحيلهما، شرع مصطفى في ترتيب الأستوديو، بمساعدة إدريس الذي سعى إلى أن يكون مفيدا. وعمل مصطفى بعض الوقت في صمت، ثم عاد إلى الموضوع الذي تحدث فيه مسبقا مع إدريس.

ـ هكذا إذن، امرأة بيضاء قامت بتصويرك؟

ـ نعم، قال إدريس باحترام. كانت في عربة لاندروفر يقودها رجل.

ـ وهل أعجبتك الصورة؟

ـ لا أعرف عنها شيئا، فلم أرها بعد.

ـ وهل أنت ذاهب لباريس سعيا وراء امرأة، ووراء صورة؟

ـ هل تعتقد أني سأعثر عليها؟

ـ آه، من أجل ذلك، سوف تجد في باريس نساء وصورا! آه لو أنني كنت في عمرك! باريس مدينة النور! المدينة الصورة! فالنساء والصور بها بالملايين! بالتأكيد ستجد بينهن ضالتك، فالأمر سيان. والأكثر بداهة أنك ستكون أكثر سعادة!

كان وهو يتحدث قد أخذه الفضول للبحث، وراح يفتش عن الحواجب المغضنة في الأشياء التي يحتفظ بها في مؤخرة الدكان، إلى أن عثر أخيرا على ما يفتش عنه، ووضع مرآة عالية ونصبها في المكان الذي توجد به الكاميرا.

ـ هذا ليس من أجل صورة، فسر قائلا، إنها مجرد نظرة بسيطة.

وعلى نحو غامض، أدار الستار الخلفي الذي اختاره. وكان لباريس في المساء، في مشهد خيالي نجح فيه في الجمع بين برج إيفل ونجمة المولان روج! إضافة لنهر السين وكنيسة نوتردام.

ـ خذ، ضع هذا!

وأشعل ضوء كشاف.

ـ انظر! أنت في باريس، مدينة النور. أنت محظوظ، فكيف تجد ذلك؟

ولم يدر إدريس ماذا يقول. فما رآه كان ظلا خفيفا رماديا، يرتدي بنطلون جينز، وقميصا، وينتعل حذاء عسكريا، وعلى كتفيه عبارة موشاة، وفي الخلف منه كان يتلألأ مشهد أزرق فاقع مثير للمعالم المضاءة بشدة.

ـ لو أن لديك خمسة عشر دينارا، تهكم مصطفى، سأعرض عليك أن ألتقط لك صورة، حينها يمكنك العودة لبيتك، وتكون رحلتك قد تمت، كما سيكون ذلك أقل إرهاقا من عبور المتوسط. عموما لا بأس من إعطائك نصيحة عاقلة. وأنت لن تسمعني بطبيعة الحال، فالشباب لا يسمعون إلا لأنفسهم، لكنهم ربما كانوا في النهاية على حق.

وراح في أثناء حديثه يرتب المرآة والخلفية الباريسية.

ـ إذا شئت، أضاف، بوسعك النوم ليلتين على هذه الأريكة، وسوف تساعدني غدا قليلا، وبعد غد تستقل الحافلة إلى وهران ومعك دنانير عشرة سأعطيك إياها.

ولكونه وصل إلى موقف الحافلة قبل رحيلها بساعة كاملة، ذهل إدريس من عدد المسافرين الذين سبقوه. كانت هناك عائلات

بأكملها مصطحبة أطفالا صغار السن قضوا الليل على ما يبدو بجوار الحزم والطرود، وأقفاص البلح الطازج والدجاج الحي المحبوس في سلال من القش،

. وقرفص إدريس على كعبيه بجوار امرأة عجوز بدا أنها وحيدة مثله، كان ذقنها يرتفع ليصل إلى أنفها لخلو فمها من الأسنان، ما أضفى عليها مسحة صارمة وعدائية. وهكذا صار مسكينا بين مساكين، فللفقراء أقدار لا تنفد، وراح ينصت، صابرا، مشدوها.

كان طوق النجاة الذي يرتفع الحديث عنه في هذا الجمع هو وصول الحافلة في زمن قصير. وبالفعل رغم كل هؤلاء المنتظرين، جاءت الحافلة مليئة بالفعل؛ فمن أين جاء لصوص المقاعد هؤلاء الذين اضطجعوا على الكراسي وكدسوا الممر بحقائبهم؟ وتبعت ذلك عملية بطيئة وطويلة امتصت فيها الحافلة كل هؤلاء البشر المتواضعين المثابرين، إضافة لكونهم مربكين بالأمتعة الضخمة، والمفقودة. وعقب ذلك بربع ساعة، وجد كل راكب مكانا بالداخل، وعلا فوق سقف الحافلة هرم من الطرود والحقائب كاد يبلغ النجوم. وترجرجت الحافلة، وأضاءت كل إنارتها، ثم اتجهت مع صفرة عالية لنفيرها نحو ميدان سي قويدر الذي عبرته لتصل إلى طريق وجدة. وكان كل الرجال والنسوة والأطفال المكومين بالداخل يحاولون في البداية أن يستخدموا بأفضل شكل المكان الذي حصل عليه كل منهم.

فكانت هناك بعض الضحكات والاحتجاجات والتوافقات، وما إن سكن كل منهم في كوته، خيم الصمت على الجميع، فنام الكثيرون. ووجد إدريس نفسه بالقرب من نافذة، بجوار المرأة العجوز الهتماء، وكانت رقيقة وخفيفة وبلا أطفال، فصارت جارة جيدة إجمالا. لكنها قل أن يبدو عليها أي ميل للتواصل، لذا، فمن حين إلى آخر كان إدريس يدير وجهه عن النافذة المظلمة ويلقي نظرة عليها، لكنها لم تكن تتحرك بأكثر مما يفعل تمثال، بوجهها القاسي الملامح والصارم، وعينيها الشبيهتين بعيني ثعبان اللتين لا ترمشان أبدا.

ومع أول خيط من خيوط الفجر، وبزوغ شعاع شاحب للشمس، حدث بعض القلقلة داخل الحافلة، ففتحت المقاطف، واستيقظ الأطفال باكين، وأخرجت الرضاعات. وملأت الجو رائحة البرتقال المقشر، وراح إدريس ينظر من خلال الزجاج، الذي كان جزء منه كامد اللون، يتتابع من خلاله مشهد ريفي مقفر. وكانت الحافلة تطلق نفيرا لا يستمع إليه أحد في كل مرة تتخطى فيها راكب دراجة أو حمار. وعندما أدار رأسه صوب المرأة العجوز، فوجئ عندما رآها تقدم له بيدها اليسرى برتقالة، وهي تنظر إليه بعينيها الخالية من الرموش، بغير ابتسامة تضيء وجهها العظميّ. وتناول إدريس البرتقالة، وأخرج مطواته، وقشرها بتأن، ثم أخذ يعطي الفصوص للعجوز واحدا واحدا، كما لو أنه يقدم لها خدمة فقط. وقبلت هي

منه الفصين الأولين، ثم رفضت الباقي بحركة تعني أن هذه البرتقالة له هو.

بعد ساعة من ذلك، راحت الحافلة تسرع بجوار غابة من أشجار السنط، على بعد عدة كيلومترات من عين سفرة. ونزل المسافرون خارج الحافلة، وكونوا طوعا مجموعتين، النساء والأطفال في ناحية، والرجال والمراهقون في الناحية الأخرى. واقترب إدريس لا شعوريا من دائرة صغيرة كان أحدهم يتحدث فيها بحماسة وهو يضحك، وبدا أنه يراقبه.

ـ ها هو، قال مراهق في سنه، صاحب العجوز لالا راميريز!

وضحك الجميع أكثر. وضحك معهم إدريس وبدا عليه التساؤل.

ـ عليك أن تحذر، أتعرف، إنها منحوسة، هذا أقل ما يمكن قوله!

ـ كما إنها تنحس من يقتربون منها. لكنها تهتم بهم عقب موتهم.

ـ من هي لالا راميريز؟ سأل إدريس.

ـ إنها هذه الساحرة العجوز التي تعكف على رعايتها.

ـ ذات العين الشريرة!

ـ التي أعطتك البرتقالة.

وانتهى إدريس، عبر المزاح والتلميح، من استخلاص تاريخ المرأة العجوز، أولا بأنها شديدة الثراء، وتخفي ذلك بادعاء الفقر، ثم أنها كانت تنحدر من الجنوب ـ جنوب بلا نهاية ـ وأنها انفصلت عن مقاول وهراني من أصل إسباني أقام في بيشار، في أثناء بناء المدينة الجديدة، وأنها استقدمته إلى وهران كي تتزوجه زواجا مسيحيا، وأن هذين الزوجين اللذين أنجبا ستة أطفال، كانا يتنقلان دائما بين المدينتين، وهو التنقل الذي ظلت لالا تقوم به وحدها منذ عدة سنوات؛ فقد أصاب القدر السيئ هذه العائلة بوفاة الزوج، ثم بوفاة الأطفال الستة تباعا، وفي النهاية بوفاة طفلين ولدا حديثا عثر عليهما وسط الغابات المتحجرة.

كانت كلها حكايات مختلطة، تعج بالأمراض، والاغتيالات، والحوادث، والانتحارات، ولم تدع للعجوز سوى أن تتوسط تسعة قبور مبعثرة في عدد من المدافن. ولكي تزور هؤلاء الموتى كانت لا تتوقف عن التنقل، وصارت معروفة، مرهوبة الجانب في محطات الحافلات التي اعتادت ركوبها.

ـ لقد أحطناك علما الآن!

ـ لا يدهشني أن ظل معها.

ـ ولكن ألا يحرص هو على حياته؟

ـ أو أنه انجذب للموتى؟

ـ لا، لا، إنها عاطفة من جهة المرأة العجوز، وليس الفتى الشاب!

وأعلن السائق عن معاودة الرحيل ببوق الحافلة. وعاد إدريس لمقعده على يسار لالا راميريز، بعد أن صار يعرف من هي، كما إنها، ويا للغرابة! راحت تنظر إليه بمودة متزايدة. وفي ما كان الجميع يتشككون حيالهما، أخرجت من تحت مقعدها كيسا مستطيلا مغلفا بورق جرائد وقدمته في صمت إلى إدريس، وكان ما به عبارة عن شقة من الخبز بداخلها قطعة مرجيز. وتردد إدريس هنيهة، ثم قضمها بكامل أسنانه أمام نظرات العجوز الجامدة. فما الذي كانت تريد منه؟ فقد قدمت له برتقالة ثانية كما لو كانت تحية لفكه، ولم يكن بوسعه، عقب البرتقالة الأولى وشقة المرجيز أن يرفض. بعدها أراح رأسه على مسند كرسيه وراح يراقب تتابع المشهد الريفي؛ فلم تعد هناك صحراء، بل فقط باقات من الأكاسيا تتناثر على السهل، وراحت المزارع تتتابع بالحقول وحدائق الخضراوات. وأخذت الحافلة تبطئ وتتثنى في سيرها وهي تتخطى الجرارات والماكينات الزراعية، ثم عبرت سهلا مزروعا بالحبوب أدهشه مدى غناه. وأخيرا ظهرت أولى بنايات المساكن الشعبية بأطراف مدينة وهران مبرقشة بحبال الغسيل المنشور الملون الذي يجف على الشرفات. وأحيانا، كانت جماعات من الأطفال المزعجين في ألعابهم تتقافز في

صياح وهي تلاحق الحافلة. ومرت الحافلة بالمركز الإداري، ثم بالمسجد الجديد، كي تدلف من شارع معاطا محمد الحبيب إلى ميدان الأول من نوفمبر، ثم توقفت. وأدار إدريس رأسه نحو جارته، ونظرت هي إليه بدورها، وللمرة الأولى بدت الابتسامات على الشفاه، وتدافع الناس في جلبة شديدة نحو باب العربة. وفي أثناء خروجه لفحته برودة الجو، وكانت بانتظاره سماء رمادية تماما فوق مبان تعج أسطحها بهوائيات التلفزيون، التي بدت له عملاقة. أكان هذا هو الشمال؟ كانت هناك حفنة من الأطفال الشاحبين يلعبون وقد طيروا بالونة أمام واجهة مبقعة، وجاء صوت فرقعتها كأنه اللكمة. وبدا أن بالجو خشونة، وكآبة، وباعثا يجرح القلب ويحزنه. وأعطى السائق، الذي ركن بالمرآب، الطرود والحقائب للشباب الذين قاموا برصها على الرصيف. وكان لدى إدريس عنوان مأوى للمهاجرين مع توصية لأحد العاملين به. وتباطأ سيره مع هذا العرض الجديد لهذه المدينة الكبيرة، عندما أنصت إلى نفس خلف أذنه.

ـ إسماعيل، أحضر تاكسيا وخذني للمقبرة الإسبانية.

كان هذا صوت العجوز لالا، ومدت له يدها في الوقت نفسه بورقة من فئة الخمسين دينارا مطوية مرتين. وكانت سيارات التاكسي قد جذبها قدوم الحافلة وهي تتتابع في طابور منتظم. واندفع إدريس، الذي صار طيعا بفعل غرابة المكان نحو أقرب تاكسي،

وتبعته لالا. وأعطت هي العنوان للسائق: كنيسة القديس سان لويس. ولكن، لماذا دعته هي إسماعيل؟! وتوقف التاكسي أمام الكنيسة التي لم يعد يرتادها أحد من سنوات عديدة، لكن المقبرة الملحقة ظلت معتنى بها. وبدا أن لالا قد تحولت.

ـ هذه كنيسة الكاردينال سيمنس دي سيزروس، كبير محققي محاكم التفتيش تحت حكم شارل الخامس. ما زالت أسلحته تشاهد عند مدخل الجوقة، شرحت هي بنوع من الحذر المفاجئ، ومن ثم اقتادت إدريس بين النعوش الكنسية والأضرحة ذات الأقبية الباروكية التي أقامها اللحادون الإسبان. وتوقفت أمام نافورة من الرخام الأسود على قاعدتها اسم وصورة تم تأطيرهما بعناية بإطار مذهب: ١٩٤٠ ـ ١٩٥٧ إسماعيل راميريز. وانحنى إدريس فوق السلسلة الضخمة التي أحاطت بمثلث من الحصباء الرمادية كي يتأمل الوجه. كان غلاما صغيراً في عمره، أسمر البشرة مثله، يشي وجهه الدقيق الملامح بتعبير انتظار قلق، ورقة عذبة، وضعف واضح لا يمكن مقاومته بحال. أكان يشبهه فعلا؟ ولم يكن إدريس في حالة تسمح له بالحكم، وليست لديه إلا فكرة غامضة عن وجهه هو. لكن لالا بدت مقتنعة بيقين لا يتزعزع أنه هو إسماعيل. وراحت تطوف بنظرها طويلا على تطور المصاطب والقباب بالمدينة القديمة. وإلى البوابة على البعد، وإلى الروافع المحطمة نصفين، وأحواضها، وسفن الشحن بالمرسى التي اشتعلت أضواؤها في الغسق.

ـ إسماعيل، هو أنت، قالت لإدريس وهي تضع يدها على كتفه. أخيرا عثرت عليك. ستظل معي دائما. أنا وحيدة، ولكني غنية. سأتبناك. ومن الآن فصاعدا سيكون اسمك إسماعيل راميريز.

ونظر إليها إدريس وهو يهز رأسه في صمت. لكن العجوز تجاوزت عن رؤيته. وراحت تحدق في إحدى العمائر الغارقة في ضباب المساء.

ـ أترى هذا المنزل؟ تابعت وهي ترفع ذقنها نحو المدينة. إنه ملكي، به إحدى عشرة غرفة، وثلاث شرفات، وفناء تنمو فيه أشجار التين، ومطابخ بالدور الأرضي، وأيضا مصلى مسيحي. سوف أفتح كل هذا، وأنظفه، وأجدده، من أجلك يا إسماعيل، وسنحتفل بعودتك ونزف الخبر إلى كل موتى العائلة؛ فمن يدري، لعلهم يعودون هم أيضا؟

واستمر إدريس في الرفض بهز رأسه. وكان جنون المرأة وإصرارها على إدخاله عنوة في جلد الميت قد أخافاه وأصاباه بالغثيان. وفي لحظة، تخلص من اليد المعقوفة المثقلة على كتفه، وتراجع خطوة إلى الوراء.

ـ أنا لست إسماعيل. أنا إدريس، وسأرحل بعد غد للعمل في فرنسا. وربما أعود في ما بعد.. في ما بعد.

وسرح بذهنه في صورة المرأة في اللاندروفر. ولكنه تحاشى أن يتوهم، فصورة إسماعيل كافية لهذا اليوم. وأخذ يكرر وهو يتراجع كما لو كان يهدئ طفلا أو حيوانا جمح!

ـ في ما بعد.. ربما.. في ما بعد.

وخرج من المقبرة هاربا ليبحث عن المأوى الذي أعطوه عنوانه.

#

كانت العبارة تيباسا سترحل في اليوم التالي في الساعة العاشرة، لتصل إلى مرسيليا في اليوم الذي يليه في السادسة مساء. وكان لدى إدريس يوم بطوله، لكن كان عليه أن يمر لأخذ جواز سفره من المكتب الوطني الجزائري للأيدي العاملة. ووقف في الطابور مدة ساعتين كي يخبروه بعدها أنه بحاجة إلى صورتين شخصيتين من أجل ملفه. وأعلموه بأن هناك كابينة تصوير أوتوماتيكية تقوم بتصويره الصور اللازمة مقابل دينار واحد. وراح يبحث طويلا في الشوارع التي يجهلها عن الآلة التي يجهلها، وعثر عليها أخيرا أسفل بناية يبيع الخردواتية فيها أدوات المطبخ المرصوصة على حوامل. وكانت الكابينة المخربة تماما يشغلها غلامان تدافعا وهما يكشران أمام الكاميرا. وأخيرا رحلا، وأخذ إدريس مكانهما خلف الستارة. ولمع وميض الفلاش، وخرج ليبحث في الدرج الذي تقع فيه الصور، وكانت به صورة لأحد الغلامين

وهو يحول عينه ويخرج لسانه. وانتظر إدريس، وخرجت صورتان جديدتان لرجل ملتح. وراح يتأمل نفسه طويلا في مرآة مشروخة بالكابينة، ويتساءل لماذا لم تكن لحيته تنمو قبل مغادرته تابلبالا؟ والملتحون أيضا لهم الحق في الحصول على جواز سفر.

وتبقى له اكتشاف مهم يقوم به؛ فاتجه صوب البحر، وكانوا قد وصفوا له الشواطئ الرملية البيضاء التي تنهمر عليها الأمواج الصافية. وكان البحر يشبه كثبان الرمال التي يعرفها في تابلبالا، خاصة تلك التي تطلق تدفقها الذهبي في بني عباس. وأسرع الخطى، هابطا شارع رحماني خالد باتجاه الميناء حيث لمح بالفعل الصواري المطلية لقوارب التنزه. وكان الجزر في أقصاه قد كشف جانبا من الرصيف البحري الذي بدا أسود، مغطى بالرغوة الزلقة. وجلس إدريس على الحجر، واضعا قدميه على طرف المياه المحبحبة التي تطفو فوقها الأكياس والزجاجات البلاستيكية. وكانت اليخوت الأكثر قربا تطفو ثابتة فوق المياه المموجة. وعلى مبعدة، كان السطح البحري يمتد مرقشا بأوتاد المراكب المربوطة حتى السماء، التي كانت هي الأخرى رمادية، ورصاصية بحيث اختلطت بالأفق. ونزع إدريس عينيه من هذا المشهد الحزين والمخيب الآمال. وقد اكتشف في الوقت نفسه جارا جديدا لأرض مولده. وللمرة الأولى، فكر في تابلبالا باعتبارها كيانا محاطا ومتماسكا. نعم، فقد جعله الابتعاد أخيرا يجمع في ذاكرته بين أمه وقطيعه، وبيته وحديقة النخيل، وميدان

السوق الذي تقف فيه حافلة صلاح إبراهيم، ووجوه إخوته، وأبناء عمومته. وتوقفت شهقة جافة في حلقه، وشعر بالضياع، والإهمال، وبأنه مبعد، أمام هذه المياه الرمادية الغائمة الشبيهة بما وراء الأفق. "إسماعيل راميريز"، نطق بصوت خافت. فهل لم تدع له العجوز لالا، حارسة الموتى، مكانا في مدينة الموتى هذه؟ لسوف يرحل غدا في العبارة الكبيرة لجهة غامضة؛ فهل ذلك للهرب من الحياة أو للولوج إلى اللا متناهي؟ ومرر إصبعه السبابة على ياقة قميصه وجذبها فوق خيط السلسلة. وظهرت نقطة الذهب ساخنة وناعمة، فحركها أمام عينيه، وهزها أمام الخلفية الرصاصية للبحر. وعادت به ذاكرته للأغنية الغامضة للست زبيدة:

فرس النبي يرفرف على الماء

والجرادة تزن على الحجر

فرس النبي يهجى حيلة الموت

والجرادة تكتب سر الحياة

وتكسرت موجة على الرصيف ولطخته من رأسه لقدميه، فوضع يده على فمه، ولم يخطئ بشأن ذلك على الأقل. وكانت المياه مالحة، مالحة، غير قابلة للشرب، وعقيم.

#

كان عرض الدراجات النارية، والسيارات، وعربات النقل الثقيل الذي يتوغل في البطن الفاغر للعبارة يجذب دائما الجمهور نفسه من العاطلين والمراهقين، خصوصا تلك المقطورات الصغيرة، بطولها وصعوبة تحركها للخلف كي تتمكن من مناورتها الشاقة. لكن حوض العبارة بدا معدا لذلك بكفاءة لا متناهية. وفي ما بين عربات النقل الثقيل اتخذت سيارات السائحين، وسيارات الدفع الرباعي المشابهة لسيارة المرأة البيضاء مكانها. وراح المتسكعون يضحكون إشفاقا وعطفا عندما أخذت عربة صغيرة "دوشيفو" تقرقع وتتقافز بنشاط لتجد مكانا بين تلك الناقلات الضخمة. ولم يعاود السائقون والمسافرون بالسيارات الظهور ثانية خارجا، بل طلعوا إلى سطح المركب عبر السلالم الصاعدة من المرآب. وأخيرا، جرى استقبال طابور المسافرين على العبارة. وكان على كل فرد أن يمسك بيده تذكرته وجواز سفره، مفتوحا على الصفحة التي بها صورته. ولم يلاحظ المندوب عدم الشبه الغريب بين إدريس وبين الملتحي الذي كان واضحا بالصورة في جواز السفر. وألقى إدريس نظرة خاطفة على صفوف المقاعد التي تؤثث مرقد الدرجة الاقتصادية، وعبر مع المسافرين الآخرين قاعة الصلاة، ومطعم "الخدمة الذاتية"، لكي يصلوا إلى الطرف الخلفي الذي يشرف على الرصيف. وكان هناك جمهور متزاحم يصيح، وكانت العائلات التي على الشاطئ تقوم بإشارات واضحة، وتطلق النداءات إلى "مسافريها" بغير أمل في أن

يسمعوها، فكانت أشبه بشبكة اتصالات غريبة تحاول عبثا أن تنعقد بين من هم على الرصيف ومن هم فوق العبارة. وفجأة، بدأت أرضية الجسر في الاهتزاز، وغلى الماء خلف المركب. وجاءت لحظة مغادرة إدريس للقارة الإفريقية للمرة الأولى. ثم فجأة أيضا، ناجاه صوت مراهق ذو وجه أملس رقيق يعكس نوعا من الاندفاع المرح:

ـ أنا أرى جيدا أنه لا يوجد أحد يودعك على الرصيف مثلي أنا. لا أحد. أجل، فنحن نسافر وحيدين! إنها المغادرة الفعلية، هكذا. لا مناديل ولا أيدي ملوحة. لا شيء.

وقاطعته صيحة نفير هائلة، تسببت في طيران جمع من النوارس أعلى الميناء. واختفت تيباسا ببطء عن الرصيف.

ـ انظر إلى الرصيف الذي نغادره! تابع المراهق بمزيد من الإثارة. هكذا أحب أنا إفريقيا، عندما أراها تبتعد خلف المركب. اللعنة على إفريقيا! عامان كاملان من الخدمة العسكرية! عامان من المعاناة في تكسير الزلط بالصحراء! أنا أتفهم مهنتي باعتباري صائغا. منذ خمسة أجيال تخصصنا أبا عن جد في صياغة الأقراط. انظر إلى يدي، إنها أيدي صائغ، وليست أيدي مكسر زلط. اللعنة على إفريقيا! إلى أين أنت ذاهب؟

ـ أنا؟ إلى مرسيليا أولا، وبعد ذلك أرجو السفر لباريس حيث ابن عمي هناك.

ـ مرسيليا، باريس، ليستا بعيدتين للغاية عن زلط الصحراء. حدثني عن بروكسل، عن أمستردام، عن لندن، عن أستوكهولم. أنا صائغ، أتسمعني؟

وصمت. وخيم الصمت علي الجسر. وراح الجميع ينظرون إلى مدينة وهران وهي تتباعد. المرسى، والسفن الشراعية، وطوافة عملاقة حمراء وخضراء، تشبه أرجوحة طفل عملاق، تتراقص على بطنها، وعلى البعد، التل الذي يشرف على المدينة. كان هذا هو جبل مرجابو، وقد علته قلعة إسبانية، يرفرف فوقها علم الجيش الجزائري.

وولج إدريس مع بعض الآخرين إلى المتاهات الداخلية للعبارة، والممرات، والسلالم، والأروقة، والحانات. كانت العبارة مدينة صغيرة عائمة لا تتوقف فيها الماكينات عن الإرعاد. وقد تجمعت العائلات واحتلت ركنا من الصالة، حيث اصطفت المقاعد، بأكداسها وحقائبها. وكان بعضها مفكوكا بالفعل للتزود بالمؤونة. وتدخل نادل من العاملين بالعبارة بالقوة لكي يطفئ موقد غاز صغيرا شرعت إحدى النسوة في الطبخ عليه. ورغم أن الوقت كان ما زال مبكرا، تجمع سائقو النقل الثقيل في البار حول منضدة صاخبة ومرحة حيث شرع البعض منهم في تناول الشراب. وقد تحقق انقسام

المسافرين بالفعل، بين من معهم نقود ينفقونها ومن ليس معهم نقـود. فكان ركاب الفئة العليا، أي مـسافرو الـدرجات الأولـى بالكبـائن المستقلة والنوافذ قد خصصت لهـم قاعـة الطعـام ذات المناضـد المفروشة بالمفارش البيضاء، وهم ينامون بغير أن يراهم أو يـصل إليهم أحد، محصنون خلف الأبواب الزجاجية وراء الحاجز الأمـامي لمقدم السفينة.

ودلت اهتزازة خفيفة للغاية على أن العبارة دخلت في عرض البحر، وعندها علا صوت المؤذن مـن مكبـرات الـصوت يـدعو المؤمنين للتجمع في الصالة التي فرشت بالسجاد لصلاة العصر. ولم يكن إدريس يهتم بالممارسات الدينية، كغالبية شـباب جيلـه، فـراح يراقب من بعيد ركوع وسجود جمهور الورعين. ولمـا انـصرفوا، دهش عندما شاهد الفتى الصائغ قادما نحوه.

ـ ألا تحترم وصايا الإسلام؟ سأله.

ـ ليست كلها، أجاب بخفة.

ـ أتمنى أن تعود إلى احترامها؛ فهناك، حيث نحن ذاهبـون، يعد الإيمان ضرورة بأكثر مما هو عندنا؛ فسوف تجد نفسك محاطـا بالأجانب، واللا مبالين، والأعداء. وفي مواجهة اليأس والبؤس، ربما لن يكون لديك سوى القرآن والجامع.

ـ ولكن، ألم تلعن وطنك منذ قليل؟!

وصمت الصائغ وهو ينظر إلى الامتداد المتقلب للبحر.

ـ المأساة، كما ترى، أن كثيرين من بيننا ليس بوسعهم الحياة لا في وطنهم، ولا في الخارج.

ـ إذن، فماذا يتبقى لهم؟

ـ التعاسة.

ـ كان بوسعي أنا البقاء في تابلبالا؛ ففي تابلبالا ليس لدينا شيء، ولكن لا ينقصنا شيء. هكذا تكون الواحة.

ـ إذن لماذا رحلت؟

ـ من أجل الرحيل، فعندنا يختلط العنصران أحيانا في العائلة نفسها، أي هؤلاء الذين يظلون في مسقط رأسهم، وهؤلاء الذين عليهم الرحيل. وأنا من النوع الثاني. علي أن أرحل، كما إنني تم تصويري أيضا بواسطة امرأة بيضاء، ثم عادت لفرنسا ومعها صورتي.

ـ أنت راحل إذن بحثا عن صورتك؟!

نظر له الصائغ بعين متهكمة.

ـ بحثا عن صورتي؟ لا، ليس بالضبط. فهناك شـــيء آخـــر، ربما يجب القول إنني ذاهب لألاحق صورتي...

ـ أوه! ربما كنت مفكرا كبيرا؛ فأنت صورتك فـــي فرنـــسا، وهي تجذبك كأنها مغناطيس.

ـ ليس فقط لفرنسا؛ فهذه الصورة وجدتها بالفعل فـــي بنـــي عباس، وبيشار، ثم في وهران.

ـ هل تعثر في طريقك على قطع منها ثم تعيد بناءها؟

ـ نعم إذا شئت. فقط إلى حد الآن أجد أن القطع التي عثـــرت عليها لا تشبهني. خذ، انظر لهذه على سبيل المثال.

وعرض عليه جواز سفره مفتوحا على صفحة الملتحي. ونظر إليها الصائغ بهيئة المهتم.

ـ أنت مهدد بأن تلاقي مشكلات. وربما عليك أن تطلق لحيتك.

ـ هذا سيكون أسوأ، فليست لدي لحية تقريبا. ومع ذلك، ليس علي أنا أن أشبه صورتي، بل صورتي هي التي عليها أن تـــشبهني، أليس كذلك؟

ـ أنت تعتقد بذلك، ولكن إلى الآن تثبت لك الخبرة العكـــس. فالصورة مدربة بقوة شريرة، وهي ليست الخادم المخلص، والأمـــين

الذي تريده. إنها تتخذ مظهر الخادم، لكنها في الواقع ماكرة ذات وجهين، وكاذبة وقهرية؛ فهي تسعى بكل سوئها لتحويلك إلى عبد، وهذا أيضا موجود في العقيدة.

أنصت إدريس بغير أن يفهم، مع أن المغامرات المزعجة التي خاضها منذ لقائه المرأة البيضاء قد أوضحت على نحو غريب قصده للصائغ.

عند الظهيرة، اصطحبه الصائغ إلى مطعم الخدمة الذاتية، ووجد إدريس نفسه موزعا بين جوعه وإصرار الشاب على دعوته بهذا الاحتضان المقلق إلى حد ما. وجلسا على الطاولة نفسها التي جلس إليها سائق إحدى الشاحنات، وكان عملاقا أبيض ذا عينين خزفيتين زرقاوين وذراعين طويلتين مرقشتين بالوشوم المبتذلة. وتخاصم السائق وهذان الشابان المغربيان، ثم شرع بإصرار في دعوتهما إلى شرب النبيذ الأحمر. وباراه الصائغ بحمية، وأدهش إدريس وهو يجرع مع السائق كأسا بكأس، رغم تحريم العقيدة الإسلامية! وأمام سخريات السائق أخذ يضحك، ويرد عليها بسخريات أخرى، ولإشراك إدريس في هذا الحوار الذي كان يدور بالفرنسية راح يتحدث معه بالبربرية. وكانت ازدواجية الصائغ هذه مرغوبة من قبل إدريس، الذي سأل نفسه ما إذا صار بوسعه يوما أن يصل إلى هذه الدرجة من التعود على الفرنسيين. وعرض السائق عليهما

القهوة، ثم انسحب لكابينته بالدرجة الثانية لقيلولة مرجوة، لإرهاقه بعد عشر ساعات من القيادة الليلية على الطريق الساحلي المغربي.

وهبط الليل فسرت شائعة بين المسافرين، جذبتهم إلى السطح وإلى الممرات اليسرى للسفينة، فقد حاذى المركب ساحل إيبيزا، حيث شرعت بعض الأضواء في اللمعان. وصار الوقت ليلا تقريبا بعد ذلك، عندما شوهدت على يمين السفينة أضواء مايوركا، أكبر جزر الباليار. وعقب ذلك توغل المركب في بحر الظلمات الغامضة.

ونام إدريس على مقعد مقعر يزداد تجويفه أكثر فأكثر، وأيقظته تأوهات امرأة جالسة ليس بعيدا عنه. كانت رأسها تتأرجح يمينا ويسارا، وعلى شفتيها رغوة مزبدة. وأخيرا قامت مستيقظة، وسارت خطوتين ثم تهاوت على الأرض، وهنا ركعت على قوائمها الأربعة، وشرعت في التقيؤ مع حالة من الفواق الشديد الصاخب.

ـ هذه المرأة أصابها دوار البحر وليس لديها أي احتشام كأنها في حالة وضع.

كان ذلك هو الصائغ، وخلفه السائق يترنحان وهما يضحكان. وكان الصائغ يتحدث بالفرنسية مراعاة للسائق.

ـ تلك الكابينة دون نافذة، هذا لا يعقل! قال السائق. نحن محبوسون داخلها كأننا في نعش. لذا سأترك الأطفال ينامون في فرشتي، ويمكنك الذهاب إلى هناك، أما أنا فأفضل النوم على المقعد.

ـ أتأتي؟ قال الصائغ.

وقام إدريس في التو.

ـ بوسعكما أيضا أن تتحمما! صاح السائق أيضا.

والواقع أنه في هذه الساعة من الليل، كان للكابينة مظهر قبروي؛ فلا توجد بها فتحة على الخارج.

كانت قد نصب فيها هيكلان لسريرين معدنيين بدورين مثبتين لقواطع من الصلب. ووجدا فيهما ثلاثة من النائمين غارقين في النعاس. وركن صغير لدوش الاستحمام. وفوق كل هذا قنديل ليلي يصدر ضوءا أزرق شاحبا، في جو رطب ومرتج. وانغلق الباب بعنف على المراهقين، وترددا هنيهة، ثم شرع الصائغ بخلع ملابسه. واتجه عاريا إلى الحمام، وقلده إدريس. ولكي يستوعب الحمام شخصين، كان لا بد من أن يلتصقا الواحد بالآخر. وكان هذا هو حالهما في الفراش الوحيد الخالي الذي كان بانتظارهما، والذي كان رطبا بدوره. وبفعل الراحة التي شعر بها عندما اقترب من صاحبه، أدرك إدريس معنى الوحدة القاسية التي عاناها جسدا وروحا منذ أن ودع عائلته؛ فالحنان الأمومي وعواطف المحبين ليست سوى مظاهر خاصة للحاجة المضطربة للاتصال الجسدي التي تجتاح صميم الجسد والقلب. وبينما كانت عيناه مغلقتين تهددهما الزمجرة العارمة

للماكينات، فكر في تلك الفيئة تحت الأرضية لصديقه إبراهيم، الذي اختفى في قاع بئر حاس الهورا. وغرق في النعاس، عندما انزاح الصائغ، واستند إلى كوعه، فظهرت في حزمة الضوء الضعيف للمصباح نقطة ذهب إدريس.

ـ ما هذه؟

ـ إنها تميمتي الصحراوية.

ـ لكنها من الذهب!

ـ ربما.

وأدار الصائغ الدائرة المستطيلة في الضوء وهو يفرك رموشه.

ـ إن من أعطاها لك لم يكن يضحك عليك.

ـ لم يعطها لي أحد.

ـ بولا أوريا.

ـ ماذا؟

ـ إنه تعبير لا تيني، بولا أوريا، أي قطرة الذهب، وكل صائغ يعرف هذا. إنها رمز روماني، وأيضا إتروسك، ما زال يستخدم حتى

اليوم لدى بعض القبائل الصحراوية. وكان الأطفال الرومان المولودون أحرارا يضعون قطرة الذهب هذه معلقة في رقبتهم بسلسلة، إثباتا لوضعهم. وعندما يبدلون ثوب النبالة مقابل ثوب الرجولة الروماني، يتخلصون من نقطة الذهب بإهدائها للآلهة المحلية.

ــ كم أنت مثقف!

ــ الصياغة ليست مجرد عمل حرفي، إنها أيضا ثقافة تقليدية. وبوسعي أن أحدثك كذلك عن الأبازيم، والدروع، وخواتم سليمان، وكفوف فاطمة، أضاف وهو يعاود الاضطجاع على ظهره.

ــ إذن، ماذ تعني قطرة الذهب خاصتي؟

ــ تعني أنك طفل حر.

ــ وماذا بعد؟

ــ بعد ذلك ستصبح رجلا، وحينئذ سترى بوضوح ماذا سيحدث لقطرة ذهبك، ولك أيضا.

#

في اليوم التالي، وعند الظهر تقريبا، ذرعت المركب صيحة جمعت المسافرين في قاعة الطعام: كان التلفزيون يتلقى إرسالا! في ثلاثة أجهزة استقبال، وكانت الصورة تتأرجح مختفية ومعاودة

الظهور في ومضات خاطفة. كانت الصورة الأولى مرسلة مباشرة من فرنسا! وقد تحلق حولها جمع من المهاجرين القلقين والمنتبهين، بوجوههم النحيفة، وأعينهم الكابية، بانتظار رسالتهم الأولى من الأرض الموعودة. وكانت الشاشة المضطربة تنطفئ وتضيء بمنظر طبيعي، وبصورة ظلية، لوجه يموج ثم يستقر. وظهر زوجان؛ يسيران في مرح. كانا صغيرين جميلين، عاشقين، يبتسمان. وطفلان متألقان يهرعان صوبهما وهما يشقان طريقا من العشب والزهور، ثم عناق طويل وسعادة. وفجأة تحركت الصورة، فظهر رجل وقور بعوينات نظر شفافة، يحمل في يده بارتفاع وجهه عقدا للتأمين على الحياة. بعدها ظهر بيت ريفي جميل، أمامه حوض للسباحة، وعائلة كاملة تتناول إفطارها وهي تضحك. السعادة. وكانت هذه المرة بفضل مسحوق للغسيل. والشمس. ثم أمطرت، وكانت إحداهن تسير برشاقة محتمية بمظلتها، لتمر أمام واجهة محل، فتصبح أنيقة وهي تبتسم، فتلتمع أسنانها! السعادة. لا بد من استخدام معجون "الأسنان اللامعة". وأظلمت الشاشة الصغيرة، ولم تعد تعرض شيئا، ونظر رجال ونساء الدرجة الاقتصادية إلى بعضهم بعضا. أهذه إذن فرنسا؟ وبدأوا يتبادلون انطباعاتهم. لكن الجميع عاد للصمت، فقد عاودت الصورة الظهور. وراح صوت يشرح، أمام طلاب يتظاهرون بالحي اللاتيني، وراحت قوات الأمن تستخدم ضدهم قنابل الغاز المسيل للدموع. وأخذ رجال البوليس بالخوذات والأقنعة مرتدين الدروع ذات

الزجاج الواقي يتجمعون كالفرسان اليابانيين من القرون الوسطى، والطلاب يقذفونهم بالحجارة ثم يتبعثرون جريا، بينما تقرقع البنادق خلفهم. وظهر على نحو مقرب وجه غارق في الدماء لفتاة صغيرة جدا. وأظلمت الشاشة من جديد.

بعد ساعتين، لاحت سواحل فرنسا. وبدأت العائلات في تجميع الأطفال والحقائب، ووجد إدريس نفسه مستندا إلى درابزين السفينة بجوار الصائغ لرؤية قصر إف. وبالطبع، من أجل خدمة سواح الدرجة الأولى، أعلنت مكبرات الصوت أنه في هذه القلعة، تم سجن قناع الحديد الذي ربما كان هو الأخ التوأم للويس الرابع عشر، وكذلك الكونت دي مونت كريستو، الشخصية الشهيرة لألكسندر دوماس. وتلقى جمهور المغاربة هذه المعلومات بكل الاحترام وعدم الفهم.

ــ سأذهب للعمل في باريس بورشة غير قانونية للمجوهرات، قال الصائغ. وسوف يقلني إتيين السائق في شاحنته، ولا أدري متى سنرى بعضنا ثانية. وأريد فقط أن أقول لك شيئا، صائغ معناها: سباك الذهب. ولكن منذ زمن طويل كف الصياغ عن العمل بالذهب، ولم يعودوا يعملون بسوى الفضة. لماذا؟ لأن الغالبية العظمى منا ترفض اليوم العمل في الذهب. والحقيقة أنهم لا يعرفون التقنية الخاصة بهذا المعدن. كما إن هناك شيئا آخر؛ فنحن نعتقد أن الذهب يجلب سوء الطالع، أما الفضة، فهي نقية، صريحة وأمينة. والذهب

ثمين للغاية، يثير الطمع، ويحرض على السرقة، والعنف، والجريمة. وأقول هذا لك لأني أراك ذاهبا للمغامرة مع قطرة الذهب. إنها رمز للحرية، ولكن معدنها صار مشؤوما. فليكن الله حارسك.

وبالفعل، تاه إدريس عن نظر الصائغ في الجمهرة التي تزاحمت أمام نوافذ الجمركيين. وبالمقارنة مع العائلات المحملة بالأطفال والحقائب، بدت حالته بسيطة للغاية بالنسبة إلى المفتشين؛ فرغم صورة جواز سفره، وجد نفسه أحد الأوائل على رصيف المحطة البحرية.

لقد أصبح إذن في فرنسا، وضرب الأرض بقدميه ليثبت تماسكهما. وفتح عينيه ليستوعب الاختلافات البديهية التي استنتجها بين مرسيليا ووهران. فما الذي رآه؟ .. المزيد من الزحام، والمزيد من الألوان، وحيوية أكثر، وروحا منفتحة عن تلك التي في وهران؛ فقد كانت مرسيليا مدينة جنوبية، ووهران مدينة شمالية. لكنه كان محبطا عموما لشعوره أنه إلى حد ما ليس في وطنه وأنه على الضفة الأخرى من المتوسط. وازداد إحباطه بعد ذلك بقليل، عندما وقعت عيناه على إعلان كبير يزخرف واجهة بناية مكاتب تأجير العبارات:

بسيارتك

اذهب لقضاء أعياد رأس السنة

في فردوس واحة صحراوية!

ونظر إدريس مذهولا إلى الصورة المعروضة لواحة صحراوية. وكانت عبارة عن مشهد أجمة من النخيل والزهور الكثيفة، تحيط بحوض سباحة على شكل حبة الفاصولياء، وفتيات بيضاوات في أثواب سباحة بيكينية، يتغنجن حول حمام تركي، ويمتصصن الشراب من مصاصات معقودة في كؤوس طويلة، وغزالتين مدجنتين تحنيان رأسيهما الرشيقين باتجاه سلة واسعة مليئة بالبرتقال، والليمون الحلو، والأناناس. أهذه واحة صحراوية؟! أليست تابلبالا واحة صحراوية؟! وهو، إدريس، ألم يكن تعبيرا نقيا عنها؟ بل، ألم يكن هناك مجهول تسلل حتى جواز سفره؟ ولم يجد نفسه في هذه الصورة الحلم، بل في صورة الحمار لصلاح ابراهيم. وارتعد في برد المساء الذي بدا أنه حل أسرع من مساء إفريقيا. وكان في جيبه منديل مدعوك، وصفحة مقطوعة من مفكرة أحد الموزاب بها عنوان فندق، وكلمة توصية: فندق راديو، ١٠ شارع بارمنتييه. وسأل أحد المارة، فأشار إليه بعدم معرفته وهو يقول إن عليه أن يذهب لميدان جول جيد، وهناك سيدلونه بالقطع. ومضى في شارع باريس، المزدحم بشاحنات النقل الثقيل القادمة من محطة أرنك. وبدا ميدان جول جيد مقفرا كأنما بفعل قصف حدث توا. وكانت الساحة الخالية محاطة بعوارض حائطية تحيط نوعا من قوس النصر. وما إن عبر هذا الجزء الخالي حتى وجد إدريس نفسه كأنه في إفريقيا

عند دخوله شارع برنار دوبوا. فلم يكن به إلا حمامات، ومكتبات إسلامية، ومحلات أثاث شمال إفريقي، ومطاعم صغيرة يطل من أبوابها خراف وترشح دهنا على أسافين كهربائية. وكان ممر تانكري دي مارتيل، المبني بدرجات سلالم، محتلا بواسطة قراء طالع، وكتبة عموميين يبيعون المصاحف وكتب التقوى. كما لم يكن الحي بكامله سوى شبكة من الأزقة ـ شارع بتيت ماري، المغطس، السجاد الأخضر، لونج دي كابوسين ـ تفوح منها روائح الكاري، والبخور، والبول. إلى أن توصل إلى العثور على شارع بارمنتييه وفندق راديو. ورغم أن الوقت كان ما يزال مبكرا، فكان عليه أن يطرق طويلا لينفتح الباب. وأدخله صاحب الفندق، يوسف بغباغا متشككا. وكان الفندق مكتمل الزبائن، ولم يعد يستقبل المزيد، ومع ذلك قرأ توصية التاجر الموزابي وبدا في التو أكثر ترحيبا. لا تزال هناك غرفة خالية، ولكن نحن نقبض مقدما عشرة فرنكات لليلة، والفندق يغلق أبوابه في الحادية عشرة مساء.

كان السرير كبيرا ونظيفا، لكن النافذة تطل على فناء مظلم، إلى حد أن المصباح المتدلي من السقف والمزخرف والمعلق أسفل طبق مزخرف من الزجاج المنقوش يظل مضيئا ليلا ونهارا. وتمدد إدريس على غطاء السرير، وما لبث أن نام في التو. وأتى موعد بزوغ النهار في تابلبالا، وكان عليه أن يستيقظ وأن يجمع قطيعه،

لكنه تكاسل بتلذذ متجنبا أن يفتح عينيه، وسمع أمه تـروح وتجـيء وهي تعد البيتا، حساء الصباح بالردة والفلفل والبصل. وكانت إحدى النعاج داخل السور تثغو بإلحاح غريب. ترى أهي جريحة؟ لا بد إذن من الذهاب لرؤيتها. ودهش إدريس لأن أمه التي كانت بالقطع تسمع صرخات الحيوان لم تأت لتسحبها إلى الآن مـن قـدميها. واسـتمر الثغاء المحزن، هيا استيقظ! وارتج إدريس، فلم يكـن فـي تابلبـالا، المباركة بشروق الشمس. ووجد نفسه في غرفة لا يعرفها، بمدينة لا يعرفها، ببلد لا يعرفه. وطفرت من حلقه شهقة قلق.. أيعود أدراجـه ويعكس رحلته الطويلة التي ألقت به أخيـرا علـى هـذا الـسرير! وعندها، سمع ثغاء نعاج آت من الفناء. في هذا الشأن على الأقل لـم يكن حلمه يخطئ. وشعر فجأة بالراحة لهذا الحضور الأليف. فقد كان هناك خروف حي تحت نافذته، لعله سينحر فـي نهايـة الأسـبوع! ونهض، ونزل السلم، وخرج من الفندق. كـان المـساء قـد حـل، والشارع المظلم نهارا أنار كل فتارينه بلافتات وإعلانـات مـضيئة. وكان شارع بارمنتييه يفضي إلى شارع كونفالسنت، الـذي يفـضي بدوره إلى شارع أثينا. وهنا كان العيد؛ خيام متنقلة، وألعاب رمايـة، ويانصيب، وألعاب تصويب على الدمى تزحم الرصيف. وقد فتحـت المقاهي أبوابها كمغارات مذهبة، اتسعت بفعـل المرايـا الـضخمة، وظهر في أعماقها اللمعان الأخضر لموائد البليـاردو التـي شـمر

الرجال حولها أكمامهم. وفي أعلى صالة مدخل إحدى دور السينما، تعانق رجل وامرأة ضخمان في ظل القاعدة الفنية: المرأة في الأسفل والرجل يعلوها، في نظرات مأساوية، وأفواه متلاحمة. لكن إدريس كان ميتا من الجوع، واستوقفته لافتات مضاءة لأحد أفرع ماكدونالدز: برجر بالجبن، شرائح سمك، بيج ماك، شوسون بالتفاح، شيكس بالطعوم الثلاثة. وكان هذا جميعه غاليا جدا بالنسبة إليه، لكنه شعر بالبؤس الشديد لمقاومته، فالتبذير هو التنعم الوحيد لدى الفقراء. وأمتع نفسه بوجبة فريدة لكي يهدئ من روعه، ويحتفل بمقدمه إلى فرنسا، وأيضا، ببساطة لأنه كان جائعا.

كانوا قد أعلموه أنه في ما وراء البحر، سوف يدخل بلاد البرد والضباب. وعند خروجه من ماكدونالدز كانت السماء تمطر مطرا خفيفا، وكان هناك سنغاليون يتزينون بمجوهرات زائفة، ومغاربة يحملون أكداسا من السجاد على أكتافهم، ونسوة محجبات يسرن في خطوات متمايلة، بسيقان عارية في صنادلهن، يحافظن على الجو الإفريقي رغم المطر.

ومنجذبا للجو المجاور للأزقة، سلك إدريس شارع ثوبانو. وكن هناك واقفات بلا اكتراث، مستندات إلى باب فندق مريب، فتيات غانيات، سوداوات كالليل، ومطقمات كخيول السيرك، ينظرن إليه وهو سائر وهن يسحبن أنفاسا عميقة من سجائرهن. وكان هو ينظر

إليهن بالكاد. وخرج فجأة من أحد المقاهي الصاخبة والمليئة بالدخان رجل مخمور، فجذبه من ذراعــه، وأراد ســحبه للــداخل. وابتعــد إدريس، ولم يتوقف إلا عندما لمح فتاة مختلفة تماما عن الأخريــات، كانت تعدل من تبرجها أمام مرآة محل للملابــس الجــاهزة. كانــت بيضاء ذات شعر منسدل. وكانت تــشبه امــرأة اللانــدروفر رغــم تنورتها القصيرة، وحذائها الأسود ذي الرقبة الطويلــة، وجواربهــا المطاطية التي تقولب فخذيها الضخمتين. ولمحتــه علــى الزجــاج، فتراجعت ونادته:

ــ أنت هناك، يا صغيري! أتحب البيضاوات إذن! لا تخــف. اقترب قليلا.

واقترب إدريس.

ــ أوه! لا، لا، إنه صغير، صغير جدا! وأراهن على أنه غادر البلاد توا. إذن ياصغيري، ما تزال رائحة رمل الصحراء تفوح منك!

وانبهر إدريس بالأكتاف العارية السمينة للفتاة. كانــت امــرأة اللاندروفر ترتدي قميصا يضفي عليها مظهرا عضليا مبهما. ورفــع يدا خجولا ليتحسس هذا الجسد الأبيض الناصع المعطر.

ــ أوه! لا، إلا الأفخاذ يا صغيري! لأنك ستكون مــن النــوع المفلس، وهذا لا يدهشني. أرني أولا محفظتك.

وأنزل إدريس ذراعه بغير أن يفهم.

ـــ ماذا بعد؟! أوراقك، اللعنة!

وفهم هذه المرة، كان هذا إيعازا واضحا. وبانقياد، أخرج حافظته وأعطاها للمرأة. فألقت عليها نظرة قصيرة ثم أعادتها له.

ـــ هذا تماما ما تصورته، لا شيء تقريبا. ولكن اسمع، لديك شيىء لا بأس به حول رقبتك! أرني إياه قليلا.

كانت قد لمحت نقطة الذهب في رقبة إدريس. ورغم قيامه بحركة دفاعية، أمسكت هي العقد برشاقة قردة، ورفعته نحو الضوء.

ـــ عجبا، هذا جميل! يمكن القول إنه من الذهب الخالص. أريد أن أعرف من أين سرقته؟ أنت.

ووضعت العقد حول رقبتها، ولكي تعاين شكله عليها، استدارت نحو زجاج الواجهة. ثم، وعلى ضوء انعكاس بدا في المرآة، فتحت حقيبتها وراحت تتبرج. ولمحها إدريس تسحق على شفتيها إصبع أحمر شفاه بنفسجية. ثم أطبقت شفتيها بعرض فمها كي تسوي اللون. وشرعت في تمرير فرشاة سوداء صغيرة تحت رمشيها الصناعيين. وبينما كانت تبودر خديها، تذكر إدريس أمه جالسة أمام كوكا العجوز، وكانت هذه ترسم بالزعفران رموزا تقليدية، باستعمال فرشاة من الصوف، على وجه الأم، وقد تلاشت الصبغة الصفراء

على الجلد الغامق، وظهر على الجبهة خطان أفقيان عريضان موازيان للرموش، وعلامتان أسفل الأنف، وخط سميك رأسي يبدأ من منتصف الشفة السفلى وينزل حتى أسفل الذقن، وأهم من ذلك، تحت كل من عينيها الاثنتين، بقعة استطالت إلى الأسفل بثلاث أسنان عمودية تشبه أثر الدمعات الكبيرة. وكان ذلك بالفعل تبرج المرأة المتزوجة في تابلبالا. فلم يكن الأمر يتطلب، كما هو الحال هنا، نقش الشفاه المنتفخة الدامية، أو السواد الكربوني لمحاجر العين، ولكن لوضع الرموز المقروءة من الكل وإقامة تقليد عريق.

ـ حسنا، كيف تراني؟ أأعجبك؟

استدارت الفتاة نصف دورة، ونظرت إلى إدريس. ومد يده نحو عنقها ليستعيد نقطة الذهب. وأبعدت الفتاة هذه اليد الخجول، ثم وهي تبتسم، رفعت قميصها وكشفت له عن ثدييها. وارتفعت يد إدريس، وامتدت نحو كتلة هذا الجسد اللحيم. وكفت الفتاة عن الابتسام. وأغلقت قميصها المكشوف بحركة مفاجئة، ثم اقتادت إدريس نحو سلم بناية تقع على الجهة الأخرى من الشارع.

وعندما طرق إدريس باب فندق راديو، كانت الساعة المحددة قد مرت منذ وقت طويل. فقضى ليلته مقرفصا على دكة بفناء بلزونس.

يتحرك القطار الذاهب إلى باريس في الحادية عشرة وثمان وأربعين دقيقة.

ومع بداية الصباح، ذهب إدريس إلى محطة سان شارل، وأثاره الجو الصاخب للغاية؛ ففي ظل ضيقه، شعر بالراحة لرؤية مشاهد الوداع والاستقبال التي صاحبت كل رحيل وكل وصول لقطار، وهي المشاهد التي شعر بها باعتباره شاهدا تواقا إليها. وراح يفتش في معرفته الجغرافية الضئيلة ليحاول تخيل محل وصول الرحلات التي رآها تقوم باتجاه جنوة، وتولوز، وكليرمونفيران. وحاول أن يجد صلة بين هذه المدن وإعلانات السكة الحديد التي رأى فيها مونت سان ميشيل، وإزاي لو ريدو، وفرساي أو نقطة راز. فلماذا لا تعبر هذه الأماكن الفرنسية الخيالية إلى الغاية عن المدن الكبيرة التي تتجه لها القطارات والمسافرون الذاهبون إليها؟ هناك إذن، كما بدا له، عالمان لا علاقة بينهما، عالم الواقع الملموس، الرمادي الكئيب في جانب، وعالم ساحر ملون، لكنه بعيد وغير محسوس، في الجانب الآخر.

في الحادية عشرة، حل قطار باريس على الرصيف، وانتظر إدريس ليصعد إليه حيث احتل عدد من الركاب مقاعدهم، وراح يراقب، ويقلد، ويفعل كالآخرين كي لا يفصح عن همجيته وسط هؤلاء المتحضرين، ووجد مقعدا في ركن بالممر، بالمكان الذي يسمح بالخروج والدخول من المقصورات بغير إزعاج. وظهر في آخر لحظة شاب لم تكن لديه على ما يبدو الوساوس نفسها، وتقدم

بضع خطوات ليصل إلى النافذة، وأخذ يثرثر وهو ينزل الزجاج بمرح مع آخرين كانوا على الرصيف. وعندما تحرك القطار، صاح صيحة عظيمة، وانعقدت الأيدي ملوحة بشدة، ثم جلس الشاب الذي كان وجهه متهللا على المقعد الذي ظل خاليا أمام إدريس، ونظر إليه وهو ما زال يبتسم دون أن يراه. وحدق فيه إدريس طويلا. ولأنه بدا كما لو كان ينحدر من مسقط رأسه، أحس بالألفة تجاه هذا الشاب الفرنسي الذي في عمره! وعندما توقف القطار في ما بعد في محطة الآرل، عاد إلى النافذة وانحنى على الرصيف، كما لو كان ينتظر العثور على أصدقاء. وأغلق إدريس عينيه، وترك نفسه يتهدهد بالإيقاع المنتظم لمسير القطار، وراحت تتكون في رأسه موسيقى ست زبيدة. وتخيل المرأة السوداء والحمراء، محاطة بالموسيقيين ولوازمهم الموسيقية الملغزة:

فرس النبي يرفرف على المياه

والجرادة تزن على الحجر

فرس النبي يهجو خديعة الموت

والجرادة تكتب سر الحياة

وتوقف الرقص بفعل توقف القطار في أفينيون، ثم عاد ثانية:

جناح فرس النبي أهجية -

جناح الجرادة مكتوب

ولمح إدريس قطرة الذهب على رقبة الراقصة. ثم تأرجحت قطرة الذهب في الشمس بطرف سلسلتها المكسورة. وسمع عاهرة مرسيليا تقول عجبا! إنها جميلة، يمكن القول إنها من الذهب الخالص. ورأى الأفخاذ المفتوحة للفتاة تكشف عن فرج بني، فقد كان شعر هذه البيضاء الأشقر مصبوغا. لقد فقد إدريس قطرة ذهبه، الطلسم الواحي ورمز الحرية، وهاهو يتوغل الآن في إيقاع القطار باتجاه بلاد الصور. واقترب القطار من فالنسيا، فقام متأرجحا، مغادرا المقصورة، مستندا إلى قضيب نافذة الممر. وكان المنظر الطبيعي الريفي تمتد أراضيه الخالية، وحدائق الزيتون، وحقول الخزامى. وجاء الشاب إلى جواره، ونظر إليه نظرة صداقة، وشرع في الحديث كأنما يحدث نفسه، ثم وجه كلامه بشكل أكثر مباشرة لإدريس.

ــ ما زلنا بعد في الريف. فشجر السرو ينتصب في سياج ليحمي المزروعات من ضربات الرياح. والقرميد الروماني على الأسطح، لكنه ليس موجودا هنا من وقت طويل. إنها فالنسيا، الحد الأمامي للجنوب. وفي فالنسيا، يتغير الجو، ويتغير المنظر الطبيعي، ويتغير نوع البناء.

ـ لكن، هل هذا كله في فرنسا؟ سأل إدريس.

ـ لسنا بعد بفرنسا نفسها، إنها بالشمال، وهو بالأحرى وطني.

وراح يحدثه. كان اسمه فيليب، وكانت لدى عائلته ملكية في بيكاردي، بالقرب من أميان، حيث ولد، ثم ترعرع في باريس.

ـ بالنسبة إلي، يعد الجنوب مكانا للإجازة، وفضولا فولكلوريا، للهجة، وللتاريخ المرسيلي، ولكني أفهم أنه عندما يعبر ريفي حدود فالنسيا فهو يعتبر نفسه منفيا بعض الشيء. فهي غير مشمسة، وباردة، والناس فيها لهم لهجة حادة؟

ـ هل اللهجة هي الحادة؟

ـ نعم، ليست اللهجة الريفية، بل التي نسمعها في ليون أو باريس على سبيل المثال. وذلك بالنسبة إلى سكان الجنوب، فهم يعتقدون أنهم يتحدثون بشكل طبيعي وليست لديهم لكنة، وأن الفرنسيين الآخرين هم من لهم لكنة، وهي اللكنة الحادة. كما إن سكان الشمال يعتقدون أن الجنوبيين هم من لديهم لكنة، هي لكنة الجنوب، وهي لكنة مسلية، جميلة، لكنها ليست رصينة. لكنة ماريوس.

ـ وماذا عن سكان شمال إفريقيا؟

ـ أتعني الأقدام السوداء؟ هؤلاء وضعهم ألعن، فالباتاوي هذا، هو نهاية كل شيء. وهؤلاء لا بد لهم فعلا أن يأخذوا وضعهم باعتبارهم فرنسيين حقيقيين.

ـ لا، أنا لا أتحدث عن الأقدام السوداء. بل أعني العرب، والبربر.

ـ هنا تجد نفسك طبعا خارج فرنسا.

ـ ومع ذلك فهذا الإقصاء أقل مما يحدث في ألمانيا أو إنجلترا، ففي الجزائر، نعتبر فرنسيين دائما.

ـ نعم، هذا معروف، فكل فرنسي لديه فكرته عن الجزائر والصحراء، حتى لو لم يضع قدميه هناك قط. إنها جزء من حلمنا.

ـ لقد صورتني امرأة فرنسية.

ـ وهل كانت الصورة جيدة؟

ـ لا أعرف؛ فلم أرها، ولكن منذ غادرت وطني صرت أخشى أكثر فأكثر ألا تكون الصورة جيدة. أي ألا تكون هي الصورة التي انتظرتها.

ـ بالنسبة إلي، فأنا أحمل معي دائما كمًّا من الصور عندما أسافر، وهي تلازمني وتطمئنني.

واقتاد إدريس إلى المقصورة، وأخرج ألبوما صغيرا من شنطة سفره.

انظر، هذا أنا مع إخوتي وأختي.

ــ ونظر إدريس إلى الصورة، ثم إلى فيليب كما لو أنه يقارن:

ــ هذا أنت فعلا، ولكن في سن أصغر.

ــ لقد التقطت من عامين، هؤلاء إلى اليمين هم إخوتي، وفي الخلف أبي، أما السيدة العجوز فهي جدتي. لقد ماتت في الربيع الماضي. وهذا بيت عائلتنا بالقرب من أميان وأمامه بيبو، كلب البستاني. وكانت هذه الصورة في الممرات التي تعلمت فيها السير وركوب الدراجة. وفي هذه الصورة تجد كل العائلة تتنزه في الغابة العامة. وهنا، تجدني أتناول القربان أول مرة، أنا الثالث من اليسار. ومرر صورة لإدريس:

ــ هذه فابيين، المرأة التي أحبها، نحن مخطوبان، أعني ليس رسميا. إنها تدرس العلوم السياسية، مثلي، ولكنها تسبقني بثلاث سنوات. هل يبدو هذا الفرق واضحا؟

ونظر إدريس إلى الصورة بتمعن، وتعرف فيها إلى نموذج المرأة البيضاء، امرأة اللاندروفر، وتلك التي في مرسيليا. وأصابه

الحزن، وأعاد الألبوم إلى فيليب الذي حاول أن يسبر غوره بتشكك. فكل ما قاله له حول نفسه وعائلته ومنزلهم وبلده، وكل ما ميزه عن إدريس، راح يتجسد في صورة هذه المرأة؛ فهو ينتمي لعنصر البيضاوات سارقات الصورة وقطرة الذهب، فرغم رقته، وحسن نيته، والعيش والملح الذي تقاسمه مع إدريس، والتعليقات التي بدرت منه عند عبور القطار بأعالي فيفاري، ووديان بيجوليه الناعمة، والسهل الشامباني بغابات أرزه، لم يبدد اليقين المقلق لإدريس، الذي لم يكن محاطا بسوى الأجانب، بأن خطرا مبهما يتهدده.

وعندما توقف القطار بمحطة ليون، بدا فيليب متجاهلا له كي لا ينشغل بسوى البحث عن أقاربه ضمن جمهرة المستقبلين على الرصيف. ونزل إدريس وراءه ليجده في التو محاطا بمجموعة من المرحبين به، وأدرك أن التفاهم القصير الذي نشأ بينهما قد انتهى. ومدفوعا أمام فيض المسافرين، تقدم حتى بلغ رصيف المحطة الطويل الذي تدفق أمامه موكب من سيارات الأجرة. وكان المساء قد هبط، وكان الجو صافيا لكنه بارد تقريبا بشارع ديدرو، وعلى البعد لم تكن منافذ شارع ليون سوى ومضات منارات، ولافتات، وفتارين، وشرفات مقاه، وإشارات مرور ضوئية. وتردد إدريس لحظة قبل أن يدع نفسه ينساب في بحر الصور هذا.

كان ابن العم عاشور، الذي يكبر إدريس بعشرة أعوام، غلاما قويا، مرحا وماهرا. وكان قد غادر تابلبالا منذ خمس سنوات وأرسل إلى عائلته رسائل متفائلة، وحوالات متواضعة. وكان مع ذلك متقلب الأطوار فعلا. وكان موجادم مكلفا بالكتابة له لتذكيره بابن أخيه، لكن إدريس رحل بغير انتظار لجوابه. وقد أصابته الراحة عندما وجده في مقر سوناكوترا بشارع ميرها بالحي الثامن عشر. وكان يشغل غرفة صغيرة في ما يشبه الشقة التي كانت تضم خمس غرف أخرى، ودورة مياه، ومطبخا جماعيا بخمسة مواقد غاز وستة برادات مغلقة بأقفال. وكان المقر يضم كذلك اثنتي عشرة شقة من ست غرف للعزاب، مضافا لها قاعة للصلاة وصالة للتلفزيون. وقدم عاشور إدريس إلى المشرف على المؤسسة، وكان جزائريا مرحلا من الأقدام السوداء، يدعوه تجميع إيزيدور، كما لو كان ذلك اسمه الشخصي، في حين كان هذا اسم عائلته. وكان كافيا له أن يتشارك إدريس مؤقتا الغرفة مع قريبه، ولم يلق إيزيدور التفاتا لهذه التعقيدات ــ المعروفة جيدا ــ لقواعد البوليس.

وكان عاشور قد عوض عدم خبرته المهنية باستعداده الدائم على ما يبدو للقيام بكل المهام. وقد تطلع بالتأكيد إلى العمل لدى رينو عقب وصوله فرنسا بقليل، لكنه أفاد من أول "إزالة للشحم" عن العاملين، كي لا يدلف أبدا إلى جزيرة سيجين. فلم يكن أبدا الشخص المناسب للعمل المنتظم، ذي الإيقاع الجبري الرتيب.

ـ إنها الضجة، قبل كل شيء، شرح لإدريس وهو يتذكر هذه الفترة التعسة من حياته. أوه، يا أخي، عند وصولك للورشة يكاد رأسك ينفجر، خذ عندك، فالمصهر على نقالة بمحركين عجوزين مستعادين يتقلبان ويسقطان الواحد بعد الآخر في البوتقة. إنها الجحيم أقول لك. وأنا، أنت تعرفني، فأنا موسيقي، بل حتى راقص. وكان هذا يجعلني عند الخروج في المساء لا أسمع شيئا بأذني. وتيقنت من أني سأصير أصم لو أكملت. وانظر، كان الأسوأ هو احتقار العامل الذي يوجد في هذه الضجة، لأنه لا يوجد مهندس فكر في تنظيم العمل ليقلل الضجة. فهم لا يعيرون اهتماما لذلك! والعمال لهم رؤوس خشبية! فلم التعب؟

عقب ذلك عمل في كنس رصيف المترو لفترة قصيرة لم يعد يحتفظ في ذاكرته منها بسوى ذكرى الإضراب الشهير لعمال النظافة الذي استمر أربعة أسابيع. ولم تكن مؤسسات الخدمة العامة الفرنسية لها الحق في تعيين الأجانب، التسعمائة عامل عربي، القبائليين، والسنغاليين بالمترو، فهؤلاء لم يتمكنوا من التوظف بواسطة هيئة المترو إلا عبر وسيط من الشركات الخاصة من مقاولي الباطن، إلى درجة أن إضرابهم نزل كالصاعقة على اثنين من الموظفين كانا سيئي النية. واجتمعوا في بورصة العمل، وتسجلوا كلهم معا في نقابة العاملين الفرنسية، وهو ما أعقبته الزيارة الحميمة لإدوار مير، الذي

استقبل بالصياح والرقصات، وقدم أحد الشباب السنغاليين باقة ورد صغيرة له وهو يرقص. وتمت ترجمة خطابه في التو للعربية والبربرية، والتوكولية.

ـ ولكن، كما ترى يابن العم، ليس هناك شيء بسيط ولا واضح، لأن النقابة الأخرى، النقابة العامة للعمل، قامت مباشرة بإعلان إضراب عمال نظافة القطارات، للتضامن الذي قالوا عنه. وفي الواقع ، كانت هذه ضربة قوية ضدنا، لأن طلباتنا لم يكن بها ما يجمعها مع طلبات منظفي القطارات، وأخيرا اختلط الحابل بالنابل.

واستمع إدريس بأذنيه لكل ذلك بغير أن يفهم هذه الصراعات بين عمال نظافة الرصيف وعمال نظافة القطارات. وبدا له أنه وضع قدمه على الأرض عندما تذكر عاشور شهر ديسمير المخيف الذي قضاه في كورسيكا في جمع اليوسفي. أربع عشرة ساعة من العمل يوميا، بمخيم شنيع في عنبر مع ثلاثين من الملعونين أمثاله ـ من المغاربة بصفة أساسية ـ المستغلين من أصحاب العمل الكورسيكيين الذين لا ضمائر لهم.

ـ منذ تلك الرحلة، لم أعد أطيق رؤية حبة من اليوسفي دون أن أشيح بنظري عنها. لا، يابن عمي، ضروري قبل كل شيء ألا تنزل إلى جنوب فرنسا أو كورسيكا. فأولا، الشتاء هناك أبرد من أي

مكان آخر، لقد تصورت أنني سأفقد جلدي في ليالي ديسمبر الكورسيكية!، كما إن الناس، بقدر ما هم سمر البشرة، وبقدر ما يشبهوننا، بقدر ما هم متكبرون علينا. فلو أنهم عرضوا علي يوما أن أجمع اليوسفي في السويد أو فنلندا، فسوف أفكر. ولكني سأستغرب لو أن هذا حدث.

من ثم قص عليه أنه استغرق في العمل في العديد من المؤسسات، كحضانات الأطفال، وحانات الحليب، ومطاعم الشركات، والوجبات السريعة، ومطاعم الخدمة الذاتية، ومقاصف المدارس.

وكان الشيء الجاذب الوحيد بهذه الأعمال هو قصر مدتها، ونوع اليانصيب الذي يوزعها، ففي مكتب العمل (الوكالة القومية للعمل)، يوزعون على المتقدمين العروض التي تأتي بالقطارة. والانتظار قد يستمر أسابيع أو حتى شهر، ويمكن أن يكون غالبا أقصر من ذلك، باختفاء حامل الرقم الذي عليه الدور، الذي قد يكون استنكف عن فرصة العمل هذه، أو حصل على فرصة في مكان آخر. وقد كنت أوجد أنا دائما عندما يظهر رقم دوري. قال عاشور باعتزاز. أولا لأني أحب الانتظار، فانتظار العمل هو العمل الأقل إرهاقا الذي أعرفه. كما إنه الأقل مجلبة للقذارة، فليس به شيء. لقد أمضيت أياما بكاملها على دكك مكتب العمل أستمع إلى أرقام المنادى عليهم. وغالبا ما كانت هذه الأرقام بعيدة عن رقمي، بما يمكنني من

التغيب بضعة أيام. وهي أيام كانت تعتبر إجازات في مجموعها، وفي أثناء ذلك، فإن العمل يتم من تلقاء ذاته مع النداء على الأرقام. فقط كما ترى، لا بد من المجيء في الموعد، ولهذا صار لدي نوع من حاسة الشم، أشعر من خلالها بقرب مجيء رقمي، فلم يحدث مرة أنني لم أكن حاضرا لا يجدونني كي يعلنوا غيابي. ثم هناك المفاجأة الممتعة، فليس من الممكن التخمين أبدا إذا كنت ستذهب إلى محل بيتزا نابوليتانية، أو محل فطائر بريتونية، أو مطعم برج الفضة. أما الممل فكان هو الطعام. أولا بسبب ساعته، فهي بساعة هزلية. وأقسم لك يابن العم أن النقطة السوداء في العمل بالمطاعم هي الطعام. أولا الساعة، وهذا طبيعي، فهي ساعة الوجبات التي يجب أن يبذل فيها جهد كبير. في حين أننا نحن نأكل في ساعات بلهاء. فلم أتعود أبدا أن أتعشى في السادسة مساء أو في منتصف الليل. لأني أحيانا لا أكون جائعا، وأحيانا أخرى، أكون متقززا من الأطباق القذرة والبقية المقرفة التي أقلبها خمس ساعات من العمل. وينتهي الأمر بي بألا آكل. لذا خسرت كيلوات من وزني، ولكن ذلك لم يستمر. وقد عملت أيضا مرافق كلاب، ورجل إعلانات أضع لافتتين على الصدر والظهر وهذا بالنسبة إلى شخص خجول مثلي، ميزته إنك تصبح مغطى كليا. ويمكن القول أيضا أنك تصبح غير مرئي. نعم، فالمارة ينظرون إلى اللافتة التي تضعها على كتفيك، ولا يكادون يلمحونك!،

كما عملت عاملا في لصق الإعلانات، ومنزه للسيدات المسنات، وكانت منهن واحدة رقيقة بالفعل. أتعرف؟ كنت أسير بطء خطوتها بنفسه ، وهي تتكئ على ذراعي، كابن محترم بار وهذا كل شيء. وذات يوم إضافي، وفى أثناء المرور بميدان جيسانت، قالت لي: "دعنا لا ندخل هنا، فهو يعج بالسيارات! هل نظرت إلي؟ فمن أجل الألعاب النارية للثالث عشر من يوليو لا بد لهم من جمهور، أتصدق ذلك!" لكن هذا أيضا كان عملا موسميا!. أيضا عملت مدرب سباحة في حمام، وقد تمكنت مدة شهرين أن أخفي عليهم أني لا أجيد السباحة، وهو رقم قياسي، أليس كذلك؟! ثم عملت أيضا عارضا للتون تون، وهي عجينة للكلاب الراقية كان صاحب العمل يرغمنا على فتح إحدى علبها في منتصف المحل وأن نأكل منها ملاعق كبيرة مع إعلان تلذذنا واشتهائنا أمام الزبائن. وعقب ذلك كنا نذهب للغداء! وغاسل بلاط، وغاسل سيارات، وغاسل جثث بالمشرحة، لا تصدق مقدار ما غسلته في حياتي! والمزعج أن هذا يجعلك تحجم أن تغتسل أنت، فالذين يغسلون أي شيء متسخون دائما كالخنازير.

أما الآن، فقد تمكن عاشور من الحصول من عمدية الحي الثامن عشر على نوبة كنس للشارع، كما إن مشوارا صغيرا لمكتب الأرصفة سيجعله يحصل على ترخيص باصطحاب ابن عمومته معه لمساعدته.

وواضعا على رأسه خوذة حكومية، ومزينا صدره بشريط قرمزي، اكتشف إدريس، في مظهره المتواضع هذا، الحياة الباريسية. وتصادق مع شيخ محنك ذي شارب رمادي، واصل عمله بالكنس حبا في المهنة. وقد علمه فن القيام بكنس جيد بالسعف الأخضر وبتولة معقودة بعليق مشطور. ولأنهما صنعا فريقا، عهدوا إليهما بعربة صغيرة تنقل كيس القمامة، إضافة لمجرفة ومكنسة، ولم يعودا مكلفين فقط بجمع الورق المشحم وبراز الكلاب من على الأرصفة، وتنظيف مجاري المياه، بل أيضا بإفراغ السلال العامة السبع عشرة في القطاع الذي كلفا به. وألح إدريس على عاشور أن يترك له المفتاح المكعب لحنفيات مياه المجاري. وقد أحب إطلاق موجات المياه المقرقرة ومتابعتها في طريقها بلا توقف، وهي تعترضها سدود أقذار الشوارع أو إطارات السيارات المركونة. وكان هذا يذكره بمراقبة وكسح الرمل، وفتح قنوات الري للنخيل المغذى عن طريق الفجاج في تابلبالا. ومع ذلك، لم تكن به رغبة بالعودة ثانية لهذه المدينة المهددة بالاختناق دائما تحت غائطها، والمرهقة باستمرار بنزح ما أطلقته، والمكافحة ضد تراكم كل فائضها، في حين أن الواحة لا تعاني إلا الفقر، والحرمان، والخواء.

ولم يتوان عاشور، بين ضربتي كنس، أن يعطيه درسا أو يطلعه على حصيلة خبرته العريقة بوصفه مهاجرا:

ـ الوضع هنا، ليس مثل الوضع في البلاد، قال له، في البلاد أنت محصور في عائلة، في قرية. فإذا تزوجت، يا إلهي! تصبح ملكا لحماتك! وتصبح كقطعة أثاث في البيت. أما هنا فلا، إنها الحرية، نعم، إنها الحرية بالفعل. ولكن انتبه فهي أيضا مخيفة. فالحرية إذن هنا تعني لا عائلة، لا قرية، لا حماة! بل أنت فحسب وحدك، مع حشود من الناس يمرون بغير أن ينظروا إليك. بوسعك أن تسقط على الأرض، ويواصل المارة السير، ولا يعينك أحد على الوقوف. هذه هي الحرية. إنها قاسية. قاسية جدا!

كان حياء ابن عمه الشاب، وارتباكه في انتهاز أقل الفرص المتاحة بالصدفة، واعتزازه بالجفول عندما يبدو أن أحدا مهتما به، يجعله يرى أنه بالضرورة لا بد أن يتغير، إذا شاء أن يحيا في باريس.

ـ هنا، أنت أشبه بفلينة تطفو على الماء، شرح له. تلقي بك الأمواج يمنة ويسرة، وأنت تسبح، وتطفو. إذن عليك أن تستفيد من كل ما هو معروض. أنت، على سبيل المثال، شاب جميل، إذن إذا ابتسم لك أحد، يجب ألا تتردد، اذهب واعرف ماذا هناك. فربما يكون ما هناك لك. ولا بد ألا تتصرف كفتاة؛ فالفتاة لها سمعة تدافع عنها، أي شرف المرأة. فيجب ألا تخطئ، وإلا ستضيع إلى الأبد. أنت لست

فتاة، ولا شيء لديك لتخسره. على كل حال، نحـــن مختلفــون هنـــا، وليس لدينا الحق في أن نكون صعبي المنال.

بطبيعة الحال كان هناك محيط مأوى سوناكوترا، وبه الرئيس إيزيدور، والجمع المتغير للمهاجرين الآخرين، وكان إيزيدور قد أقام مع المؤجرين في قلب باريس علاقات أبوية وقاهرة اعتادها خمـــسة عشر عاما مع العمال العرب بمجرشة الحنطة التي يديرها في باطنه. "أنا، الجديان تعرفني" كان هو يؤكد للمفتشين الذين يأتون لإلقاء نظرة على الروتين في مقر المأوى، "أنا أعرف كيف أخاطبهم، فمعي أنـــا ليست هناك مشاكل على الإطلاق"، وكـــان المهـــاجرون بالفعـــل لا يشتكون من وصايته المدققة، والخفية بالطبع، والتي كانت فعالة.

ـــ الفرنسيون، علق عاشور، يجب بالطبع ألا تعتقـــد أنهـــم لا يحبوننا؛ فهم يحبوننا على طريقتهم، ولكن شـــريطة أن نظـــل فـــي الأرض. فيجب أن نكون متواضعين، بؤساء؛ فالفرنسيون لا يطيقون العربي الثري، القادر، كأمراء الخليج على سبيل المثال، الذين يبيعون لهم بترولهم. فهؤلاء يثيرون قرفهم! أجل، فالعربي، كما يرون، عليه أن يظل فقيرا. والفرنسيون خيرون مع الفقراء العـــرب، خـــصوصا الفرنسيين اليساريين. ويسعدهم تماما أن يشعروا أنهم خيرون.

لكن وجهة نظره لم تكن تخلو من الصرامة والوصاية:

ـ كل هؤلاء الفرنسيين، عليهم جميعا الاعتراف بأن فرنسا الحديثة هي نحن؛ فالسيارات، نحن من يصنعها. أضف إلى ذلك ثلاثة آلاف كيلومتر من الطرق السريعة، وبرج مونبارناس، ومترو مرسيليا، وقريبا مطار رواسي، وبعد ذلك المترو السريع. إنه نحن، نحن، ودائما نحن.

مع ذلك كان يشعر بالإحباط أمام الجمهور المسالم والحالم للمهاجرين الآخرين.

ـ انظر إلى شباب هذا المأوى. أحيانا أسأل نفسي ماذا في رؤوسهم. فإذا تحدثت معهم عن المستقبل، تجد شيئين لا يفضلونهما: الأول، هو العودة إلى البلاد؛ فهذا مستبعد تماما! فقد رحلوا عنها بشكل دائم. وهناك أيضا من يفكر جيدا في العودة، ولكن بعد زمن طويل عندما تصبح البلاد نوعا من الجنة على الأرض. أي يمكن القول إن هذا لن يحدث. لكنهم ليسوا سعداء هنا أيضا، فهم يرون جيدا أنهم ليسوا مرغوبا فيهم. إذن فالبقاء هنا دوما هذا أيضا صعب! إذن ماذا يريدون؟ هم لا يريدون العودة إلى البلاد، ولا البقاء في فرنسا. وهناك شخص قال لي ذات يوم: هنا هى الجحيم، لكن البلاد هي الموت. فما الذي يحلمون به؟ هم أنفسهم لا يعرفون.

وكان من الطبيعي أن يحكي له إدريس كل شيء عن حكايته مع الصورة. وأنصت عاشور باهتمام، ثم استنتج باختصار:

ـ واقع الأمر كما ترى، فإن امرأتك الفرنسية، بآلتها الكوداك، كانت فخا، فخا كبيرا. وهذا الفخ يا أخي وقعت فيه على رأسك. أيها المسكين! فهل لك أن تخرج منه؟

لكن إدريس لم يحدثه قط عن قطرة الذهب لزت زبيدة، التي ضاعت على البلاط المرسيلي.

انشغل فريق التصوير الصغير بشارع ريشوم تحت إدارة شخص بدين يدعوه الجميع بالسيد ماج. وتم إصلاح حنفية صرف بجانب الرصيف وضع عليها المصور منظاره، وهو يعد منطقة الحركة البانورامية. لكن ما جذب اهتمام الفضوليين، كان مهرجا ـ لاعب سيرك بأنف أحمر من الكرتون وحذاء ضخم ـ كان عليه أن يكون الممثل الوحيد في المشهد الذي يجري تصويره. وشق طريقه وسط هؤلاء الناس الشاحبين كليمونة وسط كم كبير من البطاطس. وكان السيد ماج مستعدا وهو ينظر بهيئة فاحصة عملت على تركيز الحول الطبيعي بعينيه. وكان إدريس، الذي يراقب بنفسه المهرج، مستندا إلى مكنسته. وأشار السيد ماج إلى رجل بشعر رمادي يصحبه:

ـ أترى هذا الكناس الصغير؟ وظفه.

ـ أوظفه؟ ليفعل ماذا؟

ـ ليقوم بعمله، ويكنس في المجرى.

واقترب الرجل ذو الشعر الرمادي من إدريس. وأخرج حافظته، وأعطاه ورقة بمائتي فرنك.

ـ أتكنس؟ هيا اكنس! ولا تتشغل بشيء آخر! الجميع في مكانهم!

ولم يفهم إدريس المنقاد شيئا، وشرع في تحريك مكنسته بالمجرى. وتقدم المهرج في خطوات غير ثابتة، باحثا عن شيء في العيون، وأبصر سياجا، وهرع تحته لينظر، وعدل عن ذلك، وتفحص المجرى ومكنسة إدريس، ثم توغل هنيهة أمام فتحة البالوعة. وفي سيره المترجرج، صنع نصف دائرة حول الثقب، واقترب منه، وركع على ركبتيه على الأسفلت. وعكس وجهه نوعا من القلق، والأمل، والانتظار. ثم قرفص في مواجهة حلق البالوعة، وأدخل يده، ثم ذراعه بكاملها. وشعر الجميع بمجهوده ليبلغ شيئا يوجد بالطبع بعيدا داخل الحلق الأسود للبالوعة. وأخيرا تهلل وجهه، وانفرجت أساريره عن ابتسامة عريضة، ثم نهض ببطء ممسكا في يده بوردة جميلة حمراء. وانعقدت قدماه الواحدة بالأخرى، وجدفت يداه الحرتان بنعومة في الفراغ، وأغلق عينيه بلذة، وأخذ يستنشق عطر الوردة.

ـ ممتاز! صاح السيد ماج. سنصور هذا. الكل في مكانه. أنت، أيها الكناس، عد إلى نقطة انطلاقك! واكنس، يا إلهي!

ـ هل صوروك هكذا في الفيلم؟! تعجب عاشور

ـ لقد أعطوني أيضا مائتي فرنك! أكد إدريس وهو يخرج حافظته.

ـ وصلت توا من تابلبالا، وصرت نجم سينما! ماذا أقول؟! يمكن القول إنك ماهر! وأنا الذي حسبتني شاطرا ؟!

ـ فضلا عن أن المخرج لاحظني، أضاف إدريس، وأعطاني بطاقته وقال لي أن أهاتفه.

وقرأ عاشور ما على البطاقة ذات اللون البنفسجي التي قدمها له إدريس.

أشيل ماج

سينمائي

١٣ شارع دي شارتر ـ باريس ـ الحي الثامن عشر

ومرر البطاقة تحت أنفه:

ـ رائحة البطاقة، ولونها يشيان بأنه ذو حيثية! وأكثر من هذا أنه غير بعيد عن هنا. هل ستهاتفه قريبا؟

ـ أنا؟!

أحس إدريس فجأة أنه تجاوز حده. فأن يستخدم التليفون، ليهاتف شخصا مجهولا لا بد أنه رجل مهم، كان هذا حقا كثيرا عليه:

ـ ربما في ما بعد. سنرى.

ـ يجب ألا تدع الأشياء تمر هكذا.

ـ سيأتي غيرها.

ـ هكذا أنت! لا أدري أأضحك أم أبكي؟ فمن ناحية أنت مبارك، لأنك وصلت توا ولا تعرف شيئا في شيء، وهذا واضح على سحنتك، وفوق كل ذلك على صحرائك، وواحتك، اللتين ما زلت تحملهما على كتفك، وأنت حتى لا تدرك ذلك. وأنا الذي أكلتني باريس تماما أحس أن هناك شيئا فيك يجذب ويتصيد، كأنه سحر. وهو لن يدوم، فاستفد منه.

ـ لقد خسرت بالفعل كثيرا، ليلة وصولي لمرسيليا، مع عاهرة.

وضحك عاشور هازئا:

ـ هذا يا ابن عمي ليس خطيرا! فمن جهة من المفروض أن يحدث هذا بقدر ما يحدث. ومن جهة آمل مع ذلك ألا يكون قد أصابك مرض.

ـ لا، لم يصبني مرض. بل خسرت، قلت لك خسرت.

ونظر إليه عاشور بغير أن يفهم شيئا. لكن إدريس لم يضف كلمة واحدة للتفسير.

كانت قائمة الطعام المزخرفة، والمؤطرة بالأرابيسك تعلن في حروف منسوجة بعناية بالقبعة البيضاء:

متخصصون في المشوي، والطاجين، والكوسكوس

ديكور موريتاني

وكانت واجهة المحل تمثل تقليدا لبرج عسكري للمتدينين المرابطين ولقصر من ألف ليلة وليلة. وكان غلام بشاشية وبنطلون منتفخ يقف أمام الباب. واقترب إدريس من القائمة، وراح يقرأ. وتراقصت الكلمات أمام عينيه دون أن تثير شيئا واضحا في عقله: بستيا حمام بالقرفة. سكسو باللبن. بريك بالعسل. شكشوكة بالبيض. شوربة بالأعشاب. بوريك بالبصل. ماكتفا بالشعرية. ضولمة الفلفل الأخضر.

ـ هل الكوسكوس بالدجاج أفضل في رأيك أم بالخروف؟

والتفت إدريس، وحدق به الشاب الذي استوقفه باستهزاء قاس بعينين غائرتين في وجه ضامر:

ـ لا أعرف، غمغم إدريس، أنا لم آكل الكوسكوس أبدا.

وتفرس فيه الشاب:

ـ هاك، انظر إلى هذا! لقد تصورتك عربيا.

ـ لا، أنا بربري.

ـ عربي، بربري، كيف؟ كيف يتساويان، أليس كذلك؟

ـ لا.

ـ إذن من أين أتيت أنت؟

ـ من الصحراء. من قرية شمال غرب الصحراء.

ـ أتيت من الصحراء، ولم تأكل الكوسكوس أبدا؟

ـ لا، أبدا، في تابلبالا، نحن أفقر من أن نأكل الدجاج أو الخراف. نقول: البطن فراغ آخر تعلم الخبرة كيف تربطه.

ـ إذن، ما طعامكم الوطني؟ ما هو؟

ـ أنا لا أعتقد أن لدينا طعاما وطنيا. فما نأكله أكثر هو التازو، ولكنه لا يشبه طعاما وطنيا.

ـ التازو؟

ـ إنه مفروك الحنطة بالجزر والشطة والكرنب والفول والفلفل الأخضر والباذنجان والكوسة.

ـ وكيف تحملون رؤوسكم؟! ما هذا؟! ماذا عن اللحم؟

ـ لا، ليس هناك لحم، ربما قطعة من عظم الجمل.

عقب ذلك بعدة دقائق، قرفصا حول طبلية بالمطعم أمام طبق فاخر من الكوسكوس بالسمك. وراح الضوء الخافت الفخيم يثير الأحلام والذكريات لصديق إدريس الجديد.

ـ لقد رأيتك وقلت لنفسي. ها هي الصحراء تأتي إلي!

ـ الصحراء. قال إدريس، لقد تعلمت هذه الكلمة في فرنسا. عندنا لا توجد كلمة تعني هذا.

ـ الصحراء؟! هي الصحراء يا أخي!

ـ عندنا لا كلمة لدينا تقول الصحراء.

ـ حسنا، كما تشاء، فالكلمات هي تجارتي، وسوف أشرح لك الصحراء.

ـ الفرنسيون يحبون دائما شرح كل شيء. لكني أنا لا أفهم شيئا من شرحهم. ذات يوم مرت امرأة فرنسية بيضاء عندنا. وصورتني، وقالت لي: "سوف أرسل صورتك." ولم أتسلم شيئا أبدا. وها أنا الآن، هنا في باريس من أجل العمل. وأرى أن الصور في كل مكان، وصور إفريقيا أيضا، والصحراء، والواحات. ولا أتعرف إلى شيء فيها. قالوا لي: "هذا بلدك، وهذا أنت" فهل كان هذا أنا؟ أنا لَا أتعرف إلى شيء!

ـ هذا لأنك لا تعرف. لا بد من التعلم قبل كل شيء. الأطفال الفرنسيون يدرسون جيدا بالمدرسة. وسوف أعلمك يا إدريس الصحراء.

ـ وهل ستعلمني أيضا بعض الشيء عن نفسك؟

ـ طبعا، فمن أنا الذي أمامك؟ أنا الماركيز سيجسبرت دي بوفوند في خدمتك!

ونهض قليلا لينحني أمام إدريس:

ـ سليل إحدى أقدم العائلات على الأرض الفرنسية. أجل يا سيدي. وأضيف أن هذا جعلني صاحب أفخاذ جميلة! منذ طفولتي. أنا المتمرد، والمهمش، الذي لم ينتظم في مدرسة، الذي ألقي به على باب حديقة أطفال باسي، وأخوية المدارس المسيحية في نويي، ثم

جوقة إنشاد بانتواز، وجزويت إفرو، واللازاريين السماويين، وإنيورنتان آلنسون. وفي سن السابعة عشرة قادني هروبي الثالث لسيدي أبي العباس، حيث ذهبت بأوراق مزورة في فيلق، هو الفيلق الأجنبي. أوه يا إدريس، الفيلق! ملحمة الخوذات البيضاء. انتبه، فصاحب المطعم أحد قدامى الفيلق، مسيرة الموت! الكاميرون(١) (المكسيك) البانديرا، فيلم دفيفييه المكرس للجنرال فرانكو، رئيس الفيلق الإسباني. وهو أول دور رئيسي لجان جابان. وفيلم الصدمة مع بيير رينوار: " سجنتني مدة ثمانية أيام لكي أتمنى موتي، وثمانية أيام أخرى كي لا أفعلها عندما تأتي الفرصة!" وبيير بينوا، فيلم الأطلانطيد، وبريجيت هلم في دور أنتينيا. "أي صباح ساحق! أي ليل ثقيل، ثقيل!.. نحن لن نشعر بعد بأنفسنا.. ولن نعرف بعد".

ــ أجل، قال الصوت البعيد لسانت أفيت. ليلة ثقيلة، ثقيلة، ثقيلة جدا، أترى؟ تلك التي قتلت فيها الكابتن مورهانج. ووراء كل ذلك النظرة الصوفية لشارل دي فوكولد فويس إسكريم: "فكر في أن عليك أن تموت شهيدا، مجردا من كل شيء، ممددا على الأرض،

---

(١) بجهة المكسيك، وهناك في الثلاثين من ابريل ١٨٦٣، حارب ٦٤ رجلا من الفيلق الأجنبي الفرنسي ألفي مكسيكي. وقد أصبح تاريخ الثلاثين من ابريل عيدا للفيلق الأجنبي.

مجهولا، غارقا في دمه وجروحه، مقتولا بعنف وألم، ويرغب في أن يكون اليوم".

ولكن انظر يا إدريس. من كل حلقات الملحمة الصحراوية، فإن ما عشته بكثافة أكثر هو موت الجنرال لابيرين، في مارس ١٩٢٠، لدى محاولته الطيران من الجزائر إلى النيجر. والأغرب، أنه قائد قديم لمنطقة الواحات، وكان برفقته شارل دي فوكولد، هذا المؤسس للحملات الصحراوية، الذي قام بالصدفة بهذه المغامرة المميتة! لقد قابلت قائد طائرته، العقيد ألكسندر برنار، في المزرعة التي أنهى فيها حياته، وأعطاني وصفا لهذه المأساة. اسمع جيدا يا إدريس، إنها ملحمة فعلا.

عند إقامة أول خط جوي بين إفريقيا البيضاء وإفريقيا السوداء.؛ كان الأمر يتطلب حينها سربين مكون كل منهما من ثلاث طائرات للمشاركة بالإغارة، أقلع أحدهما من فرنسا، والآخر من الجزائر. الطائرات الثلاث التي أقلعت من فرنسا تحطمت إحداها في إستير، والأخرى انقلبت في بربينيان، فقط الثالثة وصلت إلى الجزائر، فأصبح العدد أربع طائرات أقلعت في السادس من فبراير، وكان على ألكسندر برنار الذي قادها أن يصحب الجنرال نيفيل الذي قاد الفرقة التاسعة عشرة للجيش الجزائري. لكن الأمور المزعجة استمرت. فقد استدعي نيفيل على عجل لباريس، فتخلى عن القيادة،

وكانت هناك طائرة بحاجة إلى الضبط عادت إلى الجزائر بعد ساعة من الطيران، لأن طائرات ذلك الزمن كانت مصنوعة من الخشب والقماش المشدود بالأسلاك والأعمدة المضفرة، وكان الليل وتبدلات درجة الحرارة والرطوبة من العوامل التي تؤثر فيها، ما يتطلب صيانتها وضبطها قبل الإقلاع، كما تضبط كمانا قبل الحفل بعض الشيء. كانت المرحلة الأولى تصل إلى بيسكرا حيث يقيم الجنرال لابيرين. ولأن نيفيل غير موقعه، هرع ليأخذ مكانه بطائرة برنار. وغني عن الذكر أن هناك الكثير ما يقال عندما نتحدث عن المكان. وفي واقع الأمر لم يكن بالطائرة سوى مكانين، أحدهما للطيار، والثاني للميكانيكي، وكان الميكانيكي هو مارسيل فاسلان، وهو غلام في العشرين من عمره، وكان على لابيرين أن يجلس على ركبتي فاسلان، الذي كان يتعرض بشكل غير عادي لعنف الريح. وطارت الطائرة بسرعة ١٣٠ كيلومترا في الساعة مدة خمس ساعات منتظمة. وكانت بلوحة القيادة حاسب مسافات، ومقياس ارتفاع، وساعة ومقياس حرارة مائي. ولم يكن بها بوصلة ولا راديو ولا ميكروفون للاتصال مع الطاقم المعاون. لذا كان لابيرين يخط ملاحظاته على ورقة ويمررها للطيار.

التوقف التالي كان في عين صالح، ولم يكن قد حدث من قبل أن هبطت طائرة في هذه الواحة. وجرى الاحتفال بسعادة بهذا

الحدث. ثم واصلت طائرتان طيرانهما إلى الجزائر، وبقيت طائرتان فقط عليهما أن تتابعا رحلتهما نحو الجنوب، إحداهما على متنها الجنرال جوزيف فيلمان، والثانية يقودها برنار مع لابيرين والميكانيكي فاسلان. وبطبيعة الحال لم يكن هناك بد من قطع مسافة ٦٩٠ كيلومترا تفصل ما بين عين صالح وتامانراسيت، وهبطوا أولا في أراك وسط المضائق المضطربة لكي يصلوا في اليوم التالي، الثامن عشر من فبراير، إلى تام. لقد قطعوا الألفين وثلاثمائة كيلومتر الأولى في زمن قياسي، وفي مناخ نموذجي جعلهم مطمئنين، أجل مطمئنين، إلى حد خطير. واستمرت حملة الجزائر ــ النيجر بسهولة مخيبة الآمال تقريبا. ومع ذلك ففي جنوب تام، كان ينتظرهم الغوص في المجهول. وكانوا بالطبع قد أرسلوا رسائل إلى الأهالي كي ينصبوا شواخص ومشاعل من العليق على الأرض، لكنهم عقب الساعة الثانية من الطيران دخلوا في عاصفة رملية كثيفة، وكانت طائرتهم أسرع من طائرة فيلمان، ولم يكن بها سوى ما يكفي خمس ساعات من الوقود، بعكس طائرة فيلمان المزودة بوقود يكفي عشر ساعات. وفقد الطاقمان الرؤية. وأمرني لابيرين، كما قال برنار، بالارتفاع فوق السحاب لأعلى من ٣٠٠٠ متر لمحاولة إعادة الاتصال، لكن ذلك كان عبثا. وأخذ يمرر لي رسالة بعد رسالة. "أنا متأكد أن الريح قد حرفتنا نحو الشرق"، كتب لي، ولكني كان لدي

انشغال آخر. كان خزان وقودي فارغا تقريبا، ولا بد مـــن الهبــوط. وكان الوقت ظهرا عندما شرعت في طيران محلق ضاعف بـــدوره من انحرافنا. وتوجب علي أن أهبط بشكل لولبي. وبدت الأرض التي كانت واضحة. وشرعت الطائرة في الطيران بشكل طبيعي، ولكـــن لكونها خففت من سرعتها ثقلت العجلات أكثر على الرمــل، وفجــأة ساحت قشرتها الخارجية. وغاصت العجلات في الرمــل. وغــرزت الطائرة وانقلبت. وانقذف لابيرين الذي كان لا يزال جالــسا بــاتزان على ركبتي فاسلان على الأرض. ولم يساورنا شك في البدايـــة أنـــه جرح جرحا خطيرا. وابتعدنا عن الطائرة التي انقلبت على ظهرهـــا، وارتفعت قوائمها في الهواء. وانزرع لابيرين على كتفـــه الأيـــسر. ودعكته له بغسول معروف في ذلك الزمن، هو الأركيبوس فأفـــاق. وعرفنا في ما بعد أنه أصابه كسر في الترقـــوة وبعـــض الـــضلوع. وبالعودة له، أكد تماما اتجاه العمليات. وقرر أن نذهب فـــي رحلـــة استكشاف باتجاه الغرب، ثم العودة بعد ذلك إلى الطائرة التي سيتحدد موقعنا عليها. وسرنا إذن بضع ساعات على الأرض النخـــرة التـــي كانت تميد تحت أقدامنا، إلى أن توقفنا من التعب، ولم يكـــن هنـــاك شيء نراه. وبالمصادفة، أطلقنا ثلاث طلقات متقاربة، وهي الإشـــارة التقليدية للاستغاثة. وبعدها رحنا نعود أدراجنا، على آثار أقدامنا. ولو كانت الريح قد طمست الطائرة بالرمال لصار من المشكوك فيـــه أن

نعثر عليها، وهي التي كانت تحمل بطبيعة الحال مخزوننا الأساسي من الماء. وقد تنبهنا على أن مبرد محرك الطائرة (الردياتير) يحوي ثمانية عشر لترا من الماء، تضاف لحسن الحظ إلى المياه التي في قربيناتنا. ووجدنا الردياتير قد انقلب وفتحته إلى الأسفل، ولكن للصدفة الحسنة لم تتسرب منه قطرة واحدة. وقرر لابيرين أن يشرب كل منا كل ثلاث ساعات مقدار قدح صغير. وكان قدحه هذا من الفضة وقد أهداه له الدوق أومال، المنتصر عام ١٨٤٣ على الأمير عبد القادر. ولم يكن يفارقه في ترحاله. فكيف تقيم، أيها الصغير، موقف لابيرين الذي جعلنا نشرب كل ثلاث ساعات في قدح الدوق أومال؟!

وبدأ الانتظار، فكان كل يوم يشابه بالقطع سابقه. مع الليالي الصقيعة، وفترات الظهيرة الحارقة. وفي البداية كنا نأكل القليل، ولكن مع الجفاف الذي ازداد، لم نعد نقدر على بلع أي مواد جافة وذلك مع اليوم الثامن. وفي اليوم الخامس عشر، بدأ لابيرين ينزف من فمه. وفي اليوم التالي بدأ في الهذيان. وفي الصباح الذي تلاه لم يعد يتحرك، ولاحظت أن النمل بدأ يزحف أسفلِ عينيه المفتوحتين. ثم مات، ودفناه في الثلم الذي حفرته الطائرة، وغطينا الموضع بقطعة من القماش. وخطرت لنا فكرة غريبة جعلتنا نضع على هذا القماش إطار الطائرة الاحتياطي وعليه خوذة الجنرال. ولم نكن نعرف حينئذ أن هذا الميت سوف ينقذنا! واتخذنا القرار البطولي بتقليل نصيبنا من

ماء الشرب بمقدار النصف، أي ثلث لتر كل أربع وعشرين ساعة، فلم يكن قد تبقى لنا سوى سبعة عشر لترا لإرواء جفاف حلوقنا. وفي اليوم الثالث والعشرين، لم تتبق لنا قطرة واحدة، فشرعنا في شرب القربينة الشهيرة، ومياه البوصلة، وجميع الزجاجات التي كانت بصندوق إسعاف الحملة، من سائل اليود وزيت الكافور، ودواء تهدئة الأمعاء، وأكلنا معجون أسناننا. وأخيرا قررنا أن نقتل أنفسنا. كيف؟ بأن نشرب، يا إلهي! نشرب ماذا؟ دمنا!. وكانت هناك شفرة حلاقة، حززنا بها بشكل غائر قبضاتنا. ولكن أصابنا الإحباط! فلم تكن هناك نقطة دم واحدة تسيل. فكانت الجروح بيضاء. واشتد جفاف حلوقنا. وانظر هذا، ومد قبضتيه نحو إدريس:

ـ أترى هذه الآثار البيضاء حول الجلد؟ إنها آثار الجروح.

ـ لا، قال إدريس ببراءة، أنا لا أرى شيئا.

ـ الضوء هنا سيئ جدا، فسر سيجسبرت.

وعقب ذلك بدقيقة، تابع مواصلة حلمه:

ـ هذه الجروح البيضاء، قررت أخيرا أن تنزف، ولكن فقط ثلاثة أيام من سيلان دمائها، لأننا أنقذنا في الخامس والعشرين من

مارس، عندما أخبرني فاسلين بأنه سمع جملا يثغـو، وأجبتـه بأنـه يهذي. لكني بعد ذلك سمعت أنا أيضا جلبة حياة في الصمت الجامـد للصحراء، فقفزت نحو بندقيتي، وأطلقت ثلاثة عيارات في الهـواء. وظهر لنا فريق إنقاذ يقوده الملازم بروفوست. لكن طلقات بنـدقيتي بدلا من أن تعجل قدومهم جعلتهم في حالة من الحذر؛ فقـد أبركـوا جمالهم، ورأيناهم يتقدمون نحونا في صف من المـصوبين بنـادقهم، كما لو كانوا في معركة. وكان ذلك سخيفا، لكننا تداركنا الموقف.

بالطبع أريد أن أقول لك أيضا شيئين يصعب تصديقهما؛ فقـد ألقوا إلي بقربة ماء، وشربت، شربت ما يعادل حجـم قـدح الـدوق أومال الفضي. ولم أزد نقطة واحدة! وصارت هذه الكميـة نـصيبي لثماني ساعات، ولم أكن عطشا لنقطة زيادة. فقد تعـودت أن أظـل عطشا، وأن أستمتع بعطشي.

أما الشيء الثاني فهو الأكثر سوءا؛ فهـل تـصدق أن قـدوم هؤلاء المنقذين ملأنا، أنا وفاسلان بالغبطة الـشديدة؟ الواقـع أنهـم وصلوا متأخرين، متأخرين جدا، نعم، وكنا قد قطعنا شوطا طويلا في طريقنا نحو الموت، بل كنا بالفعل موتى إلى حد كبيـر. وأزعجنـا هؤلاء الرجال الأحياء مائة بالمائة، بكل ضجة جمالهم، ومؤنهم، لأننا كنا دفعنا الثمن الغالي، للحق في الموت بسلام، أليس كذلك؟

فضلا عن أننا فهمنا سريعا أي جحيم ألقى بنا إليها هذا الإنقاذ؛ فلم نكن فقط غير قادرين على السير، بل حتى على ركوب الجمـــال. لذا صنعوا لنا نوعا من النقالات المريحة مثبتة على خاصرة جمـــل. وفي هذا التجهيز المثير للرثاء عدنا إلى تاملنراسيت، ولم يكن هنـــاك أي علاج! وتطلب الأمر الإسزاع عدة أيام، حتى استنفذنا الإرهـــاق إلى درجة هددت بأن نموت في هذه الأسرة الجحيمية.

"وكما ترى، يا إدريس، في كل هذه الحكاية، كان ما يؤثر في نفسي حقا، هو هذا العمل الذي قمنا به في المعاناة المقيتة لكي ننجو" ثم بعدها تبزغ شـــياطين الإبـــل الميهاريـــة، فـــي الموعـــد تمامـــا، كي تتعقبنا على الأقدام، وتضمنا إليها؛ كي نسقط ثانية فـــي الحيـــاة بكل بؤسها.

مرة أخرى راح نشاط كرية الفولاذ يزداد في ممـــر الجـــائزة الكبرى، مطّلقة تيهورا من الإشارات الضوئية والسمعية حول المرأة الكاوبوي المصورة على اللوحة الكبرى بالأفيش. وشرعت تحط فـــي رقة مسوقة بالأسلاك في أحد قواديس الخمسة آلاف نقطة. ثم قفـــزت مصطدمة بالزجاج، ثم قفزت على نبتة عش الغراب المركزية نحـــو أعلى المنحدر، هابطة بسرعة كبيرة عبر الهضبة باتجاه ثقب الصفر. وهنا، حيث ظهرت مهارة زوب الكبير التي لا تضاهى، قام بـــضربة خفيفة للغاية على حافة آلة اللعب جعلت الكريـــة تنحـــرف بانتظـــام

لتسكن بإحدى الفليبرات، وتركها زوب تنساب على ثلثي المدق، ثم صوب! فطارت الكرية في قلب السماء ملامسة أيضا ممر الجائزة الكبرى. وأعلنت طرقتان بلا صدى عن عدد الأدوار المجانية التي أضيفت إلى الأدوار الأخرى بالحاسبة. ورفع المراهقان اللذان ربضا حول آلة اللعب أعينهما نحو الوجه المحمر لزوب الكبير. إنه التقدير الصامت والحماسي لأدائه الباهر بفعل تحكمه الرائع. وغمغم أحدهما: "انظر إنها خطة رائعة!". ولم يبد أن زوب استجاب لهذا التقريظ، وظل جفناه الثقيلان مسدلين على عينيه الجاحظتين، ولم تحل أي بسمة على القوس المحزون لفمه، ولم يعد يلعب الآن بسوى يد واحدة ليبلغ أقصى نتيجة. ومن ثم انسحب من أمام الآلة برجة كبيرة، متجاهلا بتعال المراهقين اللذين تكورا في مكانه ليلعبا الأدوار الخمسة المجانية التي كسبها.

وتسمر إدريس من الإعجاب، وهو ينظر إليه يبتعد وهو يجر قدميه. وكانت الشعلة الإلكترونية للمبات النيون الملونة بزاوية شارع جي – باتان وشارع دي لا شابل تنادي زبائنها الجادين، بحسب التوقيتات، من ركاب المترو فوق الأرضي بباربـاس والعاملين بمستشفى لاريبوازي. لكن إدريس انجذب لصالة الألعاب وللشباب الذين يرتدون الأقنعة، والأحذية، والمغطين رؤوسهم الذين راحوا

يطرقعون ويومضون بطاريات ألعاب السكوبيتون، والفليبرز، والجاك بوكس. وحلم بأن يرحب به بين هؤلاء الغلمان من سنه.

ـــ تعال، سأهديك بيبي فوت.

والتفت إدريس، وأفعمته الدعوة الآتية من خلفه، وفوجئ بأنها صادرة عن رجل عجوز، بدين، يرتدي فانلة رمادية فاتحة وقميصا ورديا بياقة مفتوحة، وإيشاربا بنفسجيا. وكانت نظرة الرجل منكسرة في حول خفيف، وهو ينظر إليه من خلال عوينات بإطار سميك.

ـــ من؟ إنه الكناس الصغير!

وهز الرجل إدريس بعنف من كتفه. كان هو أشيل ماج، المخرج الذي أعطاه مائتي فرنك لتصويره، وترك له بطاقته، والذي أوعز عاشور لابن عمه أن يهاتفه الآن؛ "ففي ما بعد سيكون قد نسي"..

على ما يبدو أن ماج لم ينس إدريس، ولم يظهر عليه أنه لا يريد مهاتفته، ونظر إلى ساعته.

ـــ بدلا من البقاء هنا، لنذهب ونشرب كأسا في منزلي. قرر ماج فجأة.

واقتاد إدريس الذي كان يحتج:

ـــ لكني لا أشرب الكحول.

ـــ لدي شيء آخر أقدمه لك يسمونه العـــرق. هـــل تعـــرف الغلمان الذين يلعبون بالإلكترونيات؟

ـــ لا، لم يحدثوني، نبس إدريس.

أنا أعرفهم كلهم، وهم يعرفونني، لكنهم لا يوجهون لي الحديث بشكل ظاهر. وكلهم لاحظوا أننا رحلنا معا. كمـــا إن زوب الكبيـــر الذي يسير على الرصيف، لا يحدثهم. وبقدر ما يذهب للإلكترونيات، كلما استحسن هو هذا.

ـــ لكنك عثرت علي في هذا المكان.

ـــ حسنا، كان ضروريا أن تذهب هناك حتـــى أقابلـــك. ومـــا حدث الآن قد حدث. موافق؟

وعبرا شارع دي لا شابل، ومرا أسفل جسر المترو. وعبـــر شارع كابلا، اتجها إلى مدينة باريس، التـــي تعـــج بـــشكل صـــارخ بالأفارقة. وفجأة توقف ماج، وأشار إلى اللافتـــة الزرقـــاء شـــارع شارتر.

ـــ شارتر! أتقدر الضخامة. إنه تسمم الضخامة كما يقول فلوبير:

أنا بوسيرون، شارتر كاتدرائيتي!

آه، بيجاي المسكين! لو أنه رأى هذا! بدلا من الكاتدرائية، لدي حاجة صغيرة إلى الحب. ورقم حظي ثلاثة عشر، لأنه كما ترى، كل شئ يحدث معي بالعكس.

وتوقف أمام بناية ذات هيئة منيعة تنفتح على الشارع في دهليز مظلم.

ــ لاحظ ترتيب المكان؛ الفناء مفتوح على كل الاتجاهات. سنمر عبر الدهليز، هكذا. وبوسعنا حتى الدخول إلى الفناء مباشرة بالدراجة النارية، لو لاحظت ما أريد قوله.

ــ لا، لم ألاحظ.

ــ إن الإلكترونيين الذين كنت معهم منذ هنيهة لديهم جميعا دراجاتهم النارية. وعندما أسمع الطقطقة في فنائي، أعرف أن لدي زيارة؛ لأن عندي ثلاث نوافذ تطل على الفناء. ولكن من غير المجدي النظر إلى معرفة من بحاجة إلى مصروف جيب؛ فالخوذات تجعلهم جميعا يشبهون بعضهم بعضا. لكن القلب ينبض بسرعة، وأظل أترقب معرفة من الذي يصعد أدواري الثلاثة ويدق جرس بابي، وتكون تلك هي المفاجأة الكبرى. والمثير للعاطفة أن تكهناتي دائما لا تصدق أمام الواقع، ولكن أخيرا يأتون جميعهم. وهم يعرفون أن المنزل بحاجة إلى النقل، جميعهم عدا زوب الكبير. وبديهي، مع

وجهه وهيكله العظميين، أنه لا شيء لديه ليبيعه. ومع ذلك، فلا شيء ينقصه أبدا. زوب الكبير. لقد استغرقت زمنا لأفهم، وما وضح أمامي في النهاية، أن كل شيء يمر على أفضل وجه. أريد القول إنه لم يحدث أبدا هرج أو مرج بالفناء أو على السلم، ولم يحدث أبدا مرور بلا طائل. إنه نجاح متسق لزيارات راكبي الدراجات النارية، ومتنوع أيضا أكثر منه منتظم. أنت متطلع، أليس كذلك؟ حسنا، أنا أفعل مثل فولتير، الذي نظر إلى السماء قائلا:

الكون يعانقني، وأنا بوسعي التفكر

هذه الساعة موجودة لكنها دون ساعاتي

لقد بحثت عن الساعاتي، وعثرت عليه. خمن من هو؟ إنه زوب الكبير! ساعاتي يتقاضى أجره بطبيعة الحال من ساعته، أعني بواسطة الإلكترونيين الصغار، الذين يضبط لهم الدائرة.

وتوقف على سلم الطابق الثالث، وسأل إدريس، وهو يبحث عن مفاتيحه:

ـ هل تعلم لماذا أقص عليك كل ذلك؟

ـ لا

ـ هذا، صدقني، ليس من أجل متعة أن أكشف لـك بوقاحـة دناءة حياتي الشخصية. بل من أجل ألا تذهب منجذبا إلى الإلكتروني حيث زوب البشع لا يطلب إلا أن تنخرط طوّعـا أو كرهـا ضـمن مواشيه. أتفهم؟

ـ ليس بالضبط، على ما أعتقد.

هما الآن في شقة صغيرة فخامتها معاكسة تماما لبؤس البناية.

ـ انظر، كيف أن ماج، بعيدا عن كل شيء، ليس إلا انحرافـا وعفونة، وحل ووسخ. يدفعون بابي، ويجدون هنا كل شـيء فخمـا وجميلا، هادئا وشهوانيا. لكنك لم تفهم جيدا، أليس كذلك؟ اجلس هنـا في مواجهتي، وقل لي أخيرا يا غلامي الصغير، من أين أتيت لتكون بهذه السذاجة؟

ـ أنا أقيم بمأوى سوناكوترا بشارع ميرها.

ـ لا، أعني قبل ذلك، من الجزائر أم بون أم وهران؟

ـ من تابلبالا.

ـ تابل ماذا؟

ـ تابلبالا، واحة في عمق الصحراء.

ونهض ماج تقريبا، واقترب من إدريس، ونظر إليه مليا، وهو ما ضاعف من حول عينيه:

ـ من عمق الصحراء في قلب الرمال؟

ـ ليس الرمل فقط، ولكن هناك الزلط قبل كل شيء، والأرض اللينة الفسيحة كما يقال.

ونهض ماج، مضطربا، وتوجه شبه مترنح نحو المكتبة، وعاد ومعه ورقة رسم وقلم أصفر:

ـ من فضلك، ارسم لي جملا.

ـ ماذا؟ جمل؟

ـ نعم، ارسم لي جملا.

وشرع إدريس يعمل بانقياد. وتوجه ماج إلى مكتبته، وسحب منها ألبوما مصورا، وعاد ليجلس أمام إدريس، وأبدل عويناته ثم قرأ بصوت عال:

هكذا عشت وحيدا، دون أي شخص أتحدث معه حقا، إلى أن حدث لي حادث بالصحراء منذ ست سنوات؛ فقد انكسر شيء في محركي. ولأنني لم يكن معي ميكانيكي أو مسافرون، استعددت

لمحاولة التوصل وحدي لعملية إصلاح صعبة. وكان ذلك بالنسبة إلي مسألة حياة أو موت. وكان معي بالكاد ماء شرب يكفيني ثمانية أيام. وفي الليلة الأولى نمت على الرمل على بعد ألف ميل مـــن أي أرض مسكونة؛ فكنت أكثر عزلة من غريق على طوف وســط المحــيط. وبوسعكم تخيل ما فوجئت به مع استيقاظي في الصباح عندما أيقظني صوت طفولي غريب قائلا...

ــ أنا من تعرفني الماعز والخراف والجمال، قال له إدريـــس وهو يقدم له رسمه، فلم أر إلا هذه طوال طفولتي.

ــ وهكذا، تابع ماج رافعا عينيه صوبه، هكـــذا، وفـــي قلـــب الوحدة الشديدة، مع محركي المكسور، رأيت أميرا صغيرا مقبلا من الرمال. إنه أنت يا إدريس.

ونهض إدريس لمحاولة إزاحة التخيلات التي تهدد ثانية بخنقه، كما لو أنه في سبكة من الصور:

ــ هذه حكاية أخرى لا أفهمها؛ الصحراء! كل الناس تحـــدثني عنها منذ أن تركتها؛ في بني عباس، وضعوها فـــي متحـــف، وفـــي بيشار رسموها على لوحة، ورأيت في مرسيليا إعلانا عن فـــراديس الواحات، وتعشيت مع ماركيز، قص علي حكايـــة أنتتيـــال م بنـــوا،

والجنرال لابيرين مؤسس فوكولد والفيلق الأجنبي. والآن أنت وأميرك الصغير. لم أعد أفهم شيئا. ومع ذلك هذه الصحراء تقع هناك حيث ولدت أنا!

ــ ولكن أخيرا، الوحدة. وحدتي أنا. ماذا أنت فاعل بالوحدة؟

ــ الوحدة! ما معنى هذه هي الأخرى؟

ــ أنا أقول لك. إنها محرك مكسور ولا أحد، أتسمعني؟ لا أحد!

وأنت الذي تأتي فجأة برأسك الصغير الجميل من المجهول كما أحب!

وأمسك به من كتفيه. وضغط على خديه بيده وهو يهزه بشدة:

ــ حسنا، اسمعني جيدا يا إدريس قلبي، إدريس، مؤخرتي. أنت متشرد فقير، لأنك حللت بشعرك الأكرت وسحنتك الموريتانية. وأنا غني متمكن، أصنع أفلاما للتلفزيون. هذه مهنتي. أعرف كل باريس. عملت مع إيف مونتان، وجان لوبولان، وماري ماتيو. وأتغدى مع مارسيل بلوال وبرنار بيفو. لكن الحقيقة الواقعية هي أنني أيضا متشرد فقير وبحاجة إليك. أنا بحاجة إليك. أتسمعني؟ هذا ملهم أليس كذلك؟

ــ أنت بحاجة إلي! لماذا؟

ــ لماذا؟! لماذا؟! أتتظاهر أم أنك بالفعل غبي؟! لكي أحيا بحق الإله!

واستدار وخطا بضع خطوات في الغرفة، ثم عـــاد لـــيجلس، واستطرد في صوت أهدأ:

ـ بدءا من الغد سأعمل في فيلم إعلاني بأســتوديو فرانكيــر. سأستأجرك، وأنت فضلا عن ذلك عملت معي من قبل. أتــرى؟ أنـــا بحاجة إليك لتصوير فيلم.

وجلس إدريس في مواجهته. ومأخوذا بمهنته، شرح ماج:

ـ إنه إعلان من أجل صودا بالفواكه تدعى تمرية. أجل، هذه القذارة اسمها تمرية. علي أن أبحث عن عيناتها في ثلاجتـــي. وفـــي الصيف المقبل، بفضلي، ستشرب فرنسا كلها التمرية. إذن هذا يبـــدأ من الصحراء. وهناك مكتشفان يجولان نصف موتى من العطش في الرمال مع جمل. وفجأة يتم إنقاذهما!

#

ـ كم أعطاك بيجلو؟

نزل إدريس وحده إلى شارع دي شارتر، وكان لديه موعد في الغداة بأستوديو فرانكير مع ماج وفريقه. لكنـــه لـــم يـــذهب بعيـــدا؛ فالغلمان، بأحذيتهم وخوذاتهم كانوا يرصدونه. وحاصروه عند أحـــد الأبواب. وكان زوب الكبير هو الذي راح يسأل. وتعرف إليه إدريس سريعا رغم وضعه للخوذة:

ـ رأيناك تصعد معه. كم أعطاك؟

ـ من؟ بيجلو؟

ـ نعم، السيد ماج، إذا شئت، هكذا ندعوه بالإلكترونية. فلا تدعي البلاهة وهات النقود.

ـ لم يعطني شيئا. أقسم لك!

ـ فتشوه!

وبدأ إدريس يدافع عن نفسه ضد أيدي شخصين آخرين شرعت في تفتيش جيوبه. ودفعت رأسه صفعة جعلتها تصطدم في الخلف بالباب. لكن التفتيش لم يسفر إلا عن بعض قطع نقدية، نظر إليها زوب باحتقار شديد، ثم رماها على الرصيف.

ـ ضع هذا في رأسك جيدا، أيها البائس التعيس. بيجلو لنا نحن فقط، ولا مجال لأن تستغله لحسابك. وسوف تحصل منه على ما تقدر الحصول عليه، ولكنك ستمر بالإلكترونية، وستعطي كل ما معك، كل ما معك. هل هذا واضح؟ ستعطيه لي أو لأحد هذين الاثنين. ونحن بالتالي سنعطيك نصيبك. وشددت صفعة ثانية على هذه التعليمات الحاسمة. وابتعد الثلاثي بأحذيتهم ذات الكعوب العالية. ونهض إدريس، وفرك وجهه وشرع يبحث عن نقوده بين بلاطات الرصيف وفي مجرى البالوعة.

#

أنصت عاشور وهو يهز رأسه بأسى:

ــ إذن، هل ضربوك؟

ــ قليلا، ليس كثيرا، أوضح إدريس.

ــ والسيد ماج، ماذا قال لك أيضا؟

ــ قال لي: "إن الغلمان يدعونني بيجلو، لأنني أشبه الديكة في نظرتي. ولكني عندما أحول تصبح نظرتي أشبه بالغمزة".

ــ تذكر جيدا، هل أعطاك شيئا شربته؟

ــ أجل، مشروبه الجديد، ويدعى تمرية، وهو جيد تقريبا. ليس به كحول. أجل تمرية الذي سينتج له فيلما معي. فيلم ثلاثين ثانية، وسيكون فيه أيضا المغني ماريو.

ــ هل يدخن؟

ــ لا، لكنه أعطاني سيجارة. وقلت له إنني لا أدخن، فقال لي: "وأنا أيضا. وقد مضت عشرون سنة منذ أن دخنت آخر سيجارة. فطعم الدخان لا أجده بعد على سوى فم الغلمان، وقد صار بالنسبة إلي رائحة الرغبة" فماذا يعني ذلك؟

ـ لديك ذاكرة عظيمة، فقد حفظت عن ظهر قلب هذه الجمل كاملة، ولكنك حقا لم تفهم الكثير.

ـ لأني لم أفهم نصف ما قاله، لذا حفظت كل شيء عن ظهر قلب. فهذا يعوض بعض الشيء.

ـ وماذا قال السيد ماج أيضا؟

ـ قال: "أنا أرى في أعين الغلمان صورة عمة سمينة عاطفية حولاء، ومحشوة بالمال. ولا أستطيع الاقتناع بأن هذه الصورة هي أنا".

ـ وهل لديه بالفعل نقود كثيرة؟

ـ لقد قال هذا، وقال الغلمان ذلك أيضا. ولا بد أن الأمر حقيقي. وفي ما يخص النقود قال: "النقود تتوافق بشكل رائع مع الجنس، أعط النقود لأي غلام ستغدو مالكا له، وهكذا يفعل الحب معه. فلا بد أنه يعاني في بعض الأحوال. والنقود التي سرقوها مني هي منه. والجنس أسقط حدود التملك" فماذا يعني هذا؟

ـ ماذا قال لك أيضا؟

ـ قال لي إن بيننا موعدا وإنه يجب ألا أخلف به. وقد كتبت العنوان: ٢٧ شارع فرانكير، غدا في السادسة صباحا.

ــ كان عليه التفكير في نوع آخر من المواعيد. لكنه وجد أن هذا شديد التعقيد بالنسبة إليك.

ــ هذه ليست غلطتي، فأنا جئت من الخارج.

وسكت عاشور لحظة ليتابع فكرة لامعة، لكن من الصعب الإمساك بها:

ــ أنا ألاحظ شيئا. انظر، نعم حسنا. أنت جئت من الخارج؛ أنت جئت من تابلبالا، وأنا أيضا. فقط أنا، وهذا أمر غريب، لم يصورني أحد. وعندما وصلت هنا، تركوني بالأحرى في حالي. أما أنت، فقد بدأ أمرك مع المرأة البيضاء ذات اللاندروفر التي صورت وجهك. ثم لم يتوقف هذا الوضع، وها أنت الآن ستذهب إلى السينما!

ــ لا، أجاب إدريس. على الأغلب لدي اهتمام ولكن كل مرة تضيع مني الفرصة.

ــ هذا أيضا غير عادي! لأننا بدورنا محرومون من كل شيء، وليس لدينا سوى الحلم نحيا عليه. والحلم بالطبع هو السينما التي نعرضها لأنفسنا؛ فالسينما تجعل منك رجلا غنيا، مترفا، يجول بسيارات أنيقة مكشوفة، ويسكن في أماكن بحمامات مفضضة، ويقبل النساء المعطرات، المليئات بالمجوهرات، على أفواههن. السينما هي أستاذ مدرستنا. فعندما تأتي من البلاد، من الذي يعلمك كيف تجلس

في المطعم، وكيف تحضن امرأة؟ إنها السينما التي تعلمك. وكم من أهلنا لا يمارس الحب إلا في السينما! ليست لديك فكرة. وهذا أيضا شديد الخطورة بالنسبة إلى الفتيات عندنا؛ لأن السينما تعلمهن أشياء يمارسنها بعد ذلك في البيوت. وآباؤهن وإخوتهن الكبار يضربوهن باللكمات، وبالعصي كي يخرجوا من جلودهن الأشياء القذرة التي تعلمنها بالسينما. وأنت، ها أنت لن تذهب إلى السينما، ولكن السينما ستصنعها أنت! لقد صوروك، وصنعوا لك فيلما، وغدا سوف تبدأ!

ــ هذا ليس خطئي، كرر إدريس.

كل شيء مضى على نحو سيئ في أستوديو التصوير رقم ٥ في فرانكير؛ فالعرف الأسود، والذقن الجوبترية لماريو لم تعد تشع التفاؤلية الملكية، والعرق الذي يلتمع على جسمه ضاع أثره بفعل الصبغة. وكان كرشه يتدلى على نحو بائس فوق تنورته المصنوعة من الورق وسعف النخيل. وواجهه ماج وهو يكشر. كانوا قد وصلوا إلى اللحظة الحرجة من جلسة تصوير عندما لم يعد المخرج البائس يرى إلا حلا وحيدا: "تقليد أدوار كل الممثلين" وبعد ذلك القيام بوظائف المصور وعامل الإضاءة وحامل الميكروفون. وفي هذا الجو الثقيل، ارتفع أشيل ماج لقمة عبقريته، ومحاطا بإلهام معطل، تحول وهلة إلى مطرب أغان خفيفة؛ فصار هو ماريو، ماريو الحقيقي الذي تم توظيفه، والذي يسطع بحيوية اتصالية.

ـ تم تم تم تمرية! غنى ماج وهو يغضن مـا تحـت العـين الذاهلة لمطرب. انظر، أنا قوي، ومرح، وأتألق، ولمـاذا أرجـوك؟ لأنني أشرب الـ الـ التمرية... موسيقى من فضلك!

وقام عامل الصوت بتشغيل الموسيقى الاسـتهلالية لإعـلان التمرية. وراح ماج، الذي أصابه هياج يرقص وهو يحدق على نحو مخيف بحول من خلال عويناته. وفجأة توقف:

ـ ستوب! صمت! أوقف فورا هذه البضاعة الرثة!

وعم الصمت، واعتدل ماج، وصار فجأة وقورا، مهيبا، ملهما:

ـ اسمعوني جميعا! "تمر" هو عنوان واحدة من أجمل قـصائد بول فاليري:

بفضله الذي لا يبارى

الذي يحجب بالكاد العظمة

وضع ملاك على مائدتي

الخبز الطري، واللبن الوفير

وأشار إلي بجفنه

إشارة صلاة

تتحدث عن رؤيتي

ـــ اهدأ اهدأ كن هادئا

اعرف وزن النخلة

وهي تحمل طرحها الوفير

أيها القديس فاليري، اغفر لنا خزينا! سنعيد كل شيء يا أطفال. الكل في مكانه، كلاكيت من فضلك! حركة. وهرع عامل الكلاكيت أمام الكاميرا بلوحه الأردواز وهو يصيح: "تمرية، واحد، المرة الرابعة عشرة!". وظهر اثنان من المكتشفين، في صحراء من الكرتون بأردية كاكية اللون، وخوذات كولونيالية، يتسللان وهما يتأوهان، وظهر جمل هزيل يتبعهما، ثم انهار أحد المكتشفين، وسنده رفيقه وراح يتأوه: "أريد شرابا! أريد شرابا!" وتساءل الآخر: "شرابا؟ أي شراب؟" فاعتدل المكتشف الأول فجأة، متهلل الوجه، مشيرا للأفق: "تمرية! ـــ تمرية! ـــ أجل، تمرية. لقد نجونا!"

قطع! صاح ماج. ليس هذا إطلاقا! أتفهم؟! أنت لم تضع مزيدا من المصداقية، وهذا ليس مضحكا. عليك أن تثير الضحك. نعم، ولكن بإقناع! فهذا هو سر صناعة الإعلان الجيد.

وقام بدوره بتمثيل الدورين.

ـــ شراب، شراب، أي شراب؟ تمرية! تمرية؟.نعم، كأس من التمرية. لقد نجونا! هيا لنعيد الكرة. الجميع في مكانهم. كلاكيت. المرة الخامسة عشرة. حسنا هيا، الجمل. أين ذهب الجمل؟

وألقى بنفسه في الديكور بحثا عن الجمل. ووجده أخيرا في ركن الأستوديو مع إدريس الذي كان يحدثه وهو يربت عليه.

ــ آه، بالطبع. أنت تعرف كيف تكلمه، أنت. كيف كنت تحدثه؟ بلغة الجمل؟!

ــ لا، بالبربرية، إنها لغتي.

ــ حسنا إذن، قل له بالبربرية إننا سنعيد المشهد من البداية! هيا يا أولاد. الكل في مكانه. كلاكيت!

وعاد المكتشفان لتسكعهما الزائغ في الصحراء. ووصلا هكذا إلى ديكور من الزهور البلاستيكية. ورحبت بهما مجموعة من المغنين والفتيات اللاتي أتى بهن ماريو. وراح الجميع يغنون "تمرية" حول نافورة يتدفق منها سائل أخضر معدني. وقاطعهم ماج.

ــ قطع، ليس هكذا ثانية. لا بد من جعل المشهد واقعيا. أتسمعونني؟ هذا ليس أوبريتا. ولو أنكم لم تصدقوا في ما تفعلون، فلن تبيعوا بضاعتكم. إنها ألف باء الإعلان؛ فالإعلان هو الأمانة!

وشرع مع إرهاقه يمثل كل الأدوار دفعة واحدة. وتوقف لاهثا وشرب من زجاجة قدموها له.

ـ أتفو! ما هذه القذارة؟ تمرية!. علي أن أشك في ذلك. أليس لديكم زجاجة جعة؟ هيا لنعيد المشهد. ولكن لكي نقوم به حفظا، لنكرر الشعار: "النخل به تمرية". هيا، الكل معي، حتى الفنيين: النخل به تمرية! والآن، الكل يشرب. واحد، اثنين، ثلاثة، هوب! أين الجمل؟ الجمل اختفى ثانية. يا إدريس، جملك يجب أن يشرب أيضا! وأنت خذ، سيكون ذلك أكثر واقعية مع مصاصة! يا إدريس أحضر جملك، وقل له بالبربرية إن عليه أن يشرب تمرية بالمصاصة!

#

متأخرا، في المساء، تجمع كل فريق العمل في مقهى فرانكير للاحتفال بانتهاء العمل في إعلان التمرية. ورغم التعب، كان الجو يمتلئ بالمرح. ممثلون وفنيون يحيطون بماج في محاضرة نقدية صداقية.

ـ أنا، ما أحمل همه هو ما سيحدث في المونتاج. لأننا نعلبه، وليس لدينا سوى فكرة مبهمة عن أمور دقيقة. فلا بد من جعلها خمسا وأربعين ثانية. أتدركون؟

ـ لا، من المستحيل أن نتخيل ذلك عندما نصور.

ـ إن روائع السينما ولدت على منضدة المونتاج! نطق ماج وهو يرفع إصبعا.

ـــ ما هو مؤكد، أن الإعلان هو قمة السينما. في كل وجهات النظر، التقني منها والفني والنفسي.

ـــ نعم، هذا حقيقي. أنا لا أشاهد شيئا على التلفزيون سوى الإعلانات. وكل باقي المعروض يعمل على تغليبها عند المقارنة.

ـــ أنا أيضا عندي جهاز فيديو، مخصص فقط لتسجيل الإعلانات. وفي بعض الليالي قبل أن أنام، أعرض به قسما كبيرا منها.

وتهلل ماج، مسرورا، وهو يسمع هذه الأقوال.

ـــ ما ألطفهم، شباب فريقي! ألكي تنافقوني تقولون هذا؟ حسنا. لأنني أنا، هل تعرفون من أنا؟ أنا إيزنشتين الإعلانات!

ـــ منذ أيام قلت إنك أورسون ويلز الإعلانات.

ـــ ولم لا؟! وغدا سأقول: لايل جانس الإعلانات.

ـــ إنه غريب هذا الغلام! لديه ما ليس لأحد غيره. ولكن من نحن؟ أنحن غير موجودين؟ هل قمت به وحدك إعلانك هذا؟

ـــ ولكن لا؛ فقبل ماج، كان العمل السينمائي يشبه الكاتدرائية القوطية. وهذا عمل فريق، كتب ذلك هيجل. ومع ذلك، فلا بد لكل فريق من عقل!

وتعالت الصيحات التي رحبت بهذه الأقوال، وقاطعها وصول رجل صغير ذى شعر أكرت، هو الريجيسير المشغول دائما بأسئلة إدارية، واتجه نحو ماج:

ـ قل لي يا معلم، في ما يخص الجمل، ماذا سنفعل بالجمل؟ إنه مربوط بفناء الأستوديو.

ـ الجمل! أي جمل؟

كانت التمرية، وكل ما ارتبط بها، قد صارت الآن من الماضي الذي انتهى بالنسبة إلى ماج.

ـ حسنا، جمل الإعلان عن التمرية، ماذا سنفعل به؟

ـ ما معنى ماذا سنفعل به؟ سنعيده لمالكه. لقد استأجرناه مدة التصوير، أليس كذلك؟

ـ لا، أبدا، فرئيس السيرك لم يكن يريد تأجير جمله. لا، لا. لقد باع لنا جمله بقضه وقضيضه. قلت لك هذا. وكان سعيدا بالتخلص منه. فهو حيوان عجوز، منهك، معتل.

ـ إذن، فزع ماج، فالمالك هو نحن؟

ـ بالضبط. أوضح الريجيسير بصرامة. إنه جملك، فماذا أنت فاعل به؟

ـ بالمحصلة، تدخل أحد المساعدين، إنه كالعمال المهاجرين، نعتقد أننا نستأجرهم، وبوسعنا بعدها إرسالهم لبلادهم، عندما لا نكون في حاجة إليهم. وأتصور أننا اشتريناه وعلينا أن نحتفظ به في فرنسا.

وفكر ماج، ولكن بحسب تعوده، راح تفكيره في اتجاه غير متوقع.

ـ قبل كل شيء، قال، أريد أن نشدد على نقطة مصطلحية. هل هو جمل أو هو بعير ذو سنام واحد؟

ـ ليس له إلا سنام واحد. قال عامل الإسكريبت. إذن هو جمل.

ـ بالضبط العكس، فالجمل له سنامان؛ فهذا الحيوان ليس إلا بعير، إنه إذن بعير.

ـ لا، إنه جمل، تدخل المصور.

ـ بعير. ألح ماج، فمعنى جمل هو سنامان.

ـ لا، إطلاقا، إنه العكس.

وخبط ماج على المنضدة:

ـ اخرسوا! فالوحيد هنا الذي يعرف عن ماذا نتحدث ظل صامتا هادئا على طرف المائدة. يا إدريس، يا ولدي، هل أنت جمال أم راعي بعير في فريقنا؟ أي هل أنت تسحب الحيوان أم تصحبه؟

وكان إدريس بالفعل واقفا:

ــ إلى أين أصحبه؟

ــ صحيح، إلى أين تريده أن يصحب جملك؟

ــ آه، صمتا، كشر ماج. لقد انتهى اليوم، أليس كذلك؟ أحضروا لي دليل التليفون.

وعقب الرواح والمجيء، عثر على دليل تليفون. وبدل ماج عويناته، وبلل إصبعه، وشرع في البحث:

ــ أ ب ت، أباسيدير، أبادي، أباجورة. أباجورة، أباجورة.. ما لا يصدق أنه تم هنا تصنيع الأباجورة في باريس. باريس عاصمة صناعة الأباجورات. إنها غلطة بول جيرالدي:

أخفض قليلا ضوء الأباجورة، أترغب؟

ففي الضوء الخافت تتحدث القلوب

وترى الأعين بشكل أفضل كثيرا

عندما تتضاءل رؤيتنا للأشياء..

آه، هذا ما أبحث عنه. مجزر، مجزر. ليس هذا أكثر من بول جيرالدي، ولكنه الأكثر على الإطلاق. خذ عندك، هذا مجزر ليس بعيدا عن هنا. مجزر الخيول بشارع فوجيرار. ١٠٦ شارع برانكيون، الحي الرابع عشر. هذا للجمل!

وأراد إدريس أن يرحل.

ـــ ما زال الوقت مبكرا. ابق معنا يا جمالي العزيز!

#

كانت الليلة قد قاربت نهايتها عندما خرج إدريس من فناء أستوديوهات فرانكير، ساحبا بطرف حبل الظل المرتفع والبائس جمل التمرية. وقد سجلت ذاكرته تعليمات غامضة إلى حد ما، أفاضوا بها عليه للعثور على مجازر الخيول بفوجيرار. واستنتج في كل الأحوال أن عليه أن يعبر باريس من شمالها لجنوبها. ولم ترهبه المسافة؛ فقد كانت الأبدية أمامه. لكن الجمل ليس دراجة. وكان الظل الهزلي المحزن يبزغ في الفجر الرمادي الممطر لباريس ليدهش العابرين، ويزعج رقباء المدينة. ومن البداية، ألزم أحدهم إدريس أن ينزل من على الرصيف ويسير في نهر الطريق، محاذيا للسيارات المركونة. لكن شاحنات النقل كانت مصفوفة في خط ثان مشكلة عوائق خطرة، وكانت إحداها محملة بالخضر. واستنتج إدريس أن الجمل اختطف قنبيطة في طريقه، وقدر بشدة تعرضه إلى الخطر بفعل براز الجمل. وفضل التوقف وتركه يأكل قنبيطته عند البالوعة، وهو ما حدث مع رغاء الجمل ببطء شديد وبنجاح. ومن ثم عاود السير، وانزلقت الوسادات المبتلة للجمل على البلاط الرمادي. وسقطت قطرات مطر ناعمة على وبره. ومع ذلك، شعر إدريس بالراحة على نحو غريب

لهذا الحضور الهائل والتائه. وفكر في أراضي تابلبالا، ورمال بني عباس. وبينما هو يدور حول السيارات ويتوقف أمام الإشارات الحمراء، ويمر عبر الأنفاق؛ تناهت إلى سمعه أغنية زت زبيدة:

فرس النبي يرفرف على الماء

والجرادة تزن على الحجر

فرس النبي يرفرف ولا ينشد كلاما

الجرادة تصرصر ولا تنطق بكلمة

لكن جناح فرس النبي أهجية

لكن جناح الجرادة مكتوب

أهجية تحبط خدعة الموت

مكتوب يكشف سر الحياة

ووصلا أمام جائط عال، خلف ما يمكن تخمين أنه أشجار. وعقب هذه الليلة من الأضواء الكهربية، ودخان السجائر، ود إدريس أن يستريح بإحدى الحدائق. ووجد بوابة واسعة مفتوحة. ولم تكن هذه حديقة بالفعل، رغم الخضرة؛ كانت مقبرة مونمارتر. وفي تلك الساعة لم يكن بها أحد. وكان بجوار الكنائس المزخرفة بعض

المدافن القائمة الزاوية. واضطجع إدريس على إحداها، وسرعان ما غط في النعاس. فكم من الوقت مر على نومه؟ إنه وقت وجيز بالقطع. لكنه انتقل فيه إلى مقبرة أخرى، مقبرة وهران، التي اقتادته لها لالا راميريز. فكانت المرأة العجوز حاضرة، ووبخته بعنف وهي تلوح بقبضتها رافعة ذراعها الهزيلة. وبخته بالفرنسية، وبصوت رجل، وأخيرا هزته من كتفيه فصحا. كان رجلا مشوربا يرتدي كاسكيت بمقدمة لامعة ينحني فوقه، وهو يأمره بخشونة بالانصراف من المكان هو وجمله. وجلس إدريس على شاهد المدفن. كان الجمل قد قام بتخريب مقبرة مجاورة كانت الورود الموضوعة فوقها ما تزال طازجة، وتمكن من انتزاع إكليل جنائزي أعجبه، وشرع في انتزاع وروده بهدوء منهجي. واختنق الرجل ذو الكاسكيت، وتحدث بعنف عن انتهاك المقبرة، ذاكرا بشكل حرفي المادة ٣٦٠ من قانون العقوبات. وتطلب الأمر النهوض، وتجريد الجمل من أزهار الكريزانتيم التي في فمه، والبحث عن مخرج من متاهة الأنصاب الجنائزية. وعبرا ميدانا، وسوقا، ومحطة حافلات. ولم يكن قد حدث من قبل أن قام إدريس بمغامرة الابتعاد عن حي بارباس. ولم تخطر في أي لحظة على باله فكرة أن يترك الجمل ويعود إلى مأوى شارع ميرها. وشعر بشكل ما أنه متضامن مع هذا الحيوان. لقد أجبره هذا الجمل على هذا التسكع الكارثي السخيف، لكن كان هناك نداء

الواجب البدوي الصحراوي الذي يعيش في أعماقه. وكان واضحا، فضلا عن ذلك، أن المارة أخذوا أكثر فأكثر يكفون عن النظر إليه كلما ابتعد عن المناطق الشعبية ليصل إلى الأحياء الراقية. وفي محطة سان لازار، وبعد ذلك في ميدان المادلين، وشارع رويال، لم يكن هناك أحد يلاحظ قافلته الغريبة في الزحام المتعجل بهذا الصباح الباكر. وعقب العبور الخطر لميدان الكونكورد، شرع في محاولة النزول إلى حافة نهر السين ليفلت من جحيم حركة المرور. وكانت سحب الضباب تطفو على المياه السوداء. وأسفل جسر ألكسندر الثالث كان المتشردون الذين التفوا حول نار صغيرة أشعلوها في القمامة يتشاتمون بمرح وهم يلوحون بزجاجات النبيذ الفارغة. وكانت هناك امرأة تنشر غسيلا ليجف، على زورق، وأوقفته، ونادت على طفل لكي تريه الجمل. وهرع كلب نحوه وهو ينبح. ومجددا، لأن نسيج العلاقات الاجتماعية انبسط وصار مرئيا، سار بمحاذاة القوارب السياحية، وصعد إلى الضفة؛ وسار على جسر ألما، باتجاه برج إيفل، ومر من تحته برأس مرفوعه، ونظرته تائهة في تعقد المخارج الصغيرة. وقام الجمل، الذي لم يثر شيئًا انفعاله حتى هذه اللحظة، بوثبة مفاجئة مصدرا زفرة مبحوحة أمام رجل من يمسك بطرف عصا بمجموعة من البالونات الملونة. وأخيرا، عثر على شارع فوجيرار الذي رن اسمه في أذن إدريس بوصفه مفتاحا

للخروج من التيه الذي ولج فيه منذ عدة ساعات. لقد قيل له بالفعل: شارع فوجيرار، ثم شارع برانسيون، وفي هذا الشارع الأخير، برقم ١٠٦، مجزر الخيول. وسلك طريق شارع الموريون، عندما فوجئ بقطيع من البقر، كانت خشخشة حوافرهم على حصباء الطريق، وخوارهم المختنق، وفوق كل شيء رائحة الزبل التي تحيطهم، مفاجأة أيضا في الأماكن التي سيذهب إليها جمل التمرية. وبدا فضلا عن ذلك، أن الجمل كان حساسا للوجود الحيواني لقطيع البقر، لأنه انتفض واحتشد، وتخطى إدريس، وشرع يخب في مشية متخلعة ليلحق به. ووصلا هكذا أمام بوابة ٤٠ شارع موريون التي عليها رأس ثور من معدن مذهب. وبطبيعة الحال فإنه لو أن الخيول تدخل موقع الموت هذا عبر شارع برانسيون، فذلك لأن البقر تذهب إلى الجحيم عبر شارع موريون. وهى جحيم لها أولا وقبل كل شيء مظهر مألوف بل مطمئن. ووجد إدريس نفسه في مرابط واسعة من الخشب والقش، دافئة تفوح منها روائح العلف والروث، في جو من الخوار الرقيق والهادئ، ومن التنهدات والتقلقلات الناعسة. وكان هناك، وهذا حقيقي، على الناحية الأخرى من المرابط، بوابة صغيرة يخرج منها البقر بهدوء، الواحدة بعد الأخرى، بغير أن تتعثر، كما لو أنها ذاهبة إلى العلاج أو إلى المرعى. وكانت هذه البوابة تفضي إلى ممر ضيق فوق مصطبة، تصعد حتى فتحة المقصلة وتطل على

صالة ضخمة. وعلى الممر الضيق تنتظر البقر، ورأس كـل منهـا مستندة إلى كفل التي سبقتها، في انقياد كامل آمن. أو كما يمكـن أن يقال، باعتبارها خادمات شجاعات تقفن في الطابور، وسـلالهن فـي أيديهن، عند باب محل. وتنفتح المقصلة، وتتقـدم البقـرة الأولـى، وتنغلق المقصلة خلفها، لتجد نفسها محبوسة في إطار مرتفـع عـن الأرض. وينتظر القاتل حتى يتموضع رأس البقرة المتنيحة في مكان مناسب، ويدفع بحربته في منتصف الجبهة، بين العينـين الواسـعتين القلقتين اللتين تنفتحان عليه. وما هي إلا طرقة واحدة قوية حتى تخر البقرة على ساقيها، ويختفي الحاجز الأيسر، ويتدحرج الجسد الكبيـر بالتشنجات. وينقلب فوق الشبكة المعدنية التي على الأرض. ويهـبط الجزار، ويقطع الشريان السباتي، ثم يربط القائمـة الخلفيـة اليمنـى للحيوان بسلسلة تهبط من رافعة هوائية. وتعلـو السلـسلة، ويرتفـع الجسد بقائمته، كأرنب أمسكه صائد عملاق وراح يلوح به بذراعـه. وينزلق الجسد على سير متحرك، لترشه نافورة مياه. وترتفع القائمة اليسرى في الهواء وهي تختلج. وينضم الجسد الدافئ المخـتلج إلـى أجساد أخرى مشابهة تعج بها صالة التعليق الجنازية الكبيـرة. ويـأتي الرجال المغطاة رؤوسهم وأرجلهم بالمشمع، ويهاجمونهـا بالـسواطير المعقوفة والمناشير الكهربائية. وينكشف الجلد المسلوخ عن جلاء هائل يلتمع من عضلاتها المتوهجة ومخاطها المبـرقش. وتـسقط الأمعـاء

المدخنة والبنفسجية والخضراء في أكياسها. ويقوم أحد العمال بإسالة الماء على الفضلات العضوية، ويتدفق صديد كستنائي على الأرض صوب شبكة الصرف. وتوقف إدريس فجأة مذهولا. وبدأ الظل العالي للجمل في الظهور في إطار البوابة المفتوحة. ونادى أحد الزملاء:

ـ قولوا لي، تعالوا وانظروا هذا. ما هذا بحق الله؟! لقد رأينا العجب هنا: بدوي بجمل! هذا ما يمكن القول عنه إنه كثير على فرنسا.

وتجمع بعد ذلك ثلاثة أو أربعة جزارين تحلقوا حول إدريس وبهيمته.

ـ هكذا، أتيت لنا بجمل كي تصنع منه بفتيك؟ أنت لا يعنيك شيء يا فتى، أليس كذلك؟

ـ هل حدث أن ذبحت أنت جملا؟

ـ أنا؟! أتهزأ بي؟ هل أنت الجزار الذي اشتريت هذا؟

ونزل المختص بالقتل من على منصته وتوجه إلى إدريس:

ـ أنا هنا لقتل البقر والخيول، ولا أعرف شيئا عن قتل الخراتيت، فأين نصوب لقتل جمل؟ هل على سنامه؟

ـ إليك نصيحة: خذه وأعده إلى إفريقيا، بلاده، ولا تجعله يغادرها أبدا.

ـ أو اتركه في مكتب الأشياء المفقودة. إنه على بعد خطوتين من هنا. بشارع موريون!

#

وغادر إدريس. ولكن قبل أن يغادر، كان من سوء حظ هـذا الراعي أن يمر بصالة ذبح الخراف. وكان هناك عـشرون خروفـا مذبوحة، ومعلقة من قوائمها وهي تختلج، كأنها مباخر، وقـد تـدفق دمها على الحوائط، وعلى الشغالين في مشهد مأساوي ساخر.

ولم يعد يعرف أين يذهب بجمله، وحل كل تعب الليلـة علـى كتفيه. وسار في الشوارع على غير هـدى، وراح يمـر بالـشوارع الكبيرة ويعبر نهر السين ثانية، ولديه انشغال مبهم بالعودة إلى مأوى شارع ميرها. ولكن لم تكن لديه فكرة عن أي الطرق يسلك. وكان ما جذبه هو الأشجار، التي تضاعف عددها أكثر فأكثر، ولمح على البعد تجمع أضواء. واستراح أخيرا لكونه أصبح يسير على أرض رخـوة في ممر يمتد بجوار سور يحيط بمنازل فخمة. وتخطى الجمل خطـا غريبا أزرق على أخضر، فعلا رنين جرس مـا مهتاجـا مطنطنـا. ووجد جمعا محتشدا من الأطفال أمام بوابة يتقدمها شـباك تـذاكر. كانت هذه حديقة الحيوان. وتبع إدريس جمله، وبالتأكيد تركوه يدخل، بفضل الجمل، دون تذكرة. وتردد لحظة بين وكر الجوارح و"النهـر

السحري". وكانت المفاجأة: جمل آخر هنا. وكانت على وجه الدقة ناقة، تحركت أذنها الصغيرة بإشارة ترحيب. وراحت البهيمتان تحكان خاصرتيهما، والتقى رأساهما المكتئبان المزدريان عاليا في السماء؛ وتدلت شفتاهما الكبيرتان وتلامستا.

ولاحظ، تحت مخبأ، برذعة مشدودة ومسرجة، وعربة صغيرة من الخشب المدهون، من نوع تلك التي تقطرها عنزتان. ورأى عددا من المراهقين متنكرين بعمامات تركية، ولباس حريري، وأحذية بلا كعب، يحومون حول جمله. ووضعوا فوقه غطاء موشى على ظهره، ولجاما بأجراس على أذنيه، وكمامة حول فمه. وكان الأطفال الصغار يتدافعون على ما يشبه السلم الكبير الأحمر، الذي كان يضعهم في علو مناسب كي يجتمعوا على ظهر الجمل.

وابتعد إدريس، ثملا من الإرهاق والسعادة. ودخل إلى قصر المرايا المشوهة، وشاهد نفسه منتفخا كالبالونة، أو على العكس في شكل خيطي نحيل، أو منقسما قسمين من عند حزامه. وأخرج لسانه لهذه الصور البشعة التي تضاف الآن إلى عدد آخر غيرها، وانتابته نوبة ضحك. ورأى جمله المزين يمر بفطنة وعلى ظهره مجموعة من الفتيات الصغيرات تصحن من السعادة الغامرة. وانتشرت الشمس في أوراق الشجر المواجهة للضوء، وكانت هناك موسيقى في الأرجاء.

كانت هناك الواجهات الزجاجية للمتحف الصحراوي في بني عباس. ولكن إدريس، في واقع الأمر، لم يكن يفعل شيئا منذ وصوله إلى باريس، سوى التنقل بين واجهة وأخرى. وعندما يعبر طريقا، كان ذلك يحدث دوما تقريبا بعد أن يشبع عينيه من زخرفة واجهة أحد المتاجر، كي يذهب ليرى واجهة المتجر المقابل الذي لاح له. وكانت محلات حي بارباس تعرض بضائعها على الرصيف، وتضع في متناول أيدي المارة السلال التي تتكدس فيها الأحذية، والملابس الداخليه، وعلب الأغذية المحفوظة، وزجاجات العطر. وكانت الواجهة التي تعلن عن تجارة من مستوى أعلى، ليس من الضروري ألا تفضي إلى نافذة بسيطة يمكن النظر من خلالها لداخل المحل، بصاحبه، وخزانته، ومضمار زبائنه. فالواجهة التي تستحق هذا الاسم تكون مغلقة بحاجز، وتشكل كيانا مقلقا، وممدودا بالكامل أمام النظر. لكن الأيدي لا تصل إليه، فيغدو غامضا وبلا أسرار، عالما لا يمكن لمسه بسوى العين، ومع ذلك فهو عالم واقعي، لا خيالي بالمرة، كعالم الفوتوغرافيا والتلفزيون. خزانة سرية هشة ومحرضة، وواجهة تدعو للتحطيم.

لم يكد إدريس ينتهي من الواجهات. وكان قادما من شارع بون نوفيل، إلا ووجد نفسه في ذلك المساء منقادا لشارع سان دينيس. ولاحظ نداء عطر الجنس يتعدى على كل شيء. وتذكر شارع

مرسيليا، وشارع توبانو، وقفز التناقض بين هذين الشارعين "الساخنين" مع ذلك أمام عينيه. فهنا، بدا أن الفتيات أصغر. وكن أقل بدانة على كل حال. ولم يكن بينهن الصنف الإفريقي، ولكن التناقض كان قبل كل شيء بمحلاته ذات الإضاءة المومضة والمزخرفة وبالأصباغ الثقيلة التي تغلف مداخلها. بما إن شارع سان دينيس مصنف بدرجة أعلى من شارع توبانو، وله مظهر راق، ملتهب وسري. محلات جنس. عروض حية. عروض استمناء. كانت الجمل الثلاث تلتمع واحدة وراء الأخرى بأحرف مضيئة على الواجهات. وكانت مناجاتها الثلاثية تعد الأعزب الشاب، المحكوم عليه بالعفة بفعل وحدته وبؤسه، بإشباعات عصبية في معانقة الصور الفاحشة. وعبر أمام ثلاثة محلات، ثم دفع الستار الذي ينسدل على باب الرابع.

ذرع أولا المكتبة، والكتب ذات الأغلفة الصاخبة والعناوين الملغزة التي تغطي حوائطها: زوجتي مثلية. حفلة ناعمة. ليال جنسية. ثلاث قداحات لسيجار واحد. تثنيات مؤخرات. العشق. ملاذ ونشوة الجماع. المرأة أصلها قرد. الوجه الخفي للقمر. وبالكاد تمكن إدريس من قراءة هذه الكلمات التي لم تثر شيئا في عقله. وعلى عكس ذلك كانت صور الأغلفة تعرض غزلا فاحشا وصبيانيا يحث على الدعوة للدناءة والهزل لا على الجمال أو الإغواء. ومع ذلك رأى أن هذه الصور فارغة من العنف، فإضافة إلى أن الأعضاء

التناسلية كانت مكشوفة بها في كل تفاصيل تشريحها، ظهرت الوجوه بشكل أقل وضوحا، بل بدت حتى في عدد من الصور غير مرئيـــة. وكان بهذه الصور ما يشبه المكافأة. فقد بدا أن الرجال أو النساء قــد تركوا تماما أجزاءهم السفلية للتصوير، إلى حد اخــتلاس مـــا هـــو أساسي في أشخاصهم. فهل كانت موائد الجزار في نهاية المطاف أقل تواطؤا في مجهوليتها عن صور البورتريهات الأكثر احتشاما في ما يظهر هنا؟

ولم تحدث الأدوات التي زينت مواضـــع العــروض وأرفـــف المحل إلا صدى ضئيلا في نفس إدريس. فقــط الملابــس الداخليـــة الناعمة بملمسها من الـــدانتيلا، والجــوارب المطاطيـــة، والألبــسة المتفسخة، ومشدات الصدور التي لم تثر سوى القليل مـــن ذكرياتـــه. لكنه أصيب بالارتباك أمام بطاريات القــضبان الذكوريـــة الهــزازة اليابانية من كل العيارات، البسيط منها، والمــضلع، والحلقـــي، وذو العقد، والمسنن بالأشواك التي لم يعرف لها اســتخداما. وبــدت لـــه مجموعة من السياط، المخصصة لاستعمال الساديين والمـــازوكيين، والمصنوعة من جلد البقر المجدول المبروم كالثعابين أكثر ألفة. كما بدت له الدمى من الكاوتشوك، التي تنفخ، مطمئنة تقريبا. وكانت ذات أشكال مرنة لا تخلو من الجاذبيـــة الأنثويـــة، ومتــصلبة، ومكتنـــزة

وباسمة معروضة أسفل سلم صغير يفضي إلى قاعة عرض الاستمناء، فارتقاه إدريس.

كان هناك رجل جالس خلف طاولة، أعطاه النقود الفكة في قطع من ذات الفرنكات الخمسة، وأشار له إلى باب القمرة رقم ٦ ذات المصباح الأحمر المطفأ. وكانت حجيرة صغيرة جدا، تكاد كلها تكون مشغولة بمقعد فسيح من الجلد أمام نافذة مغطاة. وجلس إدريس، ونظر حوله. كانت الأرضية تلتمع ببقع رطبة، وقد تناثرت عليها مناديل ورقية مدعوكة. وعلى الحائط الأيمن علبة معدنية بها شق عليه هذه التعليمات المقتضبة: ٢×٥ فرنكات = ٣٠٠ ثانية. ووضع إدريس في الشق القطعتين من ذات الفرنكات الخمسة المطلوبة. وفي التو ظهرت إشارة بالرقم ٣٠٠ وبدأت في التناقص ثانية بثانية. وفي الوقت نفسه انطفأ مصباح المقصورة، وارتفعت الشاشة التي غطت النافذة. وفرقعت قرقعة سوط على خلفية موسيقية منحطة. وبدا المشهد غارقا في ضوء شاحب مصفر. كانت هناك طاولة تدور ببطء، مخففة السرعة بواسطة سلسلة من المرايا. وكانت نوافذ المقصورات الأخرى مصنوعة من زجاج غير مغلف بالقصدير، كي يتسنى للمشاهدين أن يروا بعضهم بعضا. وكانت هناك امرأة لبؤة اضطجعت على خاصرتها مقابل الطاولة التي تدور.

كانت ترجرج شعرها الفخم الأشقر بابتسامة مريرة. وتحزم حقويهــا بفراء مذهب برزت منه مؤخرتها العارية، وأثداؤها المكورة. وكانت تقبض بكلتي يديها على ثدييها وتنظر بعينين مضطرمتين خضراوين مشدودتين، وهي تدعك خديها بحلمتيها، وتمد ثدييها بشكل متــضرع صوب إحدى النوافذ، كأنها أم تدعو منقذا مفترضــا لأطفالهــا. ثــم انقلبت على الأرضية وهي تتلوى من الألــم أو الــشهوة، أو الألــم الشهواني، الذي تصاحبه مع ذلك الموسيقى العذبــة، أســفل النظــرة العمياء للمرايا. وعندها صدرت فرقعة سوط جديدة لتمزق الموسيقى، وارتعشت اللبؤة، وانفتح فمها الكبير المحاط ببــسمة هازئــة ليزفــر بصيحة صامتة. ثم قوست حقويها وباعدت بين فخــذيها كــي تفــتح فرجها الحليق، الذي راحت الأظافر الطويلة الحمراء المدببة لإحــدى يديها تنقبض عليه. ثم استدارت على بطنها، وراحت فخذاها تتهيجان في تموج راقص على الموسيقى.

ثم نزلت ستارة النافذة. وأضاء مــصباح المقــصورة ثانيــة. ونهض إدريس وهو يرتجف من الرغبة المكبوتة.

#

ـ أنت مجنون لأنك ترغب في لقائها. قال له عاشور، هذه المرأة كأنها ليست موجودة!

ـ لكنها موجودة. احتج إدريس. لقد كانت هناك، على الناحية الأخرى من الزجاج. وكان بوسعي أن أكلمها كما أكلمك.

ـ هي موجودة بالنسبة إلى عينيك. وليست في متناول يديك. كل شيء هنا من أجل الفرجة فقط، ولا شيء من أجل اللمس؛ فنوافذ العرض شبيهة بالسينما أو التلفزيون، من أجل المشاهدة، فقط المشاهدة! هذه أشياء عليك أن تفهمها. وكلما فهمتها أسرع، كان ذلك أفضل.

لم يفهم إدريس بعد هذه الأشياء، فقد عاد صباح اليوم التالي لشارع سان دنيس، وعثر بغير مشقة على محل الجنس، ولكنه لم ينتبه على أن الإعلان المضيء لعرض الاستمناء كان مطفأ. ودخل المحل، ولم يكن هناك سوى العروس المطاطية في استقباله. وهي كما هي صلبة، وسمينة، وباسمة أسفل السلم الصغير. وصعد السلم. كانت أبواب كل المقصورات مفتوحة، وشاهد في إحداها ظهر خادمة بيدها مكنسة بها ممسحة، كانت ترتدي مئزرة رمادية، برزت منها أردافها عارية، منتفخة بالدوالي. وتوقفت، ثم عادت لتزيح علبة قمامة مليئة بمناديل الورق المجعدة، ولمحت إدريس:

ـ ماذا يريد الشاب الصغير؟

كان شعرها أسود مشربا بالبياض، قصيرا جدا، يتدلى على وجه جامد غير متبرج. ورفعت عينيها لمحاولة إعلام إدريس بأن المشاهدة متوقفة، وذكرته عيونها الخضراء المغولية بشيء ما.

ـ إذا كنت تريد عرض الاستمناء، فهو يبدأ في الساعة الخامسة، أضافت.

وراحت تبحث بالمقصورة عن مكنستها وجردل الماء، وهي تمر أمام إدريس، ثم قالت:

ـ هؤلاء الرجال، لا تصدق كيف أنهم أوساخ! فهم يتركون فضلاتهم في كل مكان. على الفوتيه، على الحوائط، على الأرض، وهناك حتى من يلطخ النافذة!

وبينما هي تقول كلماتها الأخيرة هذه، انفرج فمها عن الابتسامة المرة الهازئة للبؤة الهائجة.

مامادو قال لي

مامادو قال لي

لقد تم عصر الليمون

ويمكنهم رمي القشر

الليمون هم الزنوج

وكل الأفارقة السمر

لم يعد معبودو الجيل الجديد يدعون إيدير البربري، ولا جمال علام، ولا ميكسا، ولا أحمد زهار، ولا عمار القشاط؛ فهؤلاء ما زلنا نسمع عنهم، لكننا نراهم في عداد الموتى، ولم نعد بعد نفهمهم. فشباب اليوم يمكن التعرف إليهم في إيقاعات ولعنات بيرانجيه ورينو عندما يغنون، بالفرنسيّة، أغنيات مثل عذاب الحياة على الهامش، وخطوة بالبطالة، والأخرى بالتشرد.

أنا أدعى سليمان وعمري خمسة عشر عاما

أعيش مع أهلي في الكورنيف

أرتدي قبعة المتشرد!

ولست جاهلا، فقد حصلت على الإعدادية

وأنا أكبر واحد في الفريق

وقد وشمت أعلى ذراعي ثعبانا

كانت الآلة المتخمة باستمرار بـالنقود تـدعو الـشباب إلـى انتفاضة بلا أمل ضد تآمر المرابين. وكان المستهلكون الذين يصلون إلى محطة مترو بارباس يهرعون إلى البار ويجلـسون صـما مـع التعازيم الملتهبة التي تتعالى خلف ظهورهم. وهو جالس وحيد علـى طاولة مزنوقة قريبة من البار. كان إدريس غارقا في تـصفح ألبـوم حكايات مرسومة. وكان جو المقهى يختلط، علـى نحـو غـامض، بالمغامرات التي يتابعها صفحة بصفحة. كان الكلام المخطوط داخل الدوائر يطغى في صمت على الحوارات، والنداءات والهتافات التـي يسمعها من حوله. هل كان يحلم؟ إن بطلة هذه القصة تـشبه المـرأة البيضاء في عربة اللاندروفر، وتشبه أيضا عاهرة مرسيليا. فـضلا عن أنها كانت تتجول في لاندروفر يقودها رجل بوجه متوحش فـي أرض تابلبالا، وطلبت منه أن يتوقف ويعود أدراجه، عندما لمحـت شيئا تود تصويره، وأطاع الرجل رغما عنه. وتقـدمت اللانـدروفر أماما نحو قطيع الماعز والخراف الذي يحيط براع شاب. ثم توقفـت العربة، وقفزت المرأة إلى الأرض، وتطـايرت خـصلات شـعرها الفضية على أكتافها، وظهرت ذراعاها وردفاها عاريين وهي تمسك بآلة التصوير الفوتوغرافي.

ــ أنت، أيها الصغير. قالت الصيحة التي خرجت من فمهـا، والمكتوبة بالدائرة المصورة بصفحة الألبوم، لا تتحرك كثيرا، أريـد تصويرك.

ـ بوسعك على الأقل أن تسأليه رأيــه. دمــدمت الكلمــات، المكتوبة في دائرة أخرى، في فم الرجل. فهناك من لا يحبون ذلك.

ـ حسنا، قل له أنت! أضافت الدائرة التي أمام فم المرأة.

وطغى صوت بوحشية:

في المساء، عندما نتسكع بمواقف السيارات ٥

نبحث عن سيارتك البي إم الخربة بعض الشيء

نستعيرها ساعة أو ساعتين

نقتحم الخزانة في بورت دوفين

ونذهب إلى العاهرات لإذلالهن فقط

من أجل ذكرى غير ورعة في المساء

ـ لا تكوني واهمة، سخرت دائرة الحوار الخاصة بالرجــل، إنه ينظر إلى السيارة أكثر مما ينظر إليك!

كانت كاميرا الفوتوغرافيا المرسومة بشكل مضخم تخفي ثلاثة أرباع وجه المرأة. وخرجت دائرة أخرى من علبة الكاميرا: "كليــك كلاك" وأنجزت الصورة.

ـ أعطني الصورة.

كان الراعي هو الذي نطق بهذه الدائرة وهو يمد يده صوب المرأة. وأرته خارطة أخرجتها من السيارة، وقربتها، وهي تمسكها بكلتا يديها. كانت تحدد اتجاه شمال الصحراء: تابلبالا، بني عباس، بيشار، وهران.

ـ صورتك سنرسلها إليك من باريس. انتبه. نحن هنا، أترى؟ في وهران نستقل العبارة خمس وعشرين ساعة بالبحر إلى مرسيليا، وثمانمائة كيلومتر بالطريق السريع، ثم باريس. وهناك نحمض ونطبع الصور.

نشرت إعلانا بالليبراسيون

كي أعثر على إنسانة لطيفة

تعمل لدفع ثمن طعامي

تذهب مثلي للعمل لتقبض

أنا أطرقع أصابعي مرتين أخريين

كما لو أنني، لاحظ، لم أحصل على شيء

تحركت السيارة تاركة وراءها سحابة من الغبار، لكن القصة المصورة لاحقتها، وأفلت حوار الرجل والمرأة.

هو: أرأيت؟ أنت فهمته. وأقر بأنك ليست لديك النية لإرسال الصورة إليه.

هي: أنا على الأقل، لم أطلب منك أبدا الصور التي التقطتها لي.

هو: لا، لم أقم بذلك من أجلك. فهناك زبائن لذلك.

هي: أكان ضروريا بالفعل الذهاب إلى عمق الصحراء لتصورني في الفجر وبين النخيل؟

هو: ما هو ضروري، ضروري، فهو يخاطب مخيلة بعض الرجال؛ هناك فرنسيون يحبون الديكور الغرائبي، وهناك ملوك بترول يحبون النساء البيض. وقد صورتك في واحة، والجميع مسرورون.

هي: وكل الناس، عدا الأمة البيضاء، يباعون في الصور الفوتوغرافية!

هو: الأمة البيضاء تتماهى مع عبوديتها، نظرا إلى أن ذلك استعباد مذهب؛ فبين القفص المريح وبؤس الحرية، أنت تختارين القفص، ولا تتشكين.

هي: بالحياة لا توجد سوى الراحة. ثم إن هذه الصور الموحية التي تلتقطها لي وتوزعها تعرضني أكثر من غيرها. ولدي إحساس بأنني لن أتخلص منها إلى الأبد. والأسوأ أنني كنت موشومة، فالوشم يظل يلتصق بنا، وليس بوسعنا إخفاؤه، في حين أن الصور تجول في أي مكان. ولو أنني قابلت بالصدفة رجلا مخلصا أحبني، فسأظل دائما خائفة من أن تظهر له هذه الصور ذات يوم.

المستوطنون رحلوا وبحقائبهم

بعض سفن العبيد كي لا يعودوا خالي الوفاض

بعض سفن العبيد لتنظيف الطرقات

وجميعهم يتشابهون مع جباهم الواطئة

وقد أصاب البرد جلودهم وأيضا قلوبهم

رفع إدريس عينيه، ولم يندهش بالمرة لرؤية الرجل والمرأة المرسومين بالقصة المصورة متكئين بمرفقيهما على طاولة البار. فقد عرفهما، رغم أنهما لم يكونا مرتدين الملابس نفسها التي ارتدياها في اللاندروفر. وكان طبيعيا إلى الغاية أن يوجدا هنا وأن يتابعا حديثهما العاصف.

هو: إلى أن يحين ذلك، عثرت على هاو فاحش الثراء حازت صورك، كما كنت تقولين، إعجابه، وسأهاتفه للحصول على موعد. أيها النادل، أعطني قطعة معدنية للهاتف لو سمحت!

هي: هل لي أنا أيضا أن أرى صور هذا الزبون الغني؟ هذه المرة أود أن أعرف شيئا عما سألاقيه.

هو: لقد صرت مجنونة، أليس كذلك؟ فلست أنت التي تدفعين، بل هو؛ إذن فهو الذي يختار من بين الصور، ومن الضروري أيضا ألا نعكس الأدوار!

هي: سواء شئت أم أبيت، سأقوم ذات يوم بالاختيار، ولن أفعل ذلك عن طريق الصور، بل سيحدث ذلك في الواقع، في الحياة.

هو: هذا لن يكون مساء الغد؛ لأنـك عليـك أولا أن تـدفعي أتعابي، فقد استثمرت، وليس عندي استعداد لأن ينتف ريشي. نعـم، ويكفي هذا! سأهاتف الرجل. انتظريني هنا.

ولم يدر إدريس ما إذا كان يحلم أم أنه يشاهد مشهدا واقعيـا. كانت امرأة اللاندروفر البيضاء وحدها، واقفة أمام البـار، واتجهـت نظراتها نحوه، لكن بدا أنها لم تره. فإما أنها مصابة بقصر النظر، أو أنه هو الذي صار شفافا لا يظهر. وعلا صوت صندوق الموسـيقى بأغنية أجمل:

من أجل شرطي جرح. من أجل شرطي قتل

استعدوا للمعركة. فالنظام مهدد

إنذار عام! جنازات قومية

لنعيد بناء القيم. هذا لن يستمر بعد ذلك

أنا أنحني، أنا أغضب

وأريد تحطيم كل شيء.

ونهض إدريس واقترب من المرأة، ثم خطا خطوة، ودخل بقدميه الاثنتين في القصة المصورة. وكانت لديه جرأة البطل الخيالي:

ـ هل تتذكريني؟ أنا الذي صورته في تابلبالا.

ولم تفهم المرأة شيئا:

ـ ماذا؟ ماذا يريد هذا الشخص؟

ـ إنه أنا. إدريس من تابلبالا. قلت لي "سوف أرسل إليك الصورة". انظري، هذا مكتوب بالجريدة.

وعرض عليها القصة المصورة.

ـ إنه مجنون. ما معنى هذا؟

وألقت نظرة سريعة على المجلة. ونظرت حولها كما لو تبحث عن نجدة:

ـ تعالي معي، الرجل الشرير يريد بيعك، تعالي!

وتراجعت أمام البار وسكبت كأسها، وكف الزبائن عن محادثاتهم. وحاول إدريس أن يمسك بذراعها ليسحبها:

ـ تعالي سنذهب معا. الرجل يريد بيعك بهذه الصور.

وعاد الرجل موضوع الحديث من كابينة التليفون سريعا لينقذ محظيته:

ـ من هذا الحقير؟ ألن تدع السيدة في حالها؟ أتريد أن ألكم وجهك؟

وكان لدى إدريس الوقت للتعرف إلى الوعل الذي تدخل بكل حماسة الفرسان:

ـ أجل، أحسنت صنعا بأن تهتم بذلك. فمنذ بعض الوقت وأنا أراقبه يسعى لاقتياد السيدة.

واستمر إدريس بالمواجهة:

ـ أنت قذر؛ أنت تبيع السيدة بواسطة الصور!

ـ هل سمعتم هذا؟ هذه البطيخة ما سر هذيانها؟

وصوب قبضته في وجه إدريس، وصرخت المرأة مما حدث. وترنح إدريس بفعل ركلة من غريمه وتدحرج على طاولة بين الزبائن.

#

ـ إذن، قال له عاشور، هل اقتادوك إلى المخفر؟

ـ نعم، لا أدري كيف وصل الشرطيون في التو. وكنت أنزف من أنفي. وقد صرخ الجميع في وقت واحد خصوصا المرأة.

ـ في هذا الحي، تجد الشرطيين دائما على مقربة. ولكن ماذا حدث لك بحق الإله؟

ـ في المخفر، استجوبوني. وكان هناك شرطي يكتب على الآلة الكاتبة، فقيد اسمي، ومنذ متى جئت لفرنسا، وأين أسكن. وجعلوني أنفخ في بالونة صغيرة. وغمسوا أصابعي في الحبر، وجعلوني أبصم. وأخيرا صوروني صورة نصفية وأخرى جانبية.

ـ صوروك ثانية!

ـ إنها ليست غلطتي أنا. فكل الناس يصورونني.

ـ بأنفك الغارقة في الدم، وعينك المتورمة. أنت كنت بالفعل تشبه الإرهابي! وماذا بعد؟

ـ بعد ذلك اتصلوا بالمأوى هنا، وعثروا على إيزيدور. وحضر بعدها بعشر دقائق، وتحدث مع الشرطيين، وتركوني أذهب معه.

ـ إيزيدور. بوسعنا دائما الاعتماد عليه. ولكن ماذا دهاك؟! يا إلهي!

ـــ ما حدث كان بسبب القصة المصورة. وأيضا بسبب الموسيقى التي تعالت بالمقهى، والمرأة البيضاء. وأتساءل ما إذا كان الرجل القواد هو الذي دبر كل ذلك!

وصمت الاثنان، الجالسان على الفراش بغرفتهما، وطأطأ كلاهما رأسه تحت وطأة المصير.

قال له عاشور: "بالنسبة إلى العمل، يلزمك عفريتة بحمالات، وسوف تجدها عند **تاتي**. اخترها قطنية زرقاء بجيب أمامي وسحاب". وسجل إدريس هذه التحديدات، وتوجه إلى شارع **روششوار**. ولاحظ مع ذلك أنه تاه ودخل إلى فرع ملابس النساء. ولم يكن يدري أن هناك ممرا زجاجيا يمكن من المرور إلى فرع ملابس الرجال عبر شارع **بل أوم**. وضل ثانية. ثم بانعطافه يسارا على رصيف شارع روششوار، دخل إلى محل تاتي للأطفال. وكان هناك جو من النداوة والبراءة ينبعث من الملابس المدرسية المعروضة، من قمصان كاروهات ومعاطف ملونة، ومانيكانات أطفال شمعية بأعين زرقاء محاطة برموش مذهبة، أذرعها مفتوحة في وضع دهشة مدبرة، تتظاهر باللعب على مرجة من الورق المجعد، نثرت فوقه كرات ومضارب التنس. واستوقف إدريس مشهد رجلين يتناقشان وهما ينظران إلى واحد من هذه المانيكانات:

ـــ وعندما تصبح موضة قديمة أو غير مستعملة، ماذا ستفعل بها؟ هل ستلقيها في القمامة؟

كان من سأل هذا السؤال بنبرة عدوانية نوعا ما لديه ما يشبه عرف ديك صغير بمقدمة شعر رأسه المسدلة، وكانَ أنفه مدببا وعيناه مستديرتين تشبيان باستنكار ساذج.

ـ نحن نضعها ضمن مخزوناتنا بانتظار احتمال أن نبيعها بمحلات السلع المستحدثة بالريف. وأنا أزور بانتظام أصحاب الأعمال الصغار في مامير، وإسوار أو كاسلفوداري، الذين يأتون للتبضع من ملابس الفتيات والغلمان والرجال والنساء. هذا أيضا بجانب "سوق العبيد" الذي لا يخلو من طرف.

كان الرجل يجيد الحديث، وهو يبتسم ابتسامة مستمرة ذات طابع متهكم من حديثه، بحيث لا يشي وضعه ولا لهجته المرحة بأنه يمارس مهنة مدير التنسيق بمحل كبير، بل يبدو عليه كأنه يقضي وقتا مسليا، مستنكرا تماما أن يؤخذِ على محمل الجد، ومتواضعا تماما على مستوى طموحاته وقدراته. وأحس الرجل الشاب الجاد والمتأثر أنه بدا عليه أنه ظاهرة فضولية خرقاء بالكامل، ولكن على نحو أكثر تنوعا.

ـ ولكن من فضلك، لماذا تهتم بهذه المانيكانات؟

ـ أنا أجمعها. أجاب الآخر بثقة وهو يقدم نفسه: إتيين ميلان، أعمل مصورا فوتوغرافيا. وأقطن على مقربة من هنا. بشارع قطرة الذهب.

ـ أنت تجمع مانيكانات الفتارين؟

ـ أيا ما كانت.

ـ ومانيكانات الأطفال أيضا؟

ـ مانيكانات الغلمان، وبخاصة موديلات الستينيات.

ولم يتمكن مدير التنسيق هذه المرة من إثارة دهشته. وألقى نظرة قلقة على ما حوله، كما لو ليطمئن أن مجال حركته المألوف لم يكن مشوشا، ووجد نفسه وجها لوجه مع إدريس الذي كان يتابع الحديث رغما عنه.

ـ ولكن في النهاية.. لماذا أعوام الستينيات؟

ـ لأنني ولدت عام ١٩٥٠.

ـ إجمالا مانيكانات الغلمان هذه لطفل في العاشرة.

ـ أجل، هو أنا.

واستدارت أعين مدير التنسيق، وبدا أن فكه الأسفل قد سقط. وكان لحسن حظه من أصل صقلي، ويدعى جيوفاني بونامي. يعمل بالتنسيق التجاري، وتعلم أسلوب التعالي الذي يجعله لا يندهش من شيء، فالآتي من أصل من هذا النوع سيتمكن طرح الجميع أرضا كما يقال.

ـ هل لنا أن نذهب إلى مخزنك؟ استطرد ميلان.

ولمح إدريس، الذي كان واقفا أمامه طيلة الوقت:

ـ يمكنك أن تأتي أيضا، فسوف أكون بحاجة إلى بعض المساعدة، قال له.

وأخذهم المصعد إلى الدور الثالث تحت الأرض بالمحل أسفل سقف شديد الانخفاض، مزود بلمبات الفلورسنت التي أراقت ضوءا جافا وقمريا في آن معا. وكان المشهد غارقا في الغرابة: كان هناك شبه حفل راقص كبير مشلول يجمع مئات الشخوص العارية، المثبتة في أوضاع رشيقة ومعقدة. وكان الملمس الشاحب للأجسام يصل إلى حد الصقل الناعم. وكذلك قدر كبير من الوجوه الشابة المبتسمة المخضبة التي كانت تشوبها الغرابة هي الأخرى، بجماجمها الصلعاء تماما التي يكسوها اللمعان.

ـ أنا أجد في هذا عرضا إباحيا خانقا، غمغم ميلان.

ـ أتعرف. قال بونامي، أن مركز الشرطة أرسل إلينا تعليمات آمرة بألا نقوم أبدا بإلباس أو خلع ثياب المانيكانات بالفتارين أمام أعين المارة ؟! وأن على منسقي العروض لدينا أن يقوموا بذلك خلف ستائر. فقد كانت هناك شكاوى، هل تتخيل، قُدمت من أشخاص عبروا عن استيائهم من هذا النوع من التعري؟! والمرء يتساءل إلى أي حد سيصل هذا الاحتشام؟

ـ هذا ليس الاحتشام، أجاب ميلان على نحو خشن، إنه ببساطة احترام للمانيكانات.

وجاء هذا الاعتراض الذي اقتحم عمق مجاله الخاص، أي التنسيق والديكور، ليثير بشكل واضح بونامي.

ـ أعتقد أنك خلطت بشكل واضح بين التمثال والمانيكان. ولا بد من تأمل ذلك بشكل كاف؛ فعلاقتهما بالملابس تتعارض طوال الخط. فبالنسبة إلى النحات يأتي العري أولا، والتمثال عار في العادة، ولو كان من الضروري أن يرتدي الملابس، فالنحات يصنعه أولا عاريا، ومن ثم يغطي جسده بعد ذلك بالملابس. وعلاقة المانيكان بالملابس على العكس من ذلك. فهنا تأتي الملابس أولا. والمانيكان ليس سوى منتج تحتي للملابس، وهو أشبه بمتخف بالملابس؛ إذ يزول رونقه بمجرد أن تنزع عنه الملابس. أما التمثال، فهو مثل الجسد الإنساني يمكن أن يتعرى. والمانيكان ليس بوسعه أن يتعرى، فقط بوسعه أن يتجرد من الملابس فحسب. وما تراها هنا، ليست أجسادا، ولا حتى صور أجساد، إنها هيوليات لملابس كاملة، وأشباح لفساتين، وأطياف لتنانير، ومقنعات خفية لبيجامات. أجل، مقنعات خفية، هذا دون شك التعبير الذي يتناسب معها بشكل أفضل.

ولم يتوان ميلان في تأكيد أن ما قاله بونامي هو نظريات حقيرة. وتفقد سريعا جمع الشخوص المسمرة والغريبة المحيطة.

والتفت المنسق فجأة نحو إدريس، وحاول أن يسأله بلطف عن أصله ومن أين أتى، وعمله ومحل إقامته.

ــ لو أن لديك استعدادا، قال، ربما يكون لدي عمل أعرضته عليك.

ومنصاعا بدوره لروحه المرح المتعمد، لم يتوان أن يضيف:

ــ ستكون حتى على النقيض بمثابة خبرة مثيرة، وفريدة من نوعها.

ونظر إليه إدريس بلا فهم على الإطلاق.

ــ سأشرح لك الموضوع. إن الغالبية العظمى من زبائننا من الأفارقة، وبخاصة المغاربة؛ لذا واتتني فكرة أن أصنع مانيكانات العرض من نوع مغربي. أتستوعب ما أريد قوله؟ هناك ورشة في بانتان تصب النماذج الحية للوجه والجسد، وبهذه المصبوبات يمكننا صناعة عدد من المانيكانات البوليستر التي نريدها، وأتصور أن بوسعك أن تعمل "موديل"، وهذا عمل دخله جيد. شاور عقلك وتعال لمقابلتي، ولكن لا تتأخر كثيرا؛ فهذا أمر سنشرع فيه فورا.

ــ هذان الاثنان، هل يمكنني أن أنقلهما؟

كان ميلان قد تخير جسدين ملقيين الواحد على الآخر أسفل الجائط.

ـ أنت أيضا لديك شعور فعلا بعمل الخير؛ هذان الطفلان المسكينان كانا معدين للتحطيم، وقد أنقذتهما هكذا!

ـ أنا لم أر ما يشد انتباهي غيرهما.

وشرع بونامي في إزاحة المانيكانين، وجذبهما دون عناية من أذرعهما وأرجلهما، وألقى ميلان بنفسه عليه.

ـ انتظر، أنت تؤذيهما. دعني أنا أفعل ذلك.

وانحنى على ركبتيه برقة أمام الجريحين العظيمين، رافعا أحد الرأسين ليريحه على مقدمة ذراعه، واضعا يده الأخرى حوله من أسفل، ثم رفعها ونهض، وهو ينظر بحنان إلى الجسد المفكك. ودفع هذا المشهد المغرق في الاهتمام بونامي إلى الصمت. واستدار ميلان نحو إدريس، ووضع مانيكان الطفل الصغير بين يديه، ثم انحنى على المانيكان الثانية.

ـ كم تريد فيهما؟ سأل ميلان بونامي.

ـ آه! هذان أعطيك إياهما بلا مقابل، فهما فضلات.

ـ نعم، لقد عانيا كثيرا، سوف أضع لهما رموشا وشعرا، وأعيد طلاء وجناتهما وشفاههما، أما ملابسهما! فهي عبارة عن صرة تجمعهما! وتنهد بسعادة وهو يتخيل الساعات الطويلة من العمل التي سيقضيها مع هذين الطفلين الجديدين.

للباريسيين سمعة كبيرة في عدم الدهشة من أي شيء. كان هذان الرجلان يسيران بتؤدة، يحمل كل منهما بين ذراعيه طفلا رثا مقطوع الرأس تتأرجح ساقاه في الفراغ، ولم يلحظهما في سيرهما أحد إلى أن صعدا ثم عبرا شارع **بارباس** لكي ينعطفا في شارع قطرة الذهب. بالنسبة إلى البعض امتزجت الدهشة بعدم التصديق؛ فقد اعتقد بعضهم أنهما طفلان جريحان، أو جثث أو مانيكانات! وأصيب البعض الآخر بالصدمة، والبعض الثالث أصابته نوبة من الضحك. وفكر إدريس بجمله وعبوره باريس التي ذرعها بحثا عن مجزر. أما هذه المرة فكان المشهد أقصر كثيرا.

وتوقف ميلان أمام بناية خربة، مرممة مؤقتا بكمرات:

ـ هنا، قال وهو يدفع الباب بقدمه. وصعدا دورين على سلم مظلم كان درابزينه المصنوع من الحديد المطروق يشي بماض أفضل. وكان هناك إعلان على الباب يحتفل بمرح بعرض قراقوز حديقة لوكسمبورج. وكانت الغرفة التي دخلاها مشبعة برائحة

الورنيش، وقد تمدد فيها لوح من الخشب على حاملين صانعا مكتبا للعمل، أو منضدة عمليات، كان موضوعا عليها، فضلا عن ذلك، عروس كبيرة من الخشب المفصل، ومنثورة فوقها فرش الرسم، وسكاكين التلوين، والأنابيب، والمكاشط، والزجاجات. وركع ميلان على ركبتيه واضعا حمله على سرير مخيم. ثم حمل عن إدريس المانيكان الأخرى ووضعها بجوار الأولى. ثم نهض وراح للحظة في تأمل عميق.

ـ يمكننا القول إنهما شقيقان توأمان، قال الحالم. في هذه السن، كان لدي اثنان في فصلي، يقضيان وقتهما يتجاذبان الواحد والآخر. كان كل منهما غلاما عاديا تماما. وفجأة حل بهما العطب، فقد رأيناهما وكأنهما واحد مزدوج؛ فكان تشابههما المطلق يصيب المرء بدوار مضافا إليه نوع من الهزل. كانا بالضبط كالمانيكانات، يثيران قلقا وغرابة مختلفين، فضلا عن أن المانيكانات والتوائم أقرباء لصيقون، لأن المانيكان يذكر حتما بعملية تسمح بإعادة إنتاج نماذج الموديل نفسه.

وتحرك عدة خطوات.

ـ ليس لدي سوى غرفتين. هنا الورشة، وهناك غرفتي.

ورفع الستارة للتي تفصل بين الغرفتين، واختفى من أمام إدريس، كما لو ليتركه يستوعب وحده الصدمة. وكشفت الغرفة عن مشهد مجزرة، أو كما يقال كشفت عن خزانة الغول. وكان بوسعك أن تميز فيها بالتأكيد فراشا صغيرا مدفوسا في ركن وبجواره مصباح سرير. لكن أكوام الجذوع، وحزم الأذرع، ورزم السيقان المرصوصة بعناية أمام الحوائط تدفع للتفكير بمدفن من نوع خاص؛ نظيف إلى الغاية، وجاف جدا، إضافة إلى غرابة قطيع كبير من الرؤوس المبتسمة ذات الوجنات الوردية الموضوعة على الأرفف.

ـ أيمكنك النوم هنا؟! قال إدريس مندهشا.

ولم يجب ميلان، المأخوذ كلية بحضور هذين الرجلين الصغيرين المقطعين، ورفع جذعا، وطرق بإصبعه على سطحه الأملس:

ـ هل تسمع؟ إنه فارغ. إنه قشرة من الجص. أنا أحب الجص، إنه مادة هشة، مسامية، حساسة لأقل رطوبة، ضعيفة، لكنها سهلة التطويع، والتزيين، والتفخيم. وكان من حسن حظي أن أحيا في عالم من الجص. وفي حين أن النماذج العارية للرسامين والنحاتين ترسل للتشريح أو لدراسة علم وظائف الأعضاء، نعلم مقدما أن المانيكان خاوية. فلا أحد يشرح المانيكان. والطفل الذي يعريها

ليعرف ما الذي تحت ملابسها أحمق، أو سادي لم ينضج بعد. وسوف يصيبه الإحباط لعدم رؤيته شيئا؛ فالمانيكان ليس لديها داخل. إنها شخصية خارجية، سطحية تماما، معدومة الأسرار المنفرة إلى هذا الحد أو ذاك، التي تختبئ تحت جلد الأحياء. إنها النموذج المثالي إذن!

وعادا إلى الغرفة الأولى.

ــ ولكن ماذا ستفعل بكل هذه المانيكانات؟

ــ ماذا سأفعل بها؟! غاية الأمر أني سعيد بالحياة معها، فما الذي يفعله جامع التحف بمجموعته؟ إنها تحيط به، يحرك قطعها، يتزوجها. وأنا أعالج نماذجي الإنسانية؛ أحيانا أصنع واحدا، بأن أجمع أذرعا وسيقانا ورأسا على جذع، وهذا يمكن أن ينتج عدم تناسب مؤثر، وتلك هي اللحظات العظيمة. أضف لذلك الأبوة، فضلا عن أني لست وحدي. هناك من يراسلونني ويشاركونني هوايتي. نعم، إلى هذا الحد أو ذاك. وغالبيتهم لا يهتمون بسوى نماذج النساء، وفي أفضل الأحوال، بالبنات الصغيرات. ثم نكتب لبعضنا، ونتبادل أحيانا ما لدينا، لكنهم تنقصهم الحاسة؛ فهم يزفون لي نبأ عثورهم على إحدى الروائع، وأهرع أنا، ثم لا أجد شيئا ذا قيمة. فأنا وحدي الذي يعرف! وكنت أنزل إلى الريف. عائلتي تحيا دوما بإقليم لابرون. وكانوا يؤوون لديهم الأطفال الضعاف، الذين هم بحاجة إلى

إشراف طبي. ومن هنا بدأ كل شيء بالنسبة إلي عندما كنت في سن الطفولة. وعندما كبرت، تركوني مهملا في الظلمات الخارجية. فأقمت على مقربة من نماذجي البشرية. كنت أقطع الرحلة بسيارتي، وكانت السيارة الدوشيفو تعج بالمانيكانات التي كنت أجمعها وأصلحها خلال الشتاء. كنت أقود على مهل وعلى مراحل. ونجحنا إلى حد ما، أقسم لك! وما أذهل الناس أنني أصبحت أنا نفسي جلدا على عظم. فكانوا يتصورون أن السيارة يقودها مانيكان. وللحقيقة كانوا على حق؛ فقد كان يجب أن أكون مانيكانا أنا الآخر. وهذا ما يقربني منهم. كان الوصول للريف رائعا، وكانت النماذج التي أحضرها تأتي من شمال فرنسا. وكنت أجعلها تشاهد حقول الزيتون، وحقول الخزامى، وأراقب على وجوهها المصبوغة دهشتها وسعادتها. وعند وصولنا لدى عائلتي، كان الأطفال الصغار المقيمون يحيطوننا، ويراقبون رفقاء رحلتي بفضول. ولم يكن أغلبهم يفهم؛ فكانوا يخافون. لكني كنت ألاحظ دوما واحدا أو اثنين منهم يدخلون في لعبتي، وكنت أميزهم بسهولة، فقد كانوا يشبهون مانيكاناتي الصغيرة، بوجناتهم المستديرة، وعيونهم اللوزية، وشعرهم الأشقر، المصفف بعناية، والمفروق على جنب، إضافة إلى شيء فوق بشري، أو غير بشري كي لا أخطئ.. وهؤلاء كانوا يأخذون مكانا في فرقتي، وكانوا يمتزجون بلا تمييز مع نماذجي الصغيرة.. وبمرور الأيام التالية، يبدأ

العيد، ويستمر طوال الصيف. ونتخذ مقر إقامة في البراح، في التلال الجصية التي تنتصب فيها أشجار الصندل الخضراء. نلعب بالكرة، والطائرات الورقية، ونلعب لعبة المطرقة. وكنا نقوم بالنزهات. وللقيلولة في أثناء الساعات الأشد حرارة، كنت أمد فراشا من المخدات تحت ملحفة. وفي مساء الثالث عشر من يوليو، كانت هناك ألعاب نارية، وحفل راقص، على أضواء قناديل الشمع. إنها السعادة القصوى، الإجازة الكبيرة، فضلا عن أن ذلك عنوان كتاب صور فوتوغرافية أعده الآن؛ لأن كل هذه الأعياد كنت أقضيها مع نماذجي الصغيرة، التي صورتها بالألوان.

ــ أصورتها فعلا؟

لم يتمكن إدريس من الاحتفاظ بدهشته.

ــ بالطبع، فهذا تقليد. نحن نصور دائما اللحظات العظيمة، كالتعميد، والقربان، والزواج، والذهاب للتجنيد. وقد صنعت لوحات مع نماذجي الصغيرة، التي جمعتها، مع غلامين أحياء. فالعيد المحلي والعابر، يتحول بواسطة الفوتوغرافيا إلى حدث إنساني خالد، ويصبح فعلا مقدسا.

ــ أنت تصور المانيكانات؟ كرر إدريس الذي شعر أن كل هذه العملية بها طقس شيطاني.

ـ نعم، ولكن مع خلفية من منظر طبيعي. منظر طبيعي حقيقي، بأشجار حقيقية، وصخور حقيقية. وهكذا ترى أن هناك شبه تداخل وتماثلا بين غلماني العرائس والمنظر الطبيعي؛ فواقعية المنظر الطبيعي تعطي المانيكانات حياة أكثر قوة ليس بوسع أي ديكور بواجهة ما أن يمنحها لها، بل يحدث العكس، فمانيكاناتي تضفي الشك على المنظر الطبيعي، وبفضلها، تصبح الأشجار نوعا ما، ليس بالكامل، ولكن نوعا ما، كأنها من الورق، وتصبح الصخور كأنها من الكرتون، وتصبح السماء، جزئيا، كأنها خلفية من القماش. أما عن المانيكانات، فبما إنها بالفعل صور، فإن صورها تكون صورا للصور، وهو ما يعني بالفعل مضاعفة تأثيرها الحال. وتكون النتيجة انطباعا بحلم يقظة، بتخيلات حقيقية. هي بلا شك تعبير عن الواقعية المقوضة على قاعدتها بواسطة الصورة.

ولم يكن إدريس يسمع منذ وقت طويل.

ـ لو أنك لم تعد بحاجة إلي، قال، سأعود إلى تاتي؛ فأنا بحاجة إلى بذلة شغل.

ـ إذا شئت، يمكنك البقاء لتتغدى معي. لكن علي أن أقول لك إنني نباتي.

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ أنا لا آكل اللحم، ولا السمك.

ـ عندنا في تابلبالا، لا نأكل سوى الخضر.

ـ نعم، ولكن ذلك بسبب الاضطرار. أما في حالتي، فهذا خياري. إن اللحم، هو الرجل، والسمك هو المرأة، وهما شيئان ألغيتهما من حياتي.

بعد ذلك عاد إلى لقائهما والعروض التي قدمها بونامي إلى إدريس.

ـ هو يريد أن يشكل قالبا مني ليصنع مانيكانات إفريقية؛ وذلك من أجل واجهات العرض، شرح إدريس.

ـ هل عرض عليك هذا؟

نظر إليه ميلان على نحو مرتعب ومنبهر.

ـ أجل، أجل. ولكن ليس من المؤكد أنني سأذهب إليه!

ـ من الضروري أن تذهب، أتسمعني، لا بد أن تذهب! إنها خبرة عجيبة.

ـ اذهب أنت إذن، إذا بدا لك ذلك أمرا مهما!

ـ أولا، أنا لست النموذج المغربي، كما ترى، فقد كنا نحن الاثنان معا، وأنت النموذج الذي أراده. ثم بالنسبة إلي، صار هذا

متأخرا، كان من الممكن أن يحدث هذا منذ خمسة عشر عاما مضت. فقط في سن العاشرة، عندما كنت فلاحا صغيرا في لابـــرون، ومــا كانوا فقط ليستبعدوا أن يصبوا علي قالبا، بل إن الصورة النادرة التي أخذت لي في تلك الحقبة كانت مثيرة للرثاء، ولكن أعطاني مظهري المسكين تعويضا؛ فقد كانت أمي لا ترمي شيئا. وكنت عندما أستعمل بنطلونا أو قميصا، كانت تحـــتفظ بـــه لـــست أدري لأي اســـتعمال مفترض. وهكذا، عثرت في سقيفتنا على سوق كاملة مـــن ملابـــس الأطفال لأعوام الستينيات، وهذا هو كنزي؛ أســـتخرج منــــه لألـــبس بعض الغلمان المفضلين، بشكل استثنائي، في المناســـبات الكبيـــرة، الكبيرة جدا.

ولم يهتم إدريس بمعرفة ماهية هذه المناسبات الكبيـــرة، وراح يأكل الأرز بالطماطم، ومعجون البصل، وهو يحاول تخيل إلى أيـــن تقوده حكاية صب القوالب التي أحس أنه لن يفلت منها. ورأى نفـــسه متكررا عشر مرات، مائة مرة، متحولا إلـــى عـــدد لا نهـــائي مـــن عرائس الشمع المتجمدة في أوضاع هزليـــة، أمـــام أعـــين الزحـــام المتجمهر حول فتارين تاتي. فكيف سيحدث التحول؟ لم يكن يـــدري بعد شيئا.

ـــ لابد من الذهاب. أعاد ميلان عليه القـــول قبـــل أن يدعـــه يرحل وهو يربت على كتفه مع ابتسامة مشجعة، وفوق كل شـــيء، تعال ثانية لتقص علي ذلك!

وذهب، وأقله بونامي ذات صباح في سيارة من رصيف شارع **لا شابل**، حيث كان قد أعطاه موعدا. واتخذ طريق شارع **جان جوريه**. كان معمل **جليبتو بلاستيك** في **بانتان** حيث يقع في مباني ورش قديمة لصناعة نماذج الشمع لصاحبها الدكتور **شارل لويس أوزو**. وكان عالم التشريح الشهير في **سانت أوبان**، منذ أكثر من قرن مضى، قد أنشأ معملا غريبا ذاع صيته في كل كليات الطب في فرنسا والعالم لتماثيل الشمع القابلة للتفكيك، التي تضم كل الأعضاء الداخلية، المصنوعة بدقة حتى في ألوانها، ليسهل عرضها وتداولها بين الطلاب. وغداة الحرب، قام المعمل بتحديث تقنياته، وعمل على توسيع مجال تطبيقاته، فكان يزود متحف **جريفين**، وشركات الإنتاج السينمائي، والمزخرفين، والحواة، وحتى بعض شركات اللحادين الذين صار بوسعهم، على هذا النحو، أن يعرضوا على زبائنهم أن يصبوا لهم تماثيل شمعية لفقيدهم.

كانت محلات جليبتو تعرض لزوارها عينات غير مرتبة، سواء من ماضيها الرائع، أو من منتجاتها الجديدة. فكانت هناك من زمن الدكتور أوزو تذكارات مختارة معلقة على الحوائط، على غرار نموذجين لرئتين آدميتين موردتين تتوسطهما قصبة هوائية، وكبد ذى سمرة معدنية بمدخل شريانه، وشريانه الكبدي وأوردته اللمفاوية. كما كانت هناك، لا ندري لماذا، طاولة وضعت فوقها ثمانية أنوف

وردية مع كتابة بخطوط جميلة دائرية: مستقيم (يوناني)، أفطس (أصل زنجي)، مقوس (أصل أحمر)، ساقط، عريض، معقوف. بوربوني أقنى، خانس. ومن أجل حاجة الأفلام، كانت بعض المشاهد تقع في معازل جذام، وهو ما أوضحه حضور بعض منوعات الأقنعة المرنة المرقطة بالدمامل، والأيدي المصنعة بالأصابع المتآكلة، وهيكلا بلاستيكيا يمثل جذع امرأة بأثداء منهوشة بواسطة قيح صديدي. وأيضا كانت هناك تماثيل نصفية بوجوه باسمة وأسنان ناصعة من أجل محلات الحلاقة. وراقصة بتكوينات بدنية محجبة بواسطة تنورة مغبرة، ومعاد ترميمها لمتحف جريفين، وتماثيل لفانسان أوريول، رئيس الجمهورية، وإدوارهيريوت، سكرتير الحزب الراديكالي. وفي قاعة مجاورة، كان نحات شاب يحيطه فريق من جليبتو، يغلف نموذجا لنقله في كاميونيت، لمسيح بطبيعة سامية أعادوا ترميمه. ولا نعرف سوى أنه جرى لحام عدد من علب الأطعمة المحفوظة معا لتشكيل تكوينات تجريدية، أخذت أو جردت بطلب لمسيح على صليب طوله مائة وثمانون سنتيمترا، مرسل إلى كنيسة أنشئت حديثا. ولكي لا يتأخر الطلب، أرسل إلى جليبتو، ولاعتبار اقتصادي، قرر أن يكون هو نفسه الموديل، وعلى هذا النحو كان هذا هو تمثاله الشمعي الذي أعاره للمصلوب.

ـ لن نستطيع استبعاد الضمير المهني. أوضح قائلا لمحيطيه وهو يعبئ شبيهه. ولكن إذا أصابني شيء غامض، فلست أدري إلى أين ستذهب بي هذه المزحة.

أحدث وصول بونامي وإدريس تنوعا، واصطحبوهما إلى معمل صب الشمع. وكانت وحدة الصب تشبه كابينة هاتف عمومي ضيقة وزجاجية. وقد حدث هنا أنه قبل الغسق تم صلب التمثال قبل أن يغرق في العجينة. وكان هناك سلم دائري يمكن من الصعود إلى الدور العلوي. وفي برميل يتم تسخينه بالكهرباء سبعون لترا من جمض الألجينيات، وهي خلاصة صلصالية تتشكل باتصالها بالماء بواسطة مزيج صمغي من بعض الطحالب البنية، وضعت في درجة حرارة ٢٥ مئوية، وبقلب البرميل محور متصل من خلال فتحة أرضية مع الدور الأرضي، تمكن من سكبه في وحدة الصب. وكان هناك برميلان آخران جاهزان للاستخدام، في واحد منها ستون لترا (وهو ما يعادل وزن إدريس) من راتنج البوليستر مضافا إلى ٥٠% من الماء، صار في هيئة مستحلب بفعل خلاط يصب في أثناء هرهرته بالقطعة. والآخر يحتوي على ثمانين لترا من المركب المحفز الذي سيضاف في اللحظة الأخيرة إلى الألجينت لكي يجف. وكانت هناك رافعة مثبتة لعارضة سقف، تنتهي بساعدة مربعة منحرفة، تعمل على قلع النموذج من الكتلة المجففة للألجينت.

وتوالت كل شروحات مدير المعمل، التي لم يفهم إدريس منها شيئا، لتتمكن من ترويعه. ومع ذلك طمأنوه بأنه لن يقضي في هذه الحجيرة سوى بضع دقائق، أي الوقت الذي يتحول فيه الألجينت إلى عجينة تشبه كريمة حشو الفطائر. وبعد ذلك سيقومون بسكب البوليستر في التجويف الذي يشكل هيئة جسمه من الألجينت، الذي سيزود عقب ٣٦ ساعة من التبريد قالبا مشابها له وبالوزن نفسه، ثم يعمل هذا القالب على صناعة نموذج من الألومنيوم المذاب، يتم بفضله تصنيع عدد لا متناهي من نماذج البولي أثيلين أو البولي كلور الفينيل. لكن قبل ذلك، هم بحاجة إلى أخذ بصمته، وسيكون هذا العمل بالمجمل تجربة أولية لعملية قولبة جسمه.

وأجلسوه، عاري الجذع أمام طاولة وضع فوقها وعاء الألجينت. وخلط أحد المساعدين المادة التفاعلية، واختبر تحول العجينة. ولأن استخلاص النموذج لم يتسبب في أي صعوبات، كان بالإمكان الانتظار حتى تتماسك العجينة أكثر والاختصار إلى حد ما في مدة الغمر. وتنفس إدريس، وغرز أنفه في الوعاء. وضغطت يد على رقبته جعلته يغطس حتى أذنيه. وكانوا قد طلبوا منه أن يصبر بقدر ما يستطيع. وبعد حوالي دقيقة تقريبا انتفض نصف مختنق. لكن العجينة تشكلت أسرع مما كان متوقعا، ولم تشكل أهدابه وجفونه.

ـ سوف تنمو، تفكه أحد المساعدين. لكن انظر يمكننا بيع هذه النتيجة السيئة بوصفهاعجينة لنزع الشعر.

وتطلب الأمر بعد ذلك أن يخلع عاريا تماما، وأن يتموضع في الحجيرة. وهنا جاء دور الحس الفني لبونامي؛ لأن المانيكانات ستكون جافة، ويكون لها كلها الوضع نفسه الذي اتخذه إدريس في العجينة. واستغرق ذلك وقتا طويلا والكثير من التدقيق. وكان على القدم اليمنى أن تتقدم قليلا دون أن تظل اليسرى متيبسة، وعلى الجذع أن ينثني بعض الشيء، وأن تنفتح الذراعان بحركة ترحيب مرحة. كان يجب إذن المحافظة على الحركة والتوازن، الأناقة والعفوية، اللطف والرجولة. وكان لدى تقنيي جليبتو انشغالات أخرى، فالكتلة غير المتبلورة للألجينت قد تسيح عقب سحب النموذج منها وتتغلق على بصمة جسده. لذا جهزوا حول جسم إدريس دزينة من السيقان المعدنية مزودة من محيطاتها بالصلب المخصص لتسليح العجينة. واكتشفوا من أولى تجاربهم أنهم لن يتمكنوا من انتزاع النموذج من هذا المغلف الضخم والملتصق. لذا وضعوا بين أصابع قدم إدريس أنابيب رفيعة متصلة بأسطوانة هواء مضغوط، وعند نفخ الهواء تنتفخ البصمة قليلا، وتسهل تحرير النموذج.

عرف العاملون بجليبتو من خبــرتهم أن المقاومــة العــصبية والمعنوية للنموذج هي عامل أساسي في نجـــاح العمليـــة. وتـــدخلوا ليتوقف بونامي عن الإلحاح على إدريس، وكان علـــيهم أن ينتهـــوا. وصعد رئيس المعمل على كرسي بطريقة جعلته يغطس بصره فـــي الحجيرة. وصار رأسه على بعد عدة سنتيمترات مـــن رأس إدريـــس المتشنج في وضعه باعتباره نموذجا، ووضع يده على عتلة الباب.

ــ أأنت بخير أيها الأب الصغير؟ حسنا هيا بنا!

وبضجة واهنة، انسحق روث أخضر على قدمي إدريس. ثـــم تدفق دبق من الألجينت من الباب المتحرك، الذي اختلط إلى حد مـــا بالمادة المتفاعلة. وارتفع مستوى الخليط بسرعة شديدة علـــى طـــول جسم إدريس، وكان ناعما، وفاترا، وليس به شيء كريه. ومع ذلـــك بدأ القلق عندما وصلتْ العجينة لمستوى صدره. فنفخ رئتيـــه، كمـــا أوصوه، كي يوسع الغلاف الذي يخنقه. لكن ما كان مخيفـــا هـــو أن تجف العجينة التي تحيط بالقدمين وتنغلق الآن على جسده. وعنـــدما بلغ المستوى ذقن إدريس، أقفل رئيس المعمل الباب المتحرك، ولـــم يدع شيئا يسيل بعد ذلك في الحجيرة.

ــ لا تخف، قال، أنا أمسك بوجهك، وسأتوقف عند منخارك.

كان إدريس قد أغلق عينيه، وبدا له أنه لم يعد يتنفس، وأن قلبه قد توقف عن الخفقان. وقبل أن تنسكته العصيدة الخضراء، نطق بكلمة.

ـ ماذا قال؟ سأل بونامي.

ـ لا أدري. لقد نطق ما يشبه الاسم، شيئا ما مثل إبراهيم.

ـ ضروري بالطبع ألا يحول عينيه.

ـ لا تتحدث عن سوء الحظ! ومع ذلك لا بد من الصبر على الأقل ثلاث دقائق كي تتماسك العجينة تماما، وإلا سنعيد كل شيء من البداية.

ـ الوقت الذي يستغرقه سلق بيضة بريشت.

ـ طريف جدا!

ومرت الثواني ببطء قاتل. وكان رئيس المعمل يغطس كل لحظة سبابته في الألجينت كي يختبر تماسكه.

ـ أتصور أنه سينجح، وأمر أخيرا: شغل الهواء المضغوط.

وانطلق صفير باهت، أعقبه تجشؤ عميق طنان. وانفتح بالهواء ممر بطول جسم إدريس.

ـ الأرجوحة! أمر رئيس المعمل.

كان قد قام بتخليص ذراعي إدريس، وعاونه على أن يمسك بيديه عمود الأرجوحة. وكان هناك بالدور العلوي رجلان يسحبان بكل قوة حبل الرافعة، وارتفعت الأرجوحة ببطء. وكانت هناك يدان تحرصان على الإمساك بقبضتي إدريس المتشنجتين على القضيب. وسمحت كتلة الألجينت بطفور الجسم العاري، وهي تصدر صرير ضجة رهيبة، وتشققا وازدرادا.

ـ اعتقدت أنني أشهد ميلاد طفل، قال بونامي.

ـ هذا يشبه بعض الشيء انتزاع عجل من بطن بقرة!

وترك الرجلان بالدور الأول حبل الرافعة، وساعدا إدريس في تخليص قدمه. وعاريا، ترنح الجسد الملتمع بدهان لزج ترنح الغريق.

ـ خذوه ليستحم، وأعيدوا له أسماله، وسأعيد أنا الألجينت لموضعه.

بعد ساعة من ذلك، اصطحبه بونامي بنفسه إلى شارع ميرها. وكان مفعما بالحماسة:

ـ كان هذا قاسيا بعض الشيء. لكنها كانت مغامرة أخاذة! ميلاد طفل، نعم، كان ذلك ميلاد طفل! وفي أقل من شهر سيكون

هناك عشرون إدريس متشابهين كالإخوة التوائم، يمـــلأون فتـــاريني وأدواري الداخلية. وبهذا الشأن لدي فكرة أريد أن توافقني عليها؛ فلو أنك تعلمت القيام بالسير الآلي، سنجعلك ترتدي ملابس شبيهة بملابس المانيكانات الأخرى، أي إخوتك التوائم. وسوف نبرجك بحيث يصبح وجهك، وشعرك، ويداك، في مظهر زائف، لو فهمت ما أريد قولـــه، وأنت تتصلب وتنتصب في الفترينة، وتقوم ببعض الحركات الحـــادة والمتقطعة. وهذا قد حدث بالفعل، لاحظ ذلك جيدا، وسيكون النجـــاح مضمونا صباحا ومساء، وسيكون التجمهر شديدا أمام الفترينة. وهذا سهل إلى الغاية، لكنه مرهق بشكل لا يصدق. والأكثر صعوبة هـــي العينان؛ فلا يجب أن ترمش. نعم، جفناك عليهما أن يظلا مفتـــوحين. ستختلج عيناك في البداية قليلا من الجفاف، ولكنك سوف تتعود. ماذا تقول في ذلك؟ فكر في عرضي هذا. وسيكون أجر هذا العمل جيـــدا. فكر، وتعال تحدث معي.

في الأيام التي تلت ذلك، لم يغادر إدريس المنهك من التعـــب مأوى شارع ميرها إلا نادرا. . وشعر بالحاجة إلى الاحتمـــاء مـــن العالم الخارجي، وأراد أن يتجنب فخاخه والـــسراب الـــذي ينتـــصب تحت قدميه. وكان المأوى يغفو طوال بعد الظهر كي لا ينشط إلا بعد السادسة مساء مع عودة العاملين. وكان إيزيدور يغتنم هذه الفرصـــة لإلقاء نظرة داخل الغرف بفضل المفتاح العمومي الذي معه. ويأخـــذ

ملحوظة في ذهنه من المراقبات التي يقوم بها للشاغلين في المساء نفسه. كانت بعض الغرف تكشف عن ترتيب دقيق، وأخرى، على العكس تنتشر بها قذارة مستفزة. ويعرف إيزيدور عالمه؛ فهؤلاء الغلمان المنتزعون من الحياة العائلية بالبلاد، يجهلون أحيانا أن غسيل الملابس والأطباق لا يحدث من تلقاء نفسه، وأنه لا يليق كسر زجاج النافذة من أجل إلقاء القمامة بشكل سهل في الشارع. ويرون العجوز إيزيدور أبويا سلطويا وقويا وصاحب خبرة طويلة. وكان بعض المهاجرين من كبار السن، ممن يتقاضون راتبا تقاعديا، يقيمون بشكل دائم بالمأوى، الذي لم تكن تسميته الإدارية تجعله مأوى لكبار السن. وكانوا هم المؤجرين الذين يفضلهم إيزيدور، فهم الأكثر هدوءا، والأكثر اعتناء، والأكثر يسرا في المعاملة. وكانوا يجتمعون بالصالة العامة حول نار فحم النرجيلة الذي ينضجون عليه الشاي. ويلعبون الدومينو أو الخرباجا، ويتبادلون النوادر. وكان إيزيدور ينضم إليهم أحيانا في ساعات فراغه، ويتذكرون معا بصعوبة ما كانت عليه الجزائر في شبابهم.

هذا الحارس العجوز شكل مع المهاجرين الأقدم جماعة مستمعي الراديو، المنفصلين بنحو جيل أو جيلين عن المولعين بالتلفزيون. والتلفزيون كان هو الصورة، والحياة الحديثة، واللغة الفرنسية؛ ناهيك بكونه نافذة مفتوحة على الكون الباهر للحياة

الأمريكية. أما الراديو، فلا يستمع إليه أحد إلا في ساعات معينة، وأحيانا تنطبق الآذان فلا تسمعه. وكانت القاهرة، وطرابلس، والجزائر تبث باللغة العربية الخطابات السياسية، وقبل كل شيء القرآن والموسيقى التقليدية. وكان إدريس، الذي لدغته مغامراته، يبحث عن صحبة الكبار، الذين استقبلوه ببشاشة وأطلعوه على العالم الخفي والصاخب للخيال. وشيئا فشيئا فهم أنه في مقابل كل جبروت سحري للصورة التي تأسر العين، فإن الملاذ يمكن أن يأتي من الإشارة الصوتية التي تنذر الأذن. وعثر على مرشد شغوف في شخص عامل حياكة من أصل مصري، هو محمد أموزين، الذي وصل فرنسا غداة الحرب، وحال القدر دون العودة إلى قريته حيث توجد قبيلة كاملة تعتمد على المبلغ الذي يرسله إليها. لكن الحنين كان يأكله: "المصري مرتبط بأرض النيل منذ سبعة آلاف عام"، والفلاح هو أقل الناس دربة في كل العالم العربي على الترحال. كان يقول "لا شيء ينفر، بقدر ما ينفر ترك الوطن". وقد عاش في تنقل، عاقدا يديه على مصحفه، وأذنه ملتصقة بمذياعه. الهزيمة الأولى للجيش المصري أمام إسرائيل في ١٩٤٨، سقوط الملك فاروق في ١٩٥٢، حرب العدوان الثلاثي في ١٩٥٦، حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، وفوق كل شيء موت البكباشي في ٢٨ من سبتمبر ١٩٧٠ وجنازته المهيبة. وراح يفهم إدريس أسرار غموض وحماسة وجمال

الخطابات السياسية المذاعة يوميا من صوت العرب، وإعلاناتها المنتصرة التي يصعب تأكيدها من الأحداث، ولكنها متفق عليها من القوة الافتراضية للعالم الإسلامي.

ولكن أيضا كان الصوت الجليل لأم كلثوم هو الذي دفعه للحماسة المتقدة حول عندليب الدلتا، حول كوكب الشرق، حول من سموها ببساطة في النهاية "الست". كان محمد أموزين، الترزي المتواضع من القاهرة، صاحب معرفة لا تنضب. لأنه ولد في عام مولد أم كلثوم نفسه ١٩٠٤، بالقرب من السنبلاوين في قرية من الريف المصري اسمها الدخايلة، وهي القرية التي نشأت هي فيها، وكان يعتقد أن هذه السيدة موطنه، وتقريبا أخوه. كانت ترتدي ملابس غلام، تزمتا. وكانت تغني وهي في الثامنة بالأفراح. وكانوا يعطونها المقابل بضع كعكات قبل أن تخلد إلى النوم من الإرهاق بين ذراعي أبيها. وكانت تنشد دون مصاحبة آلة موسيقية، لأن الصوت هو الآلة الوحيدة للإنشاد الديني. وذاعت شهرة هذه الطفلة البدوية التي أحيت الأفراح العائلية بمديح النبي، وطبقت الآفاق. ومع ذلك حدثت مأساة في اليوم الذي ظهرت فيه صورتها بجريدة أول مرة. وكانت تلك بداية المجد، لكن بالنسبة إلى أبيها كان ذلك عارا لا يمحى. وظلت طوال حياتها منذ تلك اللحظة تناضل ضد المصورين المتلهفين لاقتحام حياتها الخاصة لينشروا لها صورا مبتذلة. وأم كلثوم لها

جمهور ذكوري تقريبا. وهي امرأة دون رجل. (تزوجت مؤخرا من الطبيب الذي يعالجها)، ولأنها شاءت الزواج من كل الشعب العربي، كقديسة من نوع ما، وككاهنة معبد للأمة، تعيش من أجل فنها بوصفه رسالة عاطفية، ووطنية في آن معا.

كانت حفلتها بمنزلة اجتماع سياسي، يقول الأزواج لزوجاتهم ليبرروا لماذا يذهبون وحدهم لسماع أم كلثوم. فضلا عن أن أم كلثوم تعني حاملة العلم أو البيرق. وهي على المسرح تمسك دوما في يدها اليمنى بمنديل كبير تهزه كشراع، وكشعلة، وهو رمزها. وهو أيضا ملاذها المؤتمن على دموعها وعرقها.

هكذا كانت أم كلثوم تظهر، عيناها الجاحظتان، بسبب تضخم غدتها الدرقية، مختبئتان خلف عوينات كبيرة سوداء، وشال معقود على شعرها، لأنها تشعر بالراحة وهي تغطي رأسها، بفعل التقاليد العربية، ويدها المكتنزة تقبض على منديلها. كانت لديها أولا الجرأة على رفض العربية الفصحى، وأن تغني بالإذاعة بالعامية المصرية. والمعجزة أنها تمكنت من أن يسمعها كل العالم العربي. وعندما كان يتم نقل إحدى حفلاتها بالراديو، فجأة في الدقيقة نفسها، نرى كل الشوارع والأسواق خاوية من الناس، بالقاهرة والدار البيضاء وتونس وبيروت ودمشق والخرطوم والرياض. ويضيح الجمهور لها بصيحات جنونية: "أنت ملكنا، أنت خطيبة عمري. ومنذ عرفتك،

أقفلت أذني، ولم أعد أسمع إلا صوتك أنت. أنا أخـرس، لا أتحـدث إلا لك!".

وصار هذا الصوت جزءا لا يتجزأ من حياة الأمة. وصـارت هي روح مصر والعالم العربي. وفي الأمثلة الدائرة: "ما هـو حـال مصر؟ جيد إلى الغاية، ثلاثة أيام كرة قدم، وثلاثة أيام أم كلثوم، ويوم لحم". وفي الثاني والعشرين من يوليو ١٩٥٢، وضعت مجموعة من الضباط الشباب نهاية لآلاف السنين من التبعية الأجنبية. ولأول مـرة منذ عهود الفراعنية، أصبحت مصر مستقلة، لكن اللواء محمد نجيب، والكولونيل ناصر لم يتمكنا من تجاوز إشعاع أم كلثوم. والثورة لا بد أن تتوج بحفل لكوكب الشرق. وكان نجيب وناصر في الصف الأول من الحضور. وعقب كوارث حرب الأيام الستة في يونيـو ١٩٦٧، عندما أعلن البكباشي البائس أنه يستقيل ويتنحى، كان هنـاك أيـضا صوت أم كلثوم الذي ارتفع ليجبره على البقاء:

قم واسمع قلبي، فأنا الشعب

ابق، فأنت السد الواقي

ابق، فأنت الأمل الباقي لكل الشعب

أنت الحق وأنت النور

أنت الصبر على المقدور

أنت الناصر والمنصور

ابق فأنت حبيب الشعب

أنت الحب ونبض الشعب[1]

وبتاريخ ٢١ من مارس ١٩٦٩، بدا أن جميع الشروط تحققت لتمكن معمر القذافي وعبد السلام جلود من الإطاحة بالملك إدريس، والوصول إلى السلطة في ليبيا. تحققت جميع الشروط عدا شرط واحد؛ ففي ذلك المساء، غنت عندليب الدلتا في بنغازي! وهو حدث قومي يتعارض مع الانقلاب العسكري. ولم يكن أمام المتآمرين بد من الوجود بالحفل وتشجيع معبودتهم. وتطلب الأمر تأجيل الثورة أكثر من ستة أشهر، حتى الفاتح من سبتمبر، كي تتهيأ الظروف المناسبة من جديد.

لم يكل أموزين من ذكر الحفلين المشهودين اللذين أقامتهما أم كلثوم في باريس، بمسرح الأولمبيا، بالخامس عشر والسابع عشر من نوفمبر ١٩٦٧. ففي الخامس عشر، كان تجمع الجمهور على رصيف شارع كابوسين غير عادي، ولم يتركوا له سوى فرصة

(١) كلمات صالح جودت التي وردت في كتاب أم كلثوم لإيزابيل صالح (منشورات دينويل)

ضئيلة للدخول. وكان هناك أشخاص مشبوهون يحومون بالتأكيد لعرض التذاكر "بالسوق السوداء"، لكن أسعارها تخطت بشكل كبير إمكانات عامل ترزي يعول أسرة، حينها تدخل القدر بشكل رائع لصالحه؛ فقد لمح شخصا ضريرا يحاول المرور وسط المشاة وهو يدفعهم بحركة بطيئة ورقيقة بعصاه البيضاء. كان رجلا مسناً عربيا يعتمر عمامة ويرتدي جلابية. وكانت الحركة الأولى لأموزين هي أن يهرع لمساعدته بطريقة محترمة، لكنه سرعان ما فهم الجزء الذي تمكن من فهمه بسبب كرمه الخاص. وممسكا بالأعمى من ذراعه، قال له سريعا: "تعال معي، سأجعلك تدخل". ومن ثم شق طريقا وسط الجمهور لمدخل المسرح وهو يدفع الزحام أمامه ويردد: "أفسحوا مكانا من فضلكم، أفسحوا من فضلكم!". ففي كل بلدان العالم، ولكن على نحو أكثر في وسط جمهور من غالبية إفريقية، يتمتع الأعمى باحترام صارخ. ووجد أموزين ورفيقه سريعا نفسيهما داخل الصالة. ثم بالصف الأول، مباشرة أمام صف الأضواء بمقدمة المسرح، وكانت تلك معجزة حقيقية. كان الترزي يضحك من السعادة وهو يتذكرها. لكن كان هناك شيء ثان أعمق وأكثر رمزية وإثارة.

ارتفع الستار، وكان أعضاء الفرقة الموسيقية الصغيرة التي تصاحب أم كلثوم تقليديا موجودين في أماكنهم، يدوزنون آلاتهم على مهل كما تعودوا. فكان هناك عزف متلوي لآلات الكمان، ثم تبعه

عزف للقانون، وآلات العود، وختم أخيرا بالأورج الكهربائي. وظهرت المغنية بنفسها، محاطة بدائرة من الضوء من أحد الكشافات، وسارت ببطء نحو الميكروفون، ورفعت رأسها في حالة إلهام وقد تدلى في يدها شالها الطويل. ولم تكن هناك نداءات، ولا تحيات، ولا صيحات رغم أن دخولها طال انتظاره مع ذلك. وأحنت رأسها قليلا، وبدت تتفحص المشهد الفاغر والمظلم للصالة. كانت أم كلثوم قد قامت من قبل بالقليل من الجولات خارج العالم العربي؛ فقد كانت منزرعة بشكل عميق في أرضها الدلتاوية. وأبدت دائما نفورا من المغامرة في الغرب الأقصى الذي هو العواصم الأوربية والمدن الكبرى الأمريكية. وكان هذا باديا في سلوكها بمواجهة هذا الجمهور الباريسي. وبشكل واضح بحثت في هذا الجمهور الغامض عن وجه، عن نظرة تطمئنها، لتقيم التواصل بين الجمهور وبينها. ولمحت في أول صف بعد الأوركسترا الأعمى المعمم المجلبب بعصاه البيضاء. وغمغمت بصوت غير مسموع: "سأغني لك أنت". فهل سمع أحد آخر هذا غير الأعمى؟ ليس هذا مؤكدا. لكن الرجل العجوز نهض، وتهلل وجهه المظلم بالعمى بابتسامة، وراح يستمع بشغف. كانت تغني له! وبجواره الترزي الذي كان شاهدا على المعجزة. وهي معجزة كان له نصيبه منها. وسكت، وارتعش من السعادة والانبهار.

ـ عندما خرجنا، حكى لإدريس، أفسح الجمهور الطريق أمامنا باحترام. ولم أمنع نفسي من سؤال الأعمى عن كيف تخيل هو أم كلثوم. ولأن سؤالي لم يكن غير لائق، لم يتردد هو في الإجابة علي: "خضراء!" قال لي. هذا الأعمى بالميلاد رأى مغنيتنا الوطنية في هيئة اللون الأخضر! وحدد قائلا: "لصوتها تدرجات تشبه تدرجات خضرة الطبيعة، والأخضر هو اللون المحبب للنبي".

وبعد أن قص حكاياته عليه. صمت أموزين وابتسم وهو ينظر إلى إدريس. هذا الشاب الصغير فهم أن الصوت كان قويا بما يكفي لجعل أعمى يرى. وكانت دلالته غنية إلى درجة أن تستدعي اللون الأخضر في رأسه المعتم.

ولم يكن إدريس قد رأى أم كلثوم حتى بقدر ما رآها الأعمى. ولم تكن لديه قصاصة الجريدة التي يحتفظ بها أموزين في محفظته، والتي خمن البعض أنها لسيدة سمينة ذات وجه مكتنز، مقنع بنظارات سميكة سوداء، ولم يكن بوسعه الاحتفاء بتخيلها. لكنه استمع لها طوال ساعات، وشيئا فشيئا فرضت ذكرى زت زبيدة نفسها على عقله؛ كان الصوت الخشن بعض الشيء نفسه لامرأة، هو الصوت البدوي الشاب الذي كان لأم كلثوم على ما يبدو في بداية غنائها، بالنبرة الشهوانية لتعاسة محزنة. ورأى إدريس حينها البطن اللامع

الأسود للراقصة، وهذا الفم الذي لا شفاه له والذي عبرَ به كل الجسد المحجب باحتشام. كان له النطق المميز نفسه تماما، والنطق الموقع. كانت الكلمات متجردة حسب قواعد الأسلوب القرآني. ولها أيضا هذا التكرار المتنقل من نغمة إلى أخرى، وهذه العودة التي لا تمل للمقطع نفسه بتوقيع مختلف، إلى بلوغ درجة النشوة حتى الإبهار. بفرس النبي التي تحوم، وتحبط مكائد الموت، والجرادة التي دونت وكشفت سر الحياة...وكان أموزين هو نفسه الذي قدم إدريس إلى أستاذ الخط عبد الغفاري.

إذا لم يكن قولك أفضل من الصمت

إذن اسكت

كان هذا ما كتب بأعلى الباب بحروف مائلة ومهندسة بالأسلوب الكوفي، وكان أول درس تلقنه إدريس. والواقع أن الأستاذ عبد الغفاري أوصى تلاميذه بألا يفتحوا أفواههم في أثناء ثلاثة أرباع الساعة الأولى من الدرس.

وفي الغرفة الصغيرة التي يتم فيها تصنيع حبر الورشة، كان هناك نص آخر معلق على الحائط. كان يتضمن كلمة النبي التي تفصل بالقطع بين حكمة الإسلام وطقوس الألم والموت الخالص للمسيحية:

وتعلم إدريس صناعة حبر الحكماء هذا، بإضافة نصف لتر من الماء إلى خمسة جرامات من الملح، ومائتين وخمسين جراما من الصمغ العربي، وثلاثين جراما من جوزة الراتينج المحمصة والمطحونة، وأربعين جراما من سلفات الحديد، وثلاثين جراما من العسل، وترك هذا الخليط مدة ساعتين على نار هادئة مع التقليب من وقت إلى آخر، ثم إضافة خمسين جراما من الكربون الأسود، وترك الخليط مدة ساعة أخرى على النار، وأخيرا صب الحبر في منخل رفيع للغاية.

تعلم أيضا تقليم الريشة؛ لأن الخطاط عليه أن يصنع أدواته بنفسه، وألا يستخدمها سوى مرة واحدة. فطول القلم يكون شبرا، ليجعل الأصابع مفتوحة بقدر المسافة التي تفصل طرف الإبهام عن الأصبع الصغير. وبالضغط على طرف البوصة فوق رقاقة قدح من العاج، أو الصدف أو الحرشف، مع شقها بميل، ما يجعل للبوصة منقارا يغطي فتحة بيضاوية، هي البطن. ولا يشق المنقار في منتصفه، ولكن في أربعة أخماس عرضه. كما يجب أن يكون الشق قصيرا للأيدي الثقيلة، وأطول للأيدي الخفيفة. وهناك بوصة لكل أسلوب: الرقعة، والفارسي، والكوفي، والنسخي، والثلث، والديواني، والإيجاز. كما إن هناك العديد من البوصات من أجل الأحرف السميكة.

ولم تكن هذه المهمات الصغيرة الساكنة الرتيبة في الواقع إلا استهلالا للحركة الأساسية، لخط الحرف. ومن أول تدريب له على الخط، وجد إدريس نفسه مستغرقا في الزمن غير المحدود الذي عاشه دون أن يدري في تابلبالا. وفهم الآن أن هذه المناطق الواسعة للزمن كانت هبة لطفولته، وأنه سيعثر عليها من الآن فصاعدا بالدراسة، والتدريب، والتعويض. فضلا عن أن الدراسة المعروضة للخط تمد أفقيا بعض الأحرف المدمجة في خط الصمت، بمواضع السكون والهدوء، كحال الصحراء ذاتها.

وبقدر ما كان عليه أن يتحكم في يده، كان على التلميذ أن يتحكم في تنفسه. وقد حفظ إدريس عن ظهر قلب هذه الصفحة لمعلم الخط حسن مسعودي حول ارتباط التنفس بالكتابة.

تظهر كفاءة الخطاط في قدرته على جعل تنفسه ينعكس في نوعية عمله.

وهناك تقنية للتنفس، ففي العادة نحن نتنفس بلا نظام. لكننا عندما ننقش الخط، لا يكون بوسعنا أن نشهق أو نزفر كيفما اتفق. والخطاط يتعلم، طوال فترة تكوينه، كيف يوقف تنفسه، ويستفيد من وقفه في رسم الحرف كي ينجزه؛ فالحركة الزائدة شهيقا أو زفيرا لن تكون مناسبة لما نستلهمه أو نعبر عنه من أجل النتيجة المرجوة. وعندما تكون الحركة طويلة، ومن أجل أن يظل الخط طويلا، علينا أن نقطع النفس حتى لا يتلف الفعل. وقبل خط الحرف أو الكلمة، لا

بد من تحديد الأماكن التي يمكننا فيها التنفس. وأيضا، في الوقت نفسه، نعيد غمس الريشة في المداد. وهذه الوقفات تتم في مواضع محددة ومرمزة، حتى لو كان بوسعنا التنفس لو كان ما زال هناك حبر في الريشة. فالتوقفات تعمل إذن على تجديد التنفس والحبر.

والخطاطون، الذين يتبعون المناهج التقليدية، لا يحبون استخدام الريشات المعدنية ذات الخزانات، لأنها تسيل الحبر باستمرار ما يجعل التحكم على هذا النحو غير ذي جدوى، ويفقد الخطاط متعة الشعور بمعيار الزمن.

واللغة العربية تكتب باليد اليمنى من اليمين إلى اليسار. ولا بد من الحرص على ألا تنزلق اليد على السطر المكتوب توا. والواقع أن اليد شأنها شأن راقصة الباليه، عليها أن ترقص بخفة على الرق، وألا تتكئ بوزنها باعتبارها فلاحا على محراث.

والخطاط يكره الفراغ، ويجذبه بياض الصفحة، كما يجذب غيام الجو الرياح ويوقظ العاصفة، عاصفة الرموز التي تأتي في سحابات لتحط على الصفحة، باعتبارها عصافير حبرية على حقل من الجليد. والرموز السوداء تصطف بوصفها كتائب تواقة للحرب. وأسنان الريشة المنتصبة، وحواصلها المنتفخة، وأجنحتها المتثنية، تتقاطر من سطر إلى سطر، ثم تتجمع في تويجات، في ورود، في جوقات، بمقتضى تناظر حكيم.

إن إزميل النحات يحرر الفتاة الشابة، والرياضي أو الحصان من كتلة الرخام. بالشكل نفسه تعد الرموز سجينة للحبر والمحبرة. والريشة هي التي تحررها وتطلقها على الصفحة؛ فالخط تحرير.

أكثر من مرة بهذا الخصوص، ألمح المعلم عبد الغفاري إلى حكاية نموذجية، كانت بحسب رأيه تكمل الكلمة الأخيرة لدروسه ولخلاصة حكمة الخط، وهي حكاية أسطورة الملكة الشقراء. فمن الضروري أيضا أن يتعلم هؤلاء الشباب أن يدركوا المعنى بدقة، وأن يقدموا أفضل ما عندهم. هؤلاء المراهقون المسلمون الذين انغمسوا في المدن الغربية الكبيرة، متحملين كل أنواع العدوان من المثال والرمز والصورة. ثلاث كلمات تعبر عن الاستعباد نفسه؛ فالرمز قيد، والمثال سجن، والصورة قفل. وهناك مفتاح وحيد بوسعه أن يسقط هذه الأغلال؛ وهو الدلالة. فالصورة دائما استعادية؛ إنها مرآة متجهة إلى الماضي. وليت هناك صورة أنقى من الصورة الجنائزية، والقناع الجنائزي، وغطاء النعش. ولكن يا للأسف! تسيطر فتنتها بطريقة عاتية على النفوس الساذجة وغير الناضجة؛ فالسجن ليس فقط قضبانا، إنه أيضا سقف. والرتاج يمنعني من الخروج، لكنه أيضا يحميني من وحوش الليل. والصورة المحفورة على الحجر توقظ فتنة مدوخة غارقة في ظلمات ماض سحيق. والشكل الأكثر ابتذالا لهذا النوع من الأفيون تمكن ملاقاته بدور السينما؛ فهناك، في قلب صالات العرض المظلمة، رجال ونساء يمضون الساعات

الكاملة في التحديق المنوم مغنطيسيا بشاشة عريضة براقة تحتل حيز رؤيتهم بالكامل. وعلى هذا المسطح تومض وتبرق الصور الميتة التي تصل حتى عمق القلب، ويصبح الفرد في مواجهتها بلا دفاع.

والصورة، في الواقع، هي أفيون الغرب. والدلالة روح، والصورة مادة. أما الخط، فهو جبر النفس منقوش بواسطة العضو الأكثر روحانية في الجسد، وهو اليد اليمنى. إنه احتفاء باللا مرئي بواسطة المرئي. والزخرفة العربية تظهر الصحراء بالجامع، وبواسطتها ينتشر اللا نهائي في المحدود؛ لأن الصحراء هي الفراغ الخالص، متحررا من تقلب الزمن. هذا الرب الذي هو دون إنسان. والخطاط، في عزلة مقصورته، يضع يده على الصحراء وهو يعمرها بالدلالات الهاربة من بؤس الماضي، إلى قلق المستقبل، وإلى طغيان البشر الآخرين. إنه يتحاور وحده مع الله في وسط من الأبدية.

ليلة بعد ليلة، تماثل إدريس على هذا النحو للشفاء، وهو يستمع لدروس المعلم عبد الغفاري، وينشط يديه التي تكد بالعمل الشاق نهارا.

إلى أن جاء اليوم الذي دعاه فيه المعلم، مع بعض الآخرين، للجلوس حوله كي يستمعوا إلى أسطورة الملكة الشقراء.

الملكة الشقراء

كانت هناك في ما مضى ملكة، وهذه الملكة كانت تشع بجمال عظيم، جعل الرجال لا يستطيعون رؤيتها بغير أن يقعوا في غرامها. وكانت هناك خصوصية نادرة وغريبة في هذا البلد الجنوبي، ناتجة بالقطع عن هذه الجاذبية المهلكة لهذه المرأة، فقد كانت شقراء كالقمح النيئ، وهو ما يتطلب تفسيرا، لأن والديها كان لديهما شعر بلون أسود قاتم.

كانا قد تعارفا في صغرهما، وكانا ينتميان لعائلتين كبيرتين جارتين ومتخاصمتين تكرهان بعضهما بعضا. واضطرا إلى أن يتخفيا كي يلتقيا، ومن ثم راحا يتقابلان في حديقة نخيل مهملة تغزوها الرمال. وذات ليلة كانا يتبادلان فيها الغرام أكثر من بقية الليالي الأخرى، تأخر بهما الوقت. وأشرقت أولى شعاعات الشمس مداعبة الزوجين المستغرقين، في اللحظة نفسها التي كانا يضعان فيها بذرة طفلهما الأول، وهو ما تسبب في نقص خطير في قواعد الاحتشام، حيث لا يوجد أحد في هذا البلد يجهل العقاب الذي ينزل بالمحبين في عز النهار. ولكن، ألا يجوز عذر اللذين كانا مكرهين

بالخطيئة والكراهية لأنهما تبادلا الغرام بوحشية تحت النخيل والسماء شأن الغزلان والعصافير الصغيرة؟!

وحكم على طفلة الشمس هذه بأن تولد شقراء، شقرة متهمة، فاحشة، فاتنة...

كانت تلك إذن هي حالة طفلتهما، التي انتشرت حولها الفضيحة، وحصدت الاحتقار، قبل أن تتمكن من فهم اللعنة التي أصابتها بكثير. ومع ذلك، كانت كلما كبرت في السن، يشع جمالها أكثر، وراحت شقرتها تتألق. ثم حدث ما كان يجب أن يحدث؛ فقد وقع في غرامها ولي العهد، الذي كان يراقبها في الخفاء، وأحزن عائلته باشتراطه أن يتزوج هذه الفتاة الهجين ذات الشعر الفاحش. وجرت احتفالات زواجهما صاخبة إلى الغاية، لأنها توافقت مع احتفالات تتويج الأمير. وكان عليه في واقع الأمر أن يؤجل تتويجه حتى يقضي على مقاومة النبلاء الذين اعتبروا أن زواجه هذا بشعا وغير لائق. ويا للأسف! لم تدم سعادة هذين الزوجين الملكيين سوى فترة قصيرة! فقد رأى الأخ الأصغر للملك الجديد، الذي كان في خدمة بلاط أجنبي، زوجة أخيه للمرة الأولى. وكن لها عاطفة لا نظير لها. وقام بقتل أخيه، ليس بهدف الحصول على مكانه على العرش وفي سريره، إنما في سورة غيرة مجنونة، كي لا يجعله يلمس الملكة الشقراء.

وجرحها بقسوة قتل الأخ لأخيه، الذي كانت تعلم سببه؛ لذا استبعدت كل مشروع زواج جديد، وراحت تحكم منفردة. ولكي تضع حدا للدمار الذي تسبب فيه جمالها، قامت بتغطية رأسها ووجهها بخمار لا تخلعه إلا في أماكن إقامتها، وفي حضور أتباعها فقط. ولأن العاهل يعد في كل وقت وكل مكان نموذجا لأتباعه، فقد صار تقليدا بالمملكة ألا تخرج النساء إلا وهن مرتديات الخمار. وهذا التقليد، هو ما دفع فنانا رساما شابا، يدعى إسماعيل، لأن يضع نهاية سعيدة لمشروع جرىء. وكان من المفترض ألا يجد مشروعه القوة إلا إذا تمكن من رسم صورة لوجه الملكة، ولأنه قام برشوة إحدى خادمات الحريم، فقد حل محلها، بعد أن ستر وجهه بخمار. وتمكن هكذا أن يمتع عينيه يوما بعد يوم بجمال الملكة. وكان عندما يفرغ من العمل، يغلق على نفسه في خلوة، ويكدح بنشاط في إنجاز لوحة عمره.

وقدر لهذا العمل أن يكون إنجاز إسماعيل الوحيد، لأنه فهم أنه لن يمكنه أبدا أن يرسم شيئا آخر. ويائسا من غرقه في غرام بلا أمل، قام بشنق نفسه بجوار لوحته.

وهرمت الملكة، وشاب شعرها، ثم ماتت. لكن صورتها المرسومة احتفظت بالجاذبية الرهيبة لملامحها، بل ازدادت بها هذه الجاذبية على نحو غامض. وانتقلت اللوحة من يد إلى يد، مشعلة في

البلاط عاطفة مطلقة وبلا أمل. وقد عرضت بعض الوقت في رواق القصر مع الكنوز التي تراكمت عبر أجيال الحكام. وما كان منتظــرا حدث؛ فقد توالت خطابات الغرام المشتعل التي كانت ترسل كل يــوم من قبل مجهولين إلى الملكة الشقراء. وذات صباح، عثر على حراس القصر مغتالين؛ فقد ثقبت فتحة في السقف، ودخل لصوص إلى رواق الكنوز، ولكنهم تجاهلوا أواني الفضة المذهبة، والأحجــار الثمينــة، والأوسمة الذهبية. وكانت الصورة النصفية المرسومة للملكة هي فقط التي اختفت.

بعد عامين من ذلك، اكتشف مسافر كــان يعبــر الــصحراء المجاورة جثتي الرجلين اللذين سرقا اللوحة. ولأنهما كانا ما يــزالان يشهران أسلحتهما في أيديهما، كان من السهل معرفــة أنهمــا قــتلا بعضيهما بعضا. أما سبب ذلك القتال فقد كــان يــشع فــي الــشقرة السحرية الصادرة عن صورة الملكة.

وقام المسافر، الذي كان ورعا، بدفن الجثتين اللتــين تيبــستا، وصلى من أجلهما، وواصل طريقه. لكنــه أضــاف الــصورة إلــى حقيبته. وكان اسمه عبدر. وكان عضوا في طائفة دينية متزمتة، وقام ببيع الأيقونات والصور الورعة في أسواق المدينة. ومع ذلك امتنــع عن عرض لوحة الملكة الشقراء بمحله، وقام بتعليق الــصورة فــي غرفة نومه، قائلا لزوجته إنه لا يعرف ما حقيقة صاحبتها. واطمأنت

عائشة، زوجته، في البداية. لكنها سرعان ما أدركت أي متاعب جلبتها هذه الصورة لقلب زوجها. وعرفت تماما أثر عينيها، وثقل نظرتها، ما جعلها لا تنظر لهاتين الشعلتين المنطفئتين اللتين تلتمعان عند النظر إلى المرأة المرسومة؛ لذا عزمت هي على تدمير هذه الصورة الشريرة. وذات يوم، وبينما كان أحد النقاشين يعمل بالمحل، قامت باختلاس قنينة الحامض التي معه، وكسرتها على وجه الملكة. وعلى نحو عجيب لم يظهر أي أثر على اللوحة! لكن عائشة أصيبت بالمقابل بحروق في وجهها، وعثر عليها في المساء نفسه مشوهة الوجه على نحو عنيف. وأقسمت للجميع أن زوجها هو الذي سكب الحامض على وجهها في أثناء مشاجرة بينهما. واقتيد عبدِر أمام محكمة في طائفته، ورفض الدفاع عن نفسه؛ فقد كان عليه للدفاع عن نفسه أن يتهم عائشة وأن يكشف بالتالي سر الملكة المرسومة، وهو الأمر الذي كان يفوق قدراته. واعتبر صمته بمنزلة اعتراف، وحكم عليه بمصادرة كل ممتلكاته، وبأن يقضي بقية عمره في أحد الأديرة.

واختفت صورة الملكة المرسومة عدة سنوات، وربما عثر عليها باعتبارها شيئا مهملا، في إحدى العمليات المبهمة التي ظلت بلا تفسير.

بعد ذلك بوقت طويل، أقلق ملك بلد مجاور حاشيته بسلوكه الغريب؛ فقد كانت لديه غرفة سرية لا يستقبل فيها أحدا. وكانوا يجدونه يغلق على نفسه وحده كل ليلة ويظل داخل تلك الغرفة عدة

ساعات، وأحيانا طيلة الليل. وعندما كان يخرج، يجدونه شاحبا ممتقعا، ويلمحون في عينيه أثر البكاء الشديد. وحدث أن أصابت هذا الملك الشيخوخة، وشعر بأن قواه تتضاءل، فجمع رجال بلاطه، وحاشيته، وأطلعهم على رغباته الأخيرة. وعندما اقتربت ساعته، لم يحتفظ بجواره إلا بخادمه الأكثر إخلاصا له.

ـ عندما أموت، قال له، تأخذ هذا المفتاح المعلق في رقبتي بسلسلة ذهبية، وتفتح باب الغرفة السرية. ولكن قبل ذلك تحضر حقيبة، وتعقد على عينيك عصابة، وحين تتقدم داخل الغرفة تمد يديك، وسوف تجد لوحة، ودون أن تفك عصابة عينيك، تضع هذه اللوحة في الحقيبة، وبعد ذلك تسرع إلى شاطئ البحر، وتقذف بالحقيبة وما فيها إلى الأمواج. وهكذا تتوقف هذه اللوحة التي منحتني السعادة والشقاء طيلة نصف قرن من عمري عن ممارسة نفوذها، الذي هو نفوذ شرير في مجموعه.

وعقب ذلك، أغلق عينيه ومات.

وقام الخادم الأمين بتنفيذ الأوامر التي أمره بها الملك بدقة؛ فأخذ مفتاح الغرفة السرية، وتزود بحقيبة، وعصب عينيه، وفتح باب الغرفة، وأخذ اللوحة، ووضعها داخل الحقيبة دون أن ينظر إليها. وقذف بكل هذا في البحر.

وحدث في أثناء ذلك أن صيادا بائسا يدعى عنتر. وبسبب صيده لسمكة قرش بعد بعض الجهد، لم يتوان عن فتح بطنها؛ لأن هذه الأسماك الشرهة لكل شيء تحتفظ غالبا بمفاجآت سارة لمن يصطادونها. وكان بطن هذه السمكة يحتوي الحقيبة التي كانت مغلقة على اللوحة. وبعودته لمنزله، اكتشف عنتر أنه لا شيء غير هذه اللوحة في العالم بوسعه أن يملأ عينيه. وهكذا، فعقب تسببه في تعاسة وشقاء الملك، نكب هذا الوجه المرسوم وخرب في الوقت نفسه حياة أكثر أتباعه فقرا وتواضعا.

أهمل عنتر زورقه وشباكه مدة ثلاثة أيام متصلة. وعندما قرر بفعل توسلات زوجته وأطفاله أن يعود إلى البحر، عاد في المساء خاوي الوفاض. وبعودته بغير شيء في يده، جاعت عائلته. لكن ابتسامة غريبة، حزينة ومنتشية في آن معا، بدت على شفتيه، هي ابتسامة عشاق الملكة الشقراء.

كان ابن هذا الصياد البكر يدعى رياض، وكان يبلغ من العمر اثني عشر عاما. وقد أبدى هذا الابن شغفا ومهارة بالعلوم العقلية وفنون النفس التي علمها له الحكيم والشاعر والخطاط ابن حديدة، وكان يرعاه لكي يوصل إليه معرفته. ولم ينكر رياض عندما سأله معلمه عن سر هيئته المنكسرة وحالة الذهول الغريبة التي صار فيها.

ـ هذه الملكة الشقراء، سأله الحكيم، هل شاهدتها بنفسك؟

ـ بالطبع لا! صاح الغلام، فأبي يخفيها ويحرسها بغيرة شديدة؛ فكيف لي أن أراها؟

ـ هذا حسن للغاية، على الأقل مؤقتا. أقر الحكيم. ولكن عندما تصبح مدربا قليلا، لا بد أن تخاطر برؤيتها، كي تتمكن من انتزاع أبيك من السحر الشرير.

ـ وكيف لي أن أتعلم وأتدرب؟

ـ إنها مجرد صورة، بمعنى أنها مجموعة من الخطوط المتداخلة بعمق في اللحم، والتي هي مستخدمة بمادة ما تشع بفعل نفوذها، أجاب ابن الحديدة. فالصورة مزودة بإشعاع يصيب بالشلل، شأن رأس الحورية التي تحيل كل من يمر أمام نظرتها إلى حجر. ومع ذلك، فهذا الافتتان لا تمكن مقاومته إلا بالأعين التي تعرف الكتابة؛ فالصورة في الواقع ليست إلا تشابك رموز، وقوتها السحرية تأتي من إضافة الإبهام والتنافر إلى دلالاتها، بما يشبه سقوط واصطدام مليارات من نقاط البحر على نحو يجعلها تصنع الهدير الحادي للعاصفة، بدلا من التناغم البللوري الذي يمكن أن تسمعه أذن مدربة على تمييز أنه لا إنساني. وبالنسبة إلى متعلم، لا تعد الصورة

خرساء. كما إن زئيرها يتفكك بالنسبة إليه إلى أقوال عديدة ولطيفة. فالأمر لا يتطلب سوى معرفة القراءة...

وما إن تعلم رياض القراءة، أفهمه أستاذه أن السحنة لا تعني فقط وجها إنسانيا، لكن هناك وجوها أسلوبية تدعى رمامة زائدة، ونواحا، وترخيما استهلاليا، وغثيانا، وترخيما، وإبدالا، وفك الإدغام، والتركيب، والإدغام، وأشكالا بالبناء تدعى القطع الناقص، والزجزاجي، والتعلق المعنوي، وأشكالا من الكلمات أو التشبيهات تسمى بالمجاز، والسخرية، والرمز، والإيهام، والاستعارة، والمجاز المرسل، والمجاز البلاغي، والكناية، والتورية، والاستعارة المجردة، والتقعيد، وقلب المعنى، وأخيرا أشكالا من التفكير تدعى بالطباق، والمناجاة، والخاتمة الحكمية، والذاتية، والابتهال، والمبالغة، والتلطيف، والتشخيص، والوصف المؤثر.

وهذا يصنع كتلة سميكة من ستة وثلاثين شكلا – ثلاث دزينات – تحيطنا أينما ذهبنا، بمثل ما نرى في بعض الأيقونات جماعة الشخوص المجنحة باعتبارهم ملائكة صغارا ترافق أعمال وأيام أحد القديسين، وهذا هو الأدب. ووضع الأستاذ في يده الريشة المشقوقة والمشطوفة بميل، التي تعلم كتابة الخط، وبها عصير العليق (وهي فاكهة من فصيلة التوت، وليست من فصيلة العوسج) وعلى

رق من الورق كتب الأحرف الثمانية والعشرين للأبجدية (التي هي تسعة وعشرين إذا اعتبرنا اللام ـ ألف حرفا زائدا).

من ذلك اليوم تقدم الغلام في معرفة العالم الرهيب للصور، مسلحا بالريشة ورموز خطوطها، باعتباره صيادا شابا يتوغل في غابة مظلمة بقوسه وسهامه، ولكنه يتوغل في الأشكال. وأوصاه معلمه أن يخشى الوجه الإنساني، لأنه بالنسبة إلى الأميين هو المنبع الأكثر نشاطا للرهبة، والعار وفوق ذلك للحقد والحب.

قال له:

ـ هناك رمز معصوم يقر به البعض؛ فقد يقترب شخص من أحد بمحبة، إلى أن يكشف وجهه له عن رغبة جسدية أكثر مما يكشفها عضو آخر في جسده.

قال أيضا:

ـ أحد أسرار قوة الوجه تعود إلى تكوينه المرآوي، لأنه يبدو مكونا من نصفين متماثلين منفصلين بواسطة خط المنتصف الذي يمر بوسط الجبهة، وأرنبة الأنف وطرف الذقن. وبطبيعة الحال هذا التماثل ليس سوى تماثل ظاهري. وبالنسبة إلى من يجيد القراءة، فإن الدلالات التي يكونها، تشبه قصيدتين مليئتين بالسجع والطنين، لكن

صداهما يرن على نحو أقوى مما يدل الشيء الواحد، على الرغم من توافقهما.

وسحب من خزانته صورة لوجه رجل ملتح ذات تعبير صارم ومؤثر، يشي برغبة إخضاع الأشياء والأشخاص ـ أيا ما كان ما يفعلون ـ الذين يوجدون في طريقه.

ـ ما الذي يوحي به لك هذا الوجه؟ سأله.

ـ احترام صارخ، أجاب رياض. وأيضا نوعا من الشفقة. نرغب في طاعته، ولكن ليس بفعل الخوف فقط، فبالإمكان أيضا أن نحبه بعض الشيء.

ـ إنها رؤية جيدة للغاية. فهذا الوجه هو وجه السلطان عمر، الذي لم تكن فترة حكمه سوى سلسلة من أعمال العنف والكراهية. لكنه أفاد، بما إنك صرت قادرا من الآن فصاعدا على أن تحرر بالمعرفة الإشعاعات الغامضة التي تطل من هذا الوجه؛ راقب جيدا ما أفعل.

وتناول ريشة، وخط بأحرف كبيرة على الجانب الأيمن من الرق الكلمات الآتية:

الطفل (هو) أبو الإنسان

ثم تخير ورقة أخرى، وبيد جانحة، كتب على النصف الأيسر فيها:

جروح شابة، أقدار عظيمة

وعلى الجانب الأيمن من رق ثالث، كتب أيضا:

احذر أحلام الشباب

فهي تنتهي دوما بالتحقق

ثم كتب على النصف الأيسر من ورقة أخرى:

السلطة تصيب بالجنون

والسلطة المطلقة تصيب بالجنون المطلق

وأخيرا، على ورقة أخيرة، ولكن على كل مساحة الورقة هذه المرة، كتب هذه الكلمات:

الإنسان الوحيد رفيق سيئ دائما.

ـ والآن انظر جيدا!

وأمام الأعين المحدقة المندهشة لرياض، فرد ابن الحديدة قطع الرق الخمس نصف الشفافة المغطاة بالخطوط العربية. ولوحظ عندئذ ظهور شكل شفاف، كما لو كان يظهر من عمق بحيرة ساكنة، لوجه

هو وجه السلطان عمر بتعابيره الحزينة االقاسية، لكنه كـان ملطفـا برقة جريحة أثرت في رياض.

ـ هذا ليس كل شيء، تابع الحكيم، راقب هذا أيضا.

وقام بتعديل الترتيب الذي عـرض بـه أوراق الـرق، مـرة ومرتين وثلاث مرات. وفي كل مرة كان تعبير وجه السلطان يظهر تلقائيا، بحيث تبدو أحيانا إرادة آمرة، وأحيانا وحشية، وأحيانـا تبـدو في ملامحه ذاكرة طفولة محرومة من الحنان وتحتل وجهه.

ـ من المحتم، فسر الأستاذ، أن الورقة العلياً تفـرض نفـسها ببداهة أكثر من الأخيرة. كما أن الورقات الثلاث الأخرى تشف أيضا إلى هذا الحد أو ذاك. ولكن، أليس هذا ما يحدث في الحياة؟

ـ بالتأكيد، أقر رياض، فهناك العديد من البشر داخل كل فرد منا، وأحيانا ينطبع بعضها على وجهك، وأحيانا ينطبع بعض آخر.

ـ وهذا الوجه ليس سوى مجموعة من الدلالات المعبرة عـن حقيقة جلية، استنتج ابن الحديدة، ولكن نحن لا نلاحظهـا إلا عنـدما تظهر بفظاظة، كصرخة، أو تهديد أو نحيب. والآن، اذهب! اذهـب وواجه الملكة المرسومة، وانقذ والدك مـن تأثيرهـا. خـذ حبـرك، وأوراقك، وريشاتك، وعد إلى بيتك.

وانطلق رياض باتجاه بيت عائلته.

كان القارب قد سحب إلى البر، وكان من الواضح أنه لم يعمل منذ عدة أيام. وانفرج باب البيت على بؤس الأم والأطفال. لكن رياض عرف أنه سيدلف إلى الكوخ الخشبي، الذي صف فيه عنتر عدته وشباكه، وظل مغلقا بعناية قصوى، وكان هذا الكوخ قد صار بالفعل معبدا للملكة الشقراء. وكان الأمر يتطلب شجاعة كبيرة من الغلام كي يذهب ويطرق بابه. ولم يجبه أحد. كان الباب موصدا ولكنه منخور، وتمكن رياض بدفعة كتف صغيرة من دخول الكوخ. وأزاح ضوء شمعة في الظلمة، كانت كأنها قنديل في زاوية. وعلى الضوء الضعيف المرتعش لم يعد يرى إلا وجها، هو وجه الملكة الشقراء.

ودلف رياض في الظلمة، منجذبا بانقياد نحو اللوحة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يراها فيها. فكاد نفوذها السحري يفعل فعله في هذا الكائن البتول. وخر رياض على ركبتيه كما لو أنه أمام تمثال إله، وبدا له أنه غرق ولعا في عمق هذا الوجه الأشقر، وهذا الشعر الذهبي، وهذه الأعين الزرقاء.

ومرت دقائق، تعود فيها رياض على خفوت الضوء، وبدأت عدة تفاصيل داخل الكوخ تظهر أمامه: بعض المجاديف المحطمة،

وخيوط معقودة، وسلال متقوبة، وبعض القفف المشقوقة من الصفصاف. فكان كل شيء تعمه الفوضى، كما يقول الغريق مجاهرا. وفوق ذلك طفت الابتسامة الملغزة للملكة الشقراء.

ولكن سرعان ما لمح رياض عند قدميه أوراق رقه، وحبره وريشاته، أي هذه المواد القليلة لتلميذ عليه أن يتسلح ضد فتنة الصورة. وتربع عندئذ جالسا، وفرد كراسته على ركبتيه، وأمسك الريشة بيده اليمنى، وألقى على اللوحة نظرة باهتة ملؤها الانتباه التحصيلي.

ولم يمعن النظر طويلا كي يتأكد من أنه، شأن عمر وشأن كل كائن حي بالقطع، لم يكن هذا الوجه بالتأكيد سيمتريا. واتضح له أولا أن العين اليسرى لم تكن بالطبع مماثلة للعين اليمنى. فماذا قالت هذه العين اليسرى؟

خط رياض بيد ماهرة القسمات الرئيسية التي تكونها هذه العين، وشاءت هذه القسمات القول:

المجد، هو الحداد الفاقع للسعادة

ثم على رق آخر، نسخ صورة جانبية للعين اليمنى، ووجد نفسه يكتب هذه الكلمات:

عين الملكة عليها أن تعرف كيف (تكون) عمياء

ثم جاء دور أرنبة الأنف اليمنى التي رسمها الخط المرتفع قليلا جدا بفظاظة غير ظاهرة. فقرأ عندها هذه الكلمات:

حاسة الشم (هي) نقيض الوردة

وهكذا قرأ الدرجات الثلاث الوسطى للوجه الإنساني. وظلت الجبهة بالأعلى، وكان رسم الجبهة يشير إلى:

شرف الملكة (هو) حقل من الجليد لا أثر فيه لأي خطى

وأخيرا بالأسفل، قالت الذقن بمحيطها السميك والإرادي:

ما تشتهيه امرأة، يعتقد الرجل أنه مشيئة

ولم يتبق سوى الجزء الأكثر إثارة للاضطراب. والأصعب في الصورة، أي هذه الكتلة من الشعر الأشقر، التي يعلوها التاج، وتدنوه عبر تجعيدتين طائرتين. وغطى رياض الإيماءات المختلطة، بورقة من الرق، تماما كجاهل لم يقدر له أن يرى إلا تشعث شعر حريري ناعم. ولكن لمن يعرف القراءة، فهذا التشعث يقول في جانبه الأيمن:

الشقرة (هي) البراءة

وعلى الجانب الأيسر:

الشعر الفاتح، امرأة طائشة

ولإتمام ذلك، رسم رياض القلنسوة الملساء والمستوية التي علت الدائرة المعدنية للتاج. وهذا الشعر الذهبي، المضفر في دائرة ذهبية مسحوبة ومنضبطة بعناية تقول:

العدل، الإخلاص، قلب صاف

ــ أيها البائس، ماذا تفعل هنا؟

كان الظل الأسود لعنتر قد تجزأ في الإطار المواجه للباب. ونهض رياض مرتجفا. كان الصياد يمسك بخطاف وقد تهيأ لقذفه ضد هذا الدخيل الذي لم يستطع التعرف إليه في الظلام.

ــ انتظر يا أبي، إنه أنا، رياض، ابنك!

ــ من الذي سمح لك باقتحام هذا الباب والدخول إلى هنا؟

كانت النبرة مهددة طيلة الوقت، ولكن الخطاف تدلى نحو الأرض.

ــ كنت أدرس مع معلمي طريقة جديدة للاحتفاء بلوحة الملكة.

ــ هذه الصورة لي أنا وحدي. وقد حرمت على الجميع النظر إليها!

ـ أنا لست بحاجة للنظر إليها. فقد صار لدي ما هو أفضل منها. قال رياض، وهو يعرض أمام والده حزمة أوراق الرق التي يمسك بها في يده.

ـ ماذا يعني ذلك؟

كان هذا هو السؤال؛ السؤال الكبير الذي انتظره رياض. فتقدم نحو الباب، ووقف في النور الساطع.

ـ للحق يا أبي، أني جئت مع ريشاتي، وحبري، وأوراق الرق لكي أحل ألغاز الملكة الشقراء، وإليك ما وجدته.

ورفع إلى أعلى الورقات الثماني المنضدة التي غطاها برموز خطية. وظهر في التو وجه الملكة، وجه مكون من الزخارف العربية، وجه شبه شفاف، وساكن ، وروحاني.

وترك أبوه الخطاف يسقط من يده، وأمسك بالأوراق كي يتفحصها على نحو أفضل. وأصابه الافتتان بهذه النسخة الورعة للصورة التي خضع طويلا لعبوديتها الوحشية.

ـ أنا لا أفهم شيئا. غمغم.

ـ أنت لم تفهم كل شيء، لأنك لا تعرف سوى قراءة بعض الأحرف، شرح له رياض. ولكن هذه الملامح، كما ترى، تتضمن قصيدة لشكايات الملكة الشقراء التي كانت ضحية جمالها.

ثم انطلق صوته المراهق بغناء حزين، عن فتاة صغيرة لا يحبها أحد بسبب أصولها الشائنة، وصارت بعد ذلك فتاة مرغوبة على نحو خطر، ثم تحولت إلى امرأة مكروهة من البعض، محبوبة من الآخرين، ولم تجد في النهاية إلا الممارسة المتقشفة والانعزالية للسلطة لتعثر فيها على نوع من السلام.

وراح رياض يتكلم، ويتكلم، وتحولت عينا أبيه من شفتيه إلى أوراق الرق، ووجد الصياد نفسه مرغما على تكرار كل كلمة، وكل جملة، كما لو كان يصلي، وأقسم بصيغة تعزيم خالصة على فك السحر.

وفي اليوم التالي عاد رياض إلى أستاذه لمتابعة دروسه، وعاد عنتر بدوره إلى البحر. وفي كل مساء، كان الأب والابن يلتقيان بالكوخ في ظل البسمة الملغزة، التي صارت بسمة مسالمة للملكة الشقراء. وراح الغلام يرشد والده إلى الفن الراقي والحكمة العميقة لنقش الخط.

هلل عاشور

ــ ميدان فاندوم! آه يا ابن عمي! إنه القمة القصوى للحياة الباريسية؛ فبه الجواهرجية، ومحلات العطور، وفندق الريتز، وقصر

وزارة العدل. وإضافة إلى ذلك كله به تمثال نابليون العظيم على عموده! لا، ليس بوسعك أن تتخيل هذا في رأسك. ونحن الجديان، ماذا سنفعل هنا؟ لقد جئنا مع عدتنا، وسنقوم بتحطيم كل شيء!

كان ذلك من أجل القيام بأعمال الحفر الأولى لإنشاء موقف سيارات تحت الأرض من أربعة طوابق بمكنته أن يستوعب حتى ٩٠٠ سيارة، وهو عمل يستمر عدة أشهر بأرقى أحياء باريس. وبقليل من الاهتمام لهذا التفصيل، انشغل إدريس قبل كل شيء بالعدة، التي كانت جديدة بالنسبة إليه، والتي تسلمها؛ أي المطرقة الآلية ذات العجلات، التي صارت تقريبا رمزا للعامل المغربي.

كان الرجال يتجمعون بالميدان، من مطلع الفجر، مرتدين الخوذات الصفراء، والقفازات الجلدية، مع الكاميونات الأولى ومقطورة مضخة التبريد. ويشرعون في إقامة الأكشاك المصنوعة من الفبر الأسمنتي للأشغال العامة.

وابتعد إدريس ناظرا في ما حوله. عاشور لم يكذب؛ فكل شيء هنا يتميز بالأناقة. إنه المال وفرنسا العجوز؛ فمن جهة كان هناك فندق الريتز والواجهة العالية للمستشارية القديمة، ومن الجهة الأخرى الواجهات التي مع فرط بساطتها تعبر عن الفخامة، والبذخ، والرقي. وراح يستعرض أسماء الواجهات الواحدة تلو الأخرى لأسباب اجتماعية تخطتها الوجاهة: جيرلان، مورابيتو، هوبيجانت،

بنك الهند، بوشرون، شياباريللي، لي موست دي كارتييه، أخشاب الجابون. وتوقف أمام محل صياغة، يقبع خلف واجهة زجاجية ملونة، زجاجها سميك سمك الإصبع، ووراءه شرائط مضفرة، عليها نهر من الماسات المتلألئة على أرضية من الحرير الأحمر الرماني. وشعر الراعي الصغير القادم من تابلبالا بأنه يشاهد نوعا من معارض الجثث المجهولة التي تشع بسعادة زاهية. وعاد إلى رفاقه الذين أحاطوا بالمهندس، والمعماري، ورئيس موقع العمل. وتم تبادل الحديث باختصار عن بعض مواضع العمل.

ـ مدخل المرآب سيكون من جهة شارع كاستليوني، والمخرج، ناحية شارع السلام.

ـ ألا تخشى من زعزعة عمود الفاندوم؟

ـ بالنظر إلى ثقل وزنه، فهو لن يتحرك. لكن إذا تصدعت واجهات المباني، فسوف نحتفل بذلك!

في أثناء ذلك شرع موتور المبرد في الفرقعة. وكان سلك الحبل السري الذي يصله بالمطرقة يتلوى على بلاط الميدان. وكان عاشور يمسك بالمطرقة ويعطي درسا لإدريس.

ـ أترى يا ابن العم، يجب أن تمسكها هكذا. وتجنب أن تدعها تلمس بطنك، كي لا تصاب بالمغص.

وتدخل أحد الحفارين بحدة:

ــ نعم، وإياك أن ترتكب حماقة! فهذه هي أكثر القذارات التي اخترعت لقتل العرب! فإذا تحامقت، فسيسقط شعرك، وتبتلع أسنانك، وتقع أمعاؤك في حذائك!

واحتج عاشور:

ــ ولكن لا، ليس الأمر سيئا إلي هذا الحد! فالمطرقة الحفارة آلة رائعة. صدقني. إنها قضيبك، أتفهم؟ القضيب العملاق الذي تغزو به باريس وتنكح فرنسا.

وضحك الجميع حوله. وأمسك إدريس بذراع الآلة. وكان جسم المطرقة، الذي يرتج فوق الحفار، مع المضخة وفتحات شكمانها وطاقتها، يزن كله خمسة وعشرين كيلوجراما من الصلب. وكانت ساق الحفار العاملة تنتهي بسن سميكة تعمل على البارد. وكان هناك مثلث من الأرض الهشة ليقوم إدريس بتجربته فيها. وأنزل عتلة مفتاح التشغيل، وبدأ زر تفريغ الهواء عمله في التو بطقطقات متتالية جنونية. وفهم إدريس الدور الذي تلعبه كتلة عضلات وعظام العامل في الضغط على الآلة من أحد طرفيها. فمن الطرف الآخر، لا تستطيع السن المدببة إكمال عمله في التهشيم والاختراق دون الضغط على هذا المعدن المترجرج والمرن. وعندما اخترقت السن مسافة

ثلاثين سنتيمترا في الأرض، قطع إدريس مجرى الهواء. وكان عليه أن يسحب آلته. وهنا كان الحفارون يراقبونه هازئين، فقد انزرعت السن بشدة في الأرض المتماسكة. وكان من الضروري قلب المطرقة من أجل خلخلة القشرة الأرضية قبل إدخال السن فيها بشكل أعمق.

ـ شغلها ثانية، واجذبها ناحيتك، نصحه عاشور.

وعادت القرقعة، وثبت إدريس أقدامه للخلف، وزفر. لكن جسده كله؛ وبالدرجة الأولى رئتاه، هي التي صارت تتحمل الطرقات الهوائية. وتوقف مرهقا من الضربات، كملاكم تلقى سلسلة من اللكمات المباشرة في بطنه.

خلال ذلك الوقت كان رئيس العمل قد خط بالطباشير على الرصيف سلسلة خطوط تمثل خطة الشق الأول للحفر. واقترب إدريس وهو يجر المطرقة من الكابل.

كريستوبال وشركاه

صاغة وجواهرجية

من إفريقيا والشرق الأوسط

قرأ إدريس هذه الحروف على الواجهة الأقرب، التي كانت تضم قطعة حلي واحدة معروضة، هي قطرة الذهب التي كانت تبرق

وحيدة على فرش من القطيفة السوداء. ولم يصدق إدريس عينيه، فقد كانت هنا لا جدال، تلك الكرة الذهبية التي شاهدها أول مرة مدلاة برقبة زت زبيدة، والتي فقدها في شارع مرسيليا الساخن، وكانت الكرة البيضاوية منتفخة قليلا على قاعدتها، في لمعة ووضع محبب جعلها تبدو صانعة فراغا حولها، رمزا للتحرر، وترياقا ضد عبودية الصورة. نعم، كانت معلقة هنا خلف هذا الزجاج البسيط. وراح إدريس ينظر إليها مستندا إلى آلته العظيمة التي تخترق الأسفلت. كان قد نسي رفاقه، ورئيس العمال المتعجل، وميدان الفاندوم بإمبراطوره على عموده. وتراءت له زت زبيدة وهي ترقص في الليل بجواهرها ذات الصليل، وبقطرة ذهبها الصامتة. ووضع مقدمة مطرقته على حصباء الرصيف، وأنزل العتلة. وملأ الرعد الحديدي جسده. لكن إسفينا ما انفك فجأة وانفلت، مصطحبا هذه المرة رشقة من خشخشة معدنية ثاقبة. وتعالت قعقعة حادة، وضجة صناجات شديدة الحدة، وجلجلة هادرة، وانسلخت قشرة الأسفلت بلا صعوبة، كأنها جلد ثعبان. وتحرك إدريس دون أن يوقف آلته، وأدهشه أن يجد الأمر سهلا هكذا، ليقفز على سطح الرصيف. وكانت مرافقته في الرقص فارسته الجهنمية، زت زبيدة، التي تحولت إلى إنسان آلي مسعور.

وبينما هو يرقص في المكان مع مطرقته الخارقة، لم يشاهد واجهة محل كريستوبال وشركاه وهي تتهاوى من أعلى إلى أسفل. ولم يسمع غير نعير بوق الإنذار الذي انطلق مع الاهتزازات الأرضية. دنج، دنج، دنج. وظل إدريس يرقص ورأسه يعج بتخيل أفراس النبي، والجرادات، والجوهرة التي تهيجها رجفة مجنونة. وذرعت سيارة بوليس شارع كاستليوني، وكانت سيارة أخرى تعبر شارع السلام. وراح الدركيون المعتمرون الخوذات والدروع الواقية من الرصاص يظهرون ويهرعون صوب الواجهة التي ترضعها الورود، والتي استمرت في الجعير كأنها حيوان جريح. وكالأصم الأعمى، استمر إدريس في الرقص أمام نقطة الذهب بفرسته التي تعمل بضغط الهواء.

حاشية

الصحراء، هي أكثر كثيرا من صحراء، والإسلام نبع لا يسبر غوره. وقد جعلتني رحلاتي المتعددة للمغرب والشرق الأدنى أعرف قبل كل شيء مقدار جهلي. ولن أورد هنا سوى بعض الأسماء ضمن هؤلاء الذين ساعدوني على تأليف هذا الكتاب.

دومينيك شامبولت، الذي يشرف على دائرة إفريقيا البيضاء بمتحف الإنسان. والذي يعد كتابه تابلبالا[١] نموذجا للمونوغرافيا الإثنية ومصدرا لا ينضب للمعلومات.

صلاح ريزا الذي لم يكتب فقط هجرة المبعدين[٢] لكنه كان دليلي في مأوى العمال المغاربة بالإقليم الباريسي.

الجربي، الذي كشف لي خفايا مارسيليا الإفريقية.

وكل هؤلاء الذين كانوا يعرفون أكثر مني، وأجابوا عن أسئلتي:

---

(١) منشورات المركز القومي للبحوث العلمية.

(٢) منشورات كين للإنتاج.

جرمين تيون، روجيه فريسون ــ روش، ليلى منشاري، كلود بلانجيرنو، مارسيل إيشاك. وإيزابيل صياح التي تعرف كل شيء عن أم كلثوم[١].

وعلي أن أحيي على وجه الخصوص ذكرى العقيد ألكسندر برنار، الذي لقيته قبل وفاته بقليل على مقربة من بور أون بريس في المزرعة التي تقاعد بها. وكان قد بلغ السادسة والعشرين عاما ١٩٢٠، وهو الذي قاد طائرة الجنرال لابيرين. وقد أتى ذكر سيجسبرت دي بوفون – الشخصية المخترعة بهذه الرواية، علاوة على كونه مولعا بالكذب إلى درجة أنه ادعى أنه ألكسندر برنار – الذي نسخ حرفيا حكاية هذا الأخير التي احتفظت بتسجيلها. وبالنتيجة كانت كل التفاصيل التي وردت أصلية، بما في ذلك مقبرة لابيرين المؤقتة التي حفرت في آثار الطائرة، ووضع فوقها أحد إطاراتها، وتوج بخوذة الجنرال... وعندما عرض سيجسبرت دي بوفون كفيه كي يظهر ندوب محاولة الانتحار، لم ير إدريس شيئا بالطبع. لكن هذه الندوب رأيتها أنا على كفي برنار.

وأريد أن أشكر في النهاية أستاذ الخط العربي حسن المسعودي[٢] الذي مكنني من الاطلاع على فن تقليدي يختلط فيه الجمال بالحكمة والحقيقة.

ميشيل تورنييه

---

(١) منشورات دينويل.
(٢) الخط العربي الحي، منشورات فلاماريون.

المؤلف في سطور:

ميشيل تورنييه

ولد في باريس سنة ١٩٢٤، ويقيم منذ عام ١٩٥٧ في بيت كاهن رعية بوادي الشيفروز. وهناك، كتب روايته "جمعة أو غموض الباسفيك" (التي حصلت على الجائزة الكبرى للرواية من الأكاديمية الفرنسية).

وله أيضا رواية "ملك الأولن" (التي حصلت على جائزة جونكور بالإجماع). وأيضا رواية النيازك، إضافة إلى العديد من مجموعات الحكايات والقصص القصيرة والألبومات المصورة للصغار، وكذلك الدراسات الفنية والأدبية.

وكان كثير الأسفار مع تفضيل خاص لألمانيا والمغرب. وهو لا يذهب إلى باريس إلا لتناول الغداء مع أصدقائه من أكاديمية جونكور.

أعماله:

جمعة أو تخوم الباسفيك (رواية).

ملك الأولن (رواية).

النيازك (رواية).

الريح المقدسة (دراسة).

ديك الخلنج (قصص وحكايات).

جاسبرو، ميلشيور وبالتازار (حكاية).

رؤى خلفية تصوير إدوار بوبا.

جيل وجيني (حكاية) فوليو ١٧٠٧.

الغجري الذي لا يتحرك ــ رسوم جان ماكس توبو.

أزهار صغيرة فوليو ١٧٦٨.

سحور العشق (حكايات وقصص).

للصغار

جمعة أو الحياة البرية ــ فوليو للصغار ٣٠ ــ رسوم جورج لموان.

بييرو أو أسرار الليل ــ ألبوم مصور ــ رسوم دانييل بور ــ أنفانتيناج.

باربيدور ــ ألبوم مصور ــ رسوم جورج لموان ــ أنفانتيناج ــ فوليو كاديه ٧٤.

ريح الزنبق ــ فوليو للصغار ٢٤٠ ــ رسوم جورج لموان.

سبع قصص ــ فوليو للصغار ٢٦٤ ــ رسوم بيار إيزار.

الملك المجوسي ــ فوليو للصغار ٢٨٠ ــ رسوم ميشيل شاربيه.

كي تبدأ سعادتي ــ حكاية للعيد ــ رسوم جون كلافيري ــ أنفانتيناج .

منشورات بلفوند

الطابور وسيناء ــ دراسة عن الفن الحديث .

منشورات كومبلكس

أحلام ــ تصوير آرثر ترس.

منشورات دينويل

مرايا ــ تصوير إدوار بويا.

منشورات هيرشير

موت وبعث ديتر أبيلت.

منشورات لوشن هاشيت

المفاتيح والأقفال ــ لوحات ونصوص.

لدى ميركور فرانس

طيران مصاص الدماء ــ ملاحظات قراءة، أفكار ٣٨٥ .

المترجم في سطور

نجوى حسن

- حاصلة على دبلوم الدراسات السياسية العليا في (السياسة الخارجية لمصر في عهد السادات) فى جامعة السوربون - باريس عام ١٩٧٨.

- أنشأت وأدارت دار (أسفار) للنشر فى باريس عام ١٩٨٥ .

- عملت فى المركز الثقافي المصري فى باريس في الفترة من ١٩٩٢ إلى ٢٠٠٤.

تقوم حاليا بتدريس اللغة الفرنسية فى المركز الثقافي الفرنسي- بالقاهرة.

من ترجماتها :

ــ قصة موجزة عن المستقبل ــ جاك أتالي ــ المركز القومي للترجمة.

ــ من سيطعم العالم ــ ميشيل بارنييه ــ المركز القومي للترجمة.

ــ ممارسات تصنيع التراث في مصر والسودان .

- الموسوعة الاجتماعية الصادرة عن المركز الثقافي الفرنسي (الجزء القانوني).
- مجموعة ملفات سياسية بمجلة الثقافة العالمية.
- مجموعة قصص قصيرة بمجلة العربي.
- مجموعة قصص أطفال بمجلة العربي الصغير.

بالإضافة إلى الترجمات المتخصصة للشركات العالمية.

كما قامت بإعداد كتاب "العربية المصرية" الصادر عن دار أسيميل الفرنسية.

التصحيح اللغوى: **محمد خليفة**

الإشـراف الفنـــى: **حسن كامل**

"أعطني الصورة"

كان إدريس يرعى عنزاته وخرافه غير بعيد عن واحة تابلبالا، عندما بزغت سيارة لاندروفر، وقامت امرأة شقراء ذات سيقان عارية بالتقاط صورة للراعي الصغير الصحراوي، وأخبرته أنها سوف ترسل له صورته عند عودتها لباريس، وانتظر إدريس عبثًا. ولم تأت صورته الموعودة.

فيما بعد، عندما رحل صوب الشمال وحتى باريس للبحث عن عمل، صدمته صور له شخصيًا لم يتعرف على نفسه فيها، وتائهًا في قصر السراب، سقط في الضياع حتى وجد سلامه في الخط العربي؛ فالدلالة المجردة فقط هي التي ستحرره من طغيان الصورة، التي هي أفيون الغرب.

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن